د. أحمد بن عمر الزيلعي

جازان (المخلاف السليماني) في الجزيرة العربية

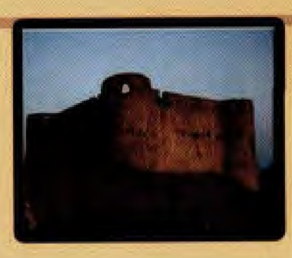
أمراؤها - أنسابها - أوضاعها السياسية علاقاتها الخارجية في العصور الإسلامية الوسيطة



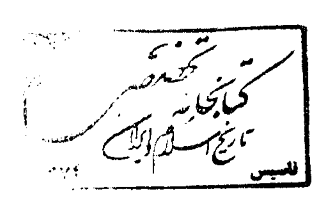


د. أحمد بن عمر الزيلعي

جازان (المخلاف السليماني)



جازان



جازان (المخلاف السليماني)

في الجزيرة العربية

أمراؤها - أنسابها - أشرافها - أوضاعها السياسية

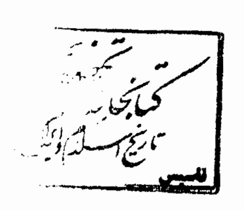
وعلاقاتها الخارجية في العصور الإسلامية الوسيطة

جازان (المخلاف السليماني)
في الجزيرة العربية

أمراؤها - أنسابها - أوضاعها السياسية
وعلاقاتها الخارجية في العصور الإسلامية الوسيطة

تأليف

د. أحمد بن عمر الزيلعي



الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

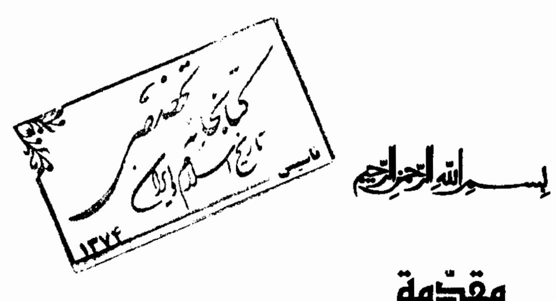
٢٠٠٦م - ١٤٢٧هـ



الدار العربية للموسوعات

الحازمية - ص.ب: ٥١١ - هاتف: ٩٥٢٥٩٤/ ٠٠٩٦١٥ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢/ ٠٠٩٦١٥
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣/ ٠٠٩٦١٣ - ٥٢٥٠٦٦/ ٠٠٩٦١٣ - بيروت - لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arab-enc-house@lynx.net.lb
البريد الإلكتروني: E mail: arab-enc-house@lynx.net.lb

مؤسسها ومديرها العام : خالد العاني



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

ظلّ الدّارسون والباحثون المحدثون، إلى عهود قريبة، عازفين عن البحث في التاريخ المحلّي لأقاليم الجزيرة العربيّة في العصور الإسلامية الوسيطة؛ إذ إن البحث في التاريخ المحلّيّ للجزيرة العربيّة طرق تعترضه العقبات، وتعتوره المصاعب، ويظنّه بعض دارسي التاريخ الإسلامي ضربًا من المجازفة؛ ويفضّلون - بدلاً من ذلك - اللجوء إلى اختيار موضوعات أخرى يرونها سهلة التّناول، واضحة المعالم في المصادر التي يرجعون إليها، وينقلون عنها. وفي حال منطقة جازان، فإن المهمّة أصعب، وتبعث على المزيد من التّهيُّب والإحجام؛ ذلك لأن المؤرّخين المحلّيّين المعاصرين لفترات هذه الدّراسة، ربما كانوا في غفلة عمّا كان يجري في تلك المنطقة من أحداث، وما يدور فيها من وقائع؛ ولا غرابة في ذلك، لأن جُلَّهم كانوا من اليمن ومن الحجاز، وربما كانت الوقائع التي تدور في هذين القطرين، تستأثر باهتمامهم دون غيرها من تلك التي كانت تدور في منطقة جازان أو ما كانت تعرف باسم المخلاف السليماني؛ ولم يشدّ اهتمامهم منها إلا ما كان له صلة بالتاريخ الرّسمي لليمن أو الحجاز مثل اشتراك الشّريف يحيى بن حمزة بن وهّاس في معركة الكظائم، بين بني نجاح والصّليحيّين، واشتراك ابنه غانم بن يحيى في معركة المَهْجَم، بين القائد سرور والوزير مفلح الفاتكي، ومقتل الشريف وهّاس بن غانم، أمير جازان، على يد عبد النّبي بن مهدي، وحريق مدينة جازان على يد الشّريف محمد بن بركات، أمير مكّة المكرّمة، وغزو المماليك الجراكسة لليمن بمساعدة أمير جازان، ثم بعض الحملات التأديبيّة التي كان يقوم بها سلاطين اليمن، وأشراف مكّة ضدّ أمراء جازان، وهي قليلة جدًّا في ظلّ فترة امتدّت حوالي ستّة قرون.

ولم يبرز - حسب علمي - من أبناء المنطقة، طوال تلك الفترة، مؤرخون يهتمّون بأحداثها، ويسجّلون وقائعها، ويوصلون ما انقطع من تاريخها، وجُهل من ماضيها العريق. ولولا ما وصلنا من ديواني الشّاعرين الجازانيّين القاسم بن هُتيْمل (القرن السابع الهجري)، والجرّاح ابن شاجر الذُّرْوِي (الربع الأول من القرن العاشر الهجري)، لضاعت أحداث أهمّ فترتين من فترات تاريخ منطقة جازان في القرنين المشار إليهما، ولجهل الكثير من أحداثها، وخفيت على الباحثين سِيَرُ حُكّامها، ومشاهير رجالها. ولا شكّ أن الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي الذي له فضل الرّيادة في الاهتمام بتاريخ منطقة جازان وتراثها، قد أسدى بتحقيقه لهذين الدّيوانين، ونشرهما جميلاً ومعروفًا للمنطقة، وللدّارسين عمومًا. فبفضل ما ورد فيهما، وفي دواوين شعريّة أخرى، من أسماء الشّخصيّات، والموقع، والأحداث - تمكّنّا من وضع الخطوط العريضة للمادّة العلميّة اللازمة للشّروع في هذا العمل، وذلك عن طريق ربط هذه المسمّيات مع الإشارات البسيطة الواردة في المصادر اليمنيّة الميسورة، ومع سيْر الأحداث التاريخيّة في اليمن بصورة خاصّة، وتوظيف ذلك كلّه توظيفًا علميًّا في تدوين موضوعات هذا الكتاب الذي نقدّمه للقرّاء بعنوان: **جازان (المخلاف السّليماني)، أمراؤها - أنسابها - أشرافها - أوضاعها السياسية وعلاقاتها الخارجية في العصور الإسلاميّة الوسيطة**. وهو - كما يتّضح من عنوانه - يبحث في جانبين، أو موضوعين إثنين مرتبطين ببعضهما، أحدهما: يتعلّق بالأوضاع الدّاخليّة للمنطقة، والآخر يتعلّق بعلاقاتها الخارجيّة. ففي الجانب الدّاخلي، يتناول الكتاب الأوضاع السّياسيّة التي كانت سائدة بمنطقة جازان منذ قيام بعض الأسر الحاكمة بها، واستقلالهم بترابها، واستماتتهم في الذَّود عنها، وعن حدودها، والمحافظة على استقلالها بعيدًا عن التّدخّلات الخارجيّة، وإن كانوا قد احتفظوا، في بعض الفترات، بخيوط رفيعة من الولاء للخلافة العبّاسيّة، إمّا مباشرة، أو عبر وسطاء حتى سقوط دولة بني العبّاس في سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م، ثمّ تلت ذلك مرحلة من الاعتماد على النفس، والصّراع من أجل المحافظة على منجزات الأجداد إلى أن دخلت

المنطقة مرّة أخرى في ظلّ خلافة إسلاميّة جديدة، **هي الخلافة العثمانيّة**.

أما في جانب العلاقات الخارجيّة، فيبحث الكتاب في علاقات أمراء جازان مع جيرانهم في اليمن، وفي الحجاز في مختلف المراحل التي مرّت بها المنطقة؛ وكانت تلك العلاقات مع الجيران غير مستقرّة، ولا تسير في اتّجاهات ثابتة، حيث كان يسودها الوئام مرّة، والجفاء والاقتتال مرّات كثيرة. ولم يقتصر الجازانيّون في علاقاتهم الخارجيّة على اليمن والحجاز فقط، بل ذهبوا بها إلى أبعد من ذلك، حينما استطاعوا مدّ جسور من الاتّصالات مع الأيّوبيّين والمماليك في مصر، وكانوا سببًا في تقويض نظام أسرتين من الأسر الحاكمة في اليمن هما: أسرة بني مهدي الذين قضى عليهم الأيوبيّون، وأسرة بني طاهر الذين دالت دولتهم - فيما عدا عدن - على يد المماليك الجراكسة.

أما هيكل الكتاب، فيحتوي على تمهيد يتضمّن موقع منطقة جازان أو المخلاف السّليماني، وحدودها قديمًا وحديثًا، وأوديتها وقبائلها، وولاتها، وأوضاعها السّياسيّة قبل استيطان بني سليمان فيها، واستقلالهم بحكمها. يلي ذلك فصول ثلاثة؛ **يتناول الفصل الأوّل**: بواكير استيطان الأسرة السّليمانيّة بالمنطقة، واستقلالهم بحكمها، وعلاقاتهم الخارجيّة مع بني نجاح في زبيد، والصّليحيّين في صنعاء، والهمدانيّين في الجُرَيْب، والزّيديّين في صعدة، ثم مع بني أيّوب بعد ذلك.

ويتناول الفصل الثاني: قيام أسرة الغوانم بمنطقة جازان، وعلاقاتها مع أسر الأشراف الأخرى التي كانت تخضع للأمراء الغوانم، وتأتمر بامرهم، ثمّ الأوضاع الداخليّة لمنطقة جازان خلال حكم الغوانم، وعلاقاتهم بسلاطين بني رسول في اليمن، والحروب التي جرت بينهم وبين بني رسول بغية السّيطرة على مدينة حرض وناحيتها التي كانت جزءًا من المخلاف السّليماني.

أما الفصل الثالث والأخير، فيتناول قيام الأسرة القطبيّة، وانتقال الحكم إلى أمرائها من بني عمهم، الغوانم، ثم جهودهم في استرداد مدينة حرض، وإعادة توحيد المخلاف السّليماني. ويعرض هذا الفصل كذلك للنّزاعات الداخليّة التي قامت بين أمراء هذه الأسرة، بعضهم من جهة، وبينهم وبين

قبائل ناحية حرض التي كانت تقع تحت حكمهم من جهة أخرى، كما يعرض لعلاقات هذه الأسرة مع بني رسول في أواخر أيّامهم، ثمّ مع بني طاهر الذين قضوا على دولة بني رسول، وورثوها في حكم اليمن، ويعرض أيضًا لدورهم في دعوة المماليك الجراكسة لاحتلال اليمن، والخدمات التي أسدوها لهم، ومشاركتهم لهم في حكم اليمن.

ويتناول هذا الفصل كذلك علاقات الأمراء القطبيّين مع أشراف مكة المكرّمة، وأمراء حلي بن يعقوب، والحروب التي قامت بين هؤلاء، وأمراء جازان، والتي انتهت باحتلال الشّريف أبي نميّ لمنطقة جازان، والقضاء نهائيًّا على حكم الأسرة القطبيّة، وضمّ إمارتهم إلى إمارة مكة المكرّمة.

وزُوّد الكتاب بملاحق تتضمّن ثلاث خرائط لموقع المنطقة قديمًا وحديثًا، وعددًا من جداول أنساب الأسر التي حكمت المنطقة طوال الفترات التي يغطّيها هذا الكتاب[1].

---

(١) تشتمل بعض مواد هذا الكتاب أو محتوياته على بحوث للمؤلف تمَّت إجراءات تحكيمها، ونشرها في مجلات علمية محكّمة، هي على التوالي: مجلة العصور، مج ٦، ج ٢، لندن، دار المريخ، ١٤١١ هـ/ ١٩٩١ م؛ حوليات كلية الآداب، الحولية ١٢، الرسالة ٧٣، الكويت، جامعة الكويت ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م؛ حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد الخامس عشر، قطر، جامعة قطر ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م.

تمهيد

الموقع

منطقة جازان قبل حكم بني سليمان

الموقع

تقع منطقة جازان في جنوب غرب المملكة العربية السعودية، وتمتد حدودها شمالاً إلى إمارة البِرْك أو بِرْك الغِمَاد التابعة لإمارة مكة المكرمة، وجنوبًا إلى حدود المملكة العربية السعودية مع اليمن، ويحدها من الشرق إمارة منطقة عسير، ومن الغرب البحر الأحمر حيث تقع على ساحله الشرقي مدينة جازان، العاصمة الإدارية الحاليَّة للمنطقة، ومقر الإمارة، والإدارات الحكومية[١]، وهي غير جازان الداخليَّة التي كانت، قبل اندثارها، عاصمة المنطقة في عهد الأشراف الغوانم، والأشراف آل قطب الدين. وتقع أطلالها على بعد حوالي سبعة كيلومترات إلى الشمال الشرقي من مدينة أبي عريش الحالية، وتعرف باسم الدَّرْب أو دَرْب النَّجاء، ومنها أو من الوادي الذي تقع عليه، ربما جاء اسم المنطقة[٢].

وكانت حدود منطقة جازان، بعد أن اتخذت وضعها السياسي خلال الفترة التي تغطيها هذه الدراسة، تمتد إلى أبعد من حدودها الحالية بكثير، حيث وصلت من الشمال إلى إمارة حَلِيْ بن يعقوب، ومن الجنوب إلى ما وراء

---

(١) أنظر: العقيلي، المخلاف السليماني؛ ج ١، ص ٣؛ المعجم الجغرافي، ص ١٤ - ١٥؛ محمد عريشي، أبو عريش، ص ١٣ - ١٥؛ وانظر أيضًا: خريطة منطقة جازان الملحقة بهذا الكتاب، رقم (٢).

(٢) العقيلي، الآثار التاريخية، ص ٣٧ - ٥٦؛ المعجم الجغرافي، ص ١٠١ - ١٠٢. كانت عاصمة المنطقة، قبل جازان العليا، مدينة عثر الواقعة على ساحل البحر الأحمر، وعلى بعد حوالي أربعين كيلومترًا إلى الشمال من مدينة جازان الحالية، في مصب وادي بيش. أنظر العقيلي، المعجم الجغرافي، ص ١٥٨.

ناحية حَرَض في الجمهورية العربية اليمنية حاليًّا، وضمت أراضي واسعة من تلك التي تدخل ضمن نطاق إمارة عسير في الوقت الحاضر[1]. وكان تتكون فيما مضى من مخلافين أو إقليمين إثنين هما: مخلاف عثَّر أو عَثْر الواقع إلى الشمال من جازان حتى حدود إمارة حلي بن يعقوب شمالاً، وعاصمته، قبل جازان العليا، مدينة عثر التي نسب هذا المخلاف إليها[2]. ثم مخلاف حَكَم، ويلي مخلاف عثر من الجنوب، ويمتد إلى ما وراء منطقة حرض جنوبًا، وعاصمته مدينة حرض المعروفة حاليًّا في اليمن، أو مدينة السَّاعِد، بناحية حرض أيضًا، وموقعها غير معروف في الوقت الحاضر، وكان يطلق اسمها على هذا المخلاف، فيقال: مخلاف السَّاعد، أو مخلاف حكم[3]. وقد تم توحيد هذين المخلافين، أو دمجهما معًا في مخلاف واحد سمي المخلاف السليماني نسبة إلى سليمان بن طرف الحكمي الذي يعتقد أن هذا الدمج تم على يديه في الثلث الأخير من القرن الرابع الهجري / أواخر القرن العاشر الميلادي، وبقي هذا الاسم علمًا على المنطقة حتى عصور متأخرة[4].

---

(١) يذكر عمارة أن حدود المخلاف السليماني تمتد من حلي بن يعقوب إلى الشرجة، وسنرى من خلال هذه الدراسة أنها امتدت، بعد عمارة، إلى أبعد من ذلك داخل اليمن، كما أنها شملت أجزاء من منطقة عسير في ناحية خبت شَفْقَة، والجُوَيْف، وأيضًا في الداخل من الشرق. أنظر: عمارة، المفيد، ص ٦٣؛ وخريطة المخلاف السليماني الملحقة بهذا الكتاب، شكل رقم (٢). وعن حلي بن يعقوب أنظر: أحمد الزيلعي «بنو حرام» ص ١٠١ وما بعدها؛ «المواقع المندثرة»، ص ١١ وما بعدها.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٨٦؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٠١.

(٣) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٧٥ - ٧٦، ٢٥٩؛ ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ٢٨؛ ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص ٥٦؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ص ٨٠ - ٨١، ٢٠١؛ محمد عريشي، أبو عريش، ص ١٣.

(٤) أنظر ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ٢٨؛ العقيلي، المعجم الجغرافي، ص ١٤. أُلِّفت مجموعة من الكتب التي تختص بهذا الإقليم في عصور متأخرة، ترجع حياة بعض مؤلفيها إلى القرن الهجري الماضي، وهي تحمل في عناوينها اسم =

وتقع معظم أراضي المخلاف في تهامة الساحلية المطلة على البحر الأحمر، وتتصل من الشرق بمنطقة الحزون، ثم بجبال السَّرَاة، ويطلق على هذا الجزء من تهامة «تهامة الشّام» وتمتد إلى ما وراء حرض والساعد جنوبًا، على حين يطلق على الجزء الواقع في اليمن «تهامة اليمن»، وتمتد من هذين الموقعين شمالاً إلى عدن جنوبًا[1]. وكان سكان منطقة جازان، أو المخلاف السليماني يعرفون باسم «الشِّمَة»، أو «أهل الشَّام»، ويقابلهم في الجانب الآخر من تهامة «أهل اليمن»، أو «اليمانيون»[2]. وقد استمر هذا الاصطلاح إلى أوائل عصر بني رسول في اليمن، عندما اقتصر لفظ الشَّام، أو الجهات الشَّامية على المنطقة الممتدة بين حرض، وزبيد، وأصبح هذا اللفظ يطلق بصورة خاصة على سَهَام، وسُرْدُد، ومَوْر، ورَحْبَان، واحتفظت منطقة الدراسة باسم: «المخلاف السليماني، أو جازان» واحتفظ أهلها بتسميتهم: «أهل المخلاف السليماني، أو أهل جازان»[3]، كما سيأتي في ثنايا هذا الكتاب.

ويضم المخلاف السليماني عددًا من المدن الإسلامية، بعضها لا يزال عامرًا مثل: حرض، وأبي عَرِيْش، وجازان السَّاحِلِيَّة، وضَمَد، وصَبْيا، وبَيْش، ودَرْب بني شُعْبَة، والشُّقَيْق (اللؤلؤة قديمًا)، والقَحْمة، وبعضها الآخر

= المخلاف السليماني، مما يؤكد شيوع هذه التسمية إلى عهد قريب. أنظر: قائمة المصادر والمراجع في آخر هذا الكتاب.

(١) أنظر: ابن الأهدل، علماء اليمن، مخطوط، ورقة ٢٠ ب، ٤٠ أ؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ٢٢٠، ٢٨٨، ٣١٦، ٤٩٣، جـ (٢) ٥٢٠، ٥٧١، ٦٨٦؛ العرشي، بلوغ المرام، ص ١٢٠؛ تسيجر، «رحلة في تهامة وعسير وبلاد الحجاز»، ص ٩٩؛ الواسعي، فرجة الهموم والحزن، ص ١١٣.

(٢) أنظر ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص ٥٦. في بلوغ المرام للعرشي، ص ١٢٠ «اليمانون»، ولعلها الأصح، وإنما بدون لام التعريف، أنظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ ٣، ص ١٠١٩.

(٣) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٤٠١؛ العقود اللؤلؤية، جـ ٢، ص ١١٠، ١٥٠، الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ٩٠، ١٠١.

في حكم المندثر مثل: السَّاعِد والهَلِّيَة، والشَّرْجَة، وجازان العليا، والرَّاحَة، وعثّر، وضَنْكَان المشهورة بوجود منجم للذهب فيها[1]. وتقع معظم هذه المدن والمواقع الأثرية على أودية تاريخية مشهورة، تنحدر سيولها من المناطق الجبليّة، وتصب في البحر الأحمر؛ وتسقي مساحات واسعة من الأراضي الطِّيْنِيَّة الخصبة الواقعة على ضفافها؛ منها على سبيل المثال: وادي حَيْران، ووادي حرض في الجمهورية العربية اليمنية، ووادي خُلَبْ، ووادي الكُوْر، ووادي جازان، ووادي ضمد، ووادي صبيا، ووادي بيش، ووادي عُتْوُد، ووادي رِيْم، ووادي حَمَضَة، وغيرها في المملكة العربية السعودية[2].

(١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٥٩؛ الجوهرتين؛ ورقة ٢٣ أ، ب؛ العذري، منازل الحجاز، مخطوط، ١٥ أ.

(٢) العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٣٠ - ٤١، ٧٣.

منطقة جازان قبل حكم بني سليمان

كانت معظم أقاليم الجزيرة العربية مفككة العرى، وقبائلها متفرقة الكلمة، لا رابط بينها إلا ما عرف من أحلاف هَشَّة، تتحكم فيها العصبيات القبيلة، وتلعب بها الأهواء الشخصية. فلما جاء الإسلام، وعمت دعوته الجزيرة العربية، وتسابقت قبائلها إلى الدخول في دين الله أفواجا - عملت الدعوة الجديدة على تأليف القلوب، وتوحيد المشاعر، وتوحدت بالتالي أقاليم الجزيرة العربية المختلفة، وأسلمت قيادها للمدينة المنورة التي غدت العاصمة الأولى للدولة الإسلامية؛ فمنها انطلقت الدعوة إلى جميع أنحاء الجزيرة، وإليها قدمت وفود القبائل معلنة إسلامها، وتسليم قيادها لعاصمة الإسلام الأولى.

وكان من بين هذه الوفود، وفود تهامة، شَامِيِّها ويَمانِيِّها، ويهمنا منها الوفد الذي كان على رأسه عبد الجَدّ بن ربيعة الحكمي، زعيم مخلاف حكم بتهامة الشام(١)، ذلك المخلاف الذي أصبح - فيما بعد - يكوِّن الجزء الجنوبي مما عرف في التاريخ باسم المخلاف السليماني، أو الجزء الأكبر من منطقة جازان الحالية(٢). ومنذئذٍ دخلت منطقة الدراسة في الإسلام، ودخلت كذلك في تبعية الدولة الإسلامية التي كانت تتَّخذ من المدينة المنورة مقرًّا له.

---

(١) أنظر: الهمداني، الإكليل، ج ٢، ص ٢٤٢؛ ابن حجر العقلاني، الإصابة، ج ٢، ص ٣٨٧؛ محمد أمين صالح، عصر الولاة، ص ٤٨؛ عبدالرحمن الشجاع، اليمن في صدر الإسلام، ١٨٠ - ١٨١.

(٢) العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٨٠، ٢٠١؛ المعجم الجغرافي، ص ١٤.

ولما انتقلت الخلافة إلى الكوفة، ثم إلى دمشق، في عهد بني أمية، ظلت منطقة الدراسة جزءًا من الخلافة الإسلامية، تدفع إليها زكواتها، وتشارك بأبنائها في حركة الفتوح الإسلامية. واستمر الحال كذلك بعد انتقال الخلافة إلى بغداد في عهد الدولة العباسية، ولا سيما في عصورها الأولى المتَّسمة بالمركزيَّة، وبقوة السيطرة على الأطراف. وحتى بعد ضعف الخلافة العباسية، واستفحال أمر الدول الاقليمية في أطرافها، واستقلال أسر محلية بحكم بعض أقاليم الجزيرة العربية، ومنها منطقة جازان؛ فإن تلك المنطقة ظلت متمسكة بخيوط من الولاء الاسمي لخلفاء بني العباس، كما سيأتي.

غير أن هذا الجزء من تهامة - شأنه في ذلك شأن كثير من الأجزاء الداخلية في الجزيرة العربية - لا نعرف شيئًا عن ولاته أو حكامه المحليين طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة النبوية، أو ما يعرف اصطلاحًا باسم «عصر الولاة»[١]. ولعل أول إشارة تصادفنا عن حكام جازان في العصور الإسلامية المبكرة، كانت في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك (ت ٩٦ هـ/ ٧١٩ م)، حيث تذكر بعض المصادر أن الأخير أقطع الشاعر أبا دَهْبَل الجُمَحِي أرضًا بمنطقة جازان[٢]. وكان أبو دهبل قد تولى قبل ذلك عملاً في جهة اليمن من قبل عبدالله بن الزبير[٣]. وليس في حكم المؤكد عمَّا إذا كان ذلك العمل الذي وليه أبو دهبل لابن الزبير، هو منطقة جازان نفسها، وأن سليمان أعادها إليه، أم أنه تولى لابن الزبير عملاً آخر في مكان آخر من جهة اليمن، أو الجنوب، غير منطقة جازان. ويبدو أن أبا دهبل مكث زمنًا ليس قصيرًا في هذه

---

(١) يقصد بعصر الولاة في اليمن، القرون الثلاثة الأولى للهجرة حتى بداية الحركات الاستقلالية عن الخلافة الإسلامية في ذلك القطر. أنظر: محمد أمين صالح، عصر الولاة، ص ٤ وما بعدها في أماكن متفرقة.

(٢) أبو دهبل، الديوان، ص ١٩، ٣٠؛ الأصفهاني، الأغاني، جـ ٦، ص ١٦٠.

(٣) أبو دهبل، الديوان، ص ١٨، ٢٣. ربما يقصد باليمن هنا جهة الجنوب، وليس إقليم اليمن؛ لأن كلمة اليمن مرادفة لكلمة الجنوب، كما أن كلمة الشام، مرادفة لكلمة الشمال، وسيأتي بيان ذلك لاحقًا.

المنطقة، بدليل ورود كثير من أمكنتها في شعره بما في ذلك جازان نفسها[1]، وأنه عندما توفي في حوالي سنة ١٢٦ هـ/ ٧٤٣ - ٧٤٤ م، دفن بوادي عُلْيَب، على الطريق بين جازان، ومكة المكرمة، فلعله استمر مُقْطَعًا بتلك المنطقة حتى عهد الخليفة الأموي الوليد بن يزيد (ت ١٢٦هـ/ ٧٤٤م)، وعندما أدركته المنية في السنة المذكورة[2].

أما في عهد الدولة العباسية فيزداد الأمر صعوبة، إذ لم يعثر في المصادر المتاحة على أي اسم لحاكم محلي، أو لوالٍ عباسي على منطقة جازان في العصر الأول لتلك الدولة، وإن كان في حكم المؤكد أنها كانت مرتبطة بمكة المكرمة عند قيام الدولة العباسية.

وكان يليها مع اليمن، والحجاز، واليمامة، داود بن علي بن عبدالله ابن العباس، في عهد الخليفة أبي العباس السفاح سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، ومقره مكة المكرمة[3]، ثم محمد بن إبراهيم بن علي الهاشمي في عهد الخليفة هارون الرشيد سنة ١٧٨هـ / ٧٩٥م، ومقره مكة أيضًا[4].

---

(١) من شعر أبي دهبل في جازان:

سَقَى اللهُ جازانا ومن حلّ وَلْيَهُ ... وكلَّ مَسِيْلٍ من سَهَامِ وسُرْدِدِ

أنظر: الديوان، ص ١١٤؛ والأغاني للأصفهاني، جـ٦، ص ١٦٢؛ ومعجم البلدان لياقوت، جـ٣، ص ٢٠٩؛ ومعجم ما استعجم للبكري، جـ١، ص ١٥. وانظر شعره عن باقي المواقع، في أماكن متفرقة من المصادر نفسها؛ وابن قتيبة، الشعر والشعراء، جـ٢، ص ٦١٤ - ٦١٧.

(٢) أنظر: أبو دهبل، الديوان، ص ٣١.

(٣) ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص ٣٤٠؛ الجندي، السلوك، جـ١، ص ٢٠٧؛ الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص ٢٧٧ - ٢٧٨؛ الديبع، قرة العيون، جـ١، ص ١٢٩.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، جـ٨، ص ٢٦٠؛ ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ٢١ - ٢٢؛ الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص ٢٨٤؛ محمد أمين صالح، عصر الولاة، ص ١٠٤. تذكر بعض المصادر أن حَمَّادا البربري ولي مكة واليمن سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م، في خلافة هارون الرشيد، ولعل ذلك في بداية ولايته لليمن. أنظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، جـ٨، ص ٢٧٢؛ الفاسي، العقد الثمين، جـ٤، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

وفي عهد الخليفة المأمون، اتخذت الخلافة العباسية سياسة جديدة تتمثل في ضم جميع التهائم بعضها إلى بعض، من جنوبي الحجاز إلى عدن، وجعلها ولاية مستقلة ومنفصلة عن المناطق الجبلية والداخلية من اليمن، وربما عن الحجاز أيضًا. ومن المحتمل أن هذه السياسة تمخضت عن ثورة قامت بها كل من قبائل الأشاعر وعَك، وغيرها من القبائل التهامية ضد الخلافة العباسية في سنة ٢٠١هـ / ٨١٧م[١]. ووفقًا لهذه السياسة الجديدة، أسند المأمون ولاية المناطق التهامية إلى محمد بن إبراهيم بن عبدالله بن زياد السفياني الذي سيطر على معظم المناطق التهامية، واختط مدينة زبيد في الوادي الذي يحمل اسمها، وادي زبيد، في شعبان سنة ٢٠٤هـ / ٨٢٠م[٢]. ودعم المأمون الوالي الجديد بعدد من القوات النظامية التي وصلت إلى زبيد تباعًا في سنة ٢٠٦هـ / ٨٢٢م، وسنة ٢٠٧هـ / ٨٢٣م[٣]. فتمكن ابن زياد، وبعض أبنائه بفضل دعم الخلافة العباسية من مد سيطرتهم على منطقة جازان، وحمل حكامها المحليين على الخطبة للبيت الزيادي جنبًا إلى جنب مع خلفاء بني العباس الذين كان هو بدوره يخطب لهم، ويحمل إليهم الأموال، والهدايا النفيسة[٤].

---

(١) الجندي، السلوك، جـ١، ص ٢٢٠ - ٢٢١؛ الديبع، بغية المستفيد، ص ٣٩. ظلت اليمن بمختلف ولاياتها مرتبطة بمكة المكرمة طوال عصر الولاة، وعن طريق والي مكة العباسي كان ولاة اليمن يتلقون تفويضهم الأعمال التي تسند إليهم، حتى بعد قيام بعض الأسر المحلية بتولي أمور اليمن بالوراثة من أولئك الذين يدينون بالولاء والتبعية للخلافة العباسية، مثل بني زياد في زبيد، وبني يعفر في صنعاء. أنظر: الخزرجي، العسجد، ص ٣٥؛ الديبع، قرة العيون، جـ١، ص ١٧٥؛ وانظر أيضًا، حاشية المحقق رقم (٣) في الصفحة نفسها.

(٢) الوصابي، تاريخ وصاب، ص ٢٢؛ الديبع، بغية المستفيد، ص ٣٩.

(٣) عمارة، المفيد، ص ٥٢؛ ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ٢٦؛ محمد أمين صالح، عصر الولاة، ص ١٢٥ - ١٢٦.

(٤) أنظر: الوصابي، تاريخ وصاب، ص ٢٢؛ الخزرجي؛ العسجد، ص ٩٨.

غير أن تبعية هذه المنطقة لبني زياد، ربما لم تستمر طويلاً بعد وفاة مؤسس الأسرة الزيادية في سنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩ - ٨٦٠م؛ لأن قطاعًا كبيرًا من منطقة جازان كان ضمن أعمال مكة المكرمة في حياة الجغرافي والمؤرخ العربي المعروف، اليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م)[١]. ويغلب على الظن أن ذلك الوضع استمر بعد وفاة اليعقوبي، لأن الدولة الزيادية دخلت في مرحلة من الضعف والتمزق بسبب تهديد القرامطة بزعامة علي بن الفضل، لبني زياد في عقر دارهم، وسيطرتهم على مناطق كثيرة من تهامة اليمن التي كانت، من باب أولى، تحت نفوذ بني زياد المباشر، وتدخل من الناحية الجغرافية ضمن نطاق مدينة زبيد التي لم تكن هي نفسها لتنجو من تعسف رجال ابن الفضل الذين دخلوها، واستباحوها[٢]، في وقت ربما كانت فيه منطقة الدراسة بمنأى عن تهديد القرامطة، مما أتاح لحكامها المحليين فرصة الاستقلال بشؤونهم الداخلية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، تشير الدلائل التاريخية إلى أن منطقة جازان، ثم تهامة اليمن كانت في ذلك الوقت تدخل ضمن نفوذ والي مكة المكرمة، عجّ بن حاجّ الذي وليها لبني العباس من حوالي سنة ٢٨١ إلى ٢٩٥ هـ / ٨٩٤ - ٩٠٨ م، وربما إلى ما بعد ذلك. وكان يتولى أمر التهائم، من قبله، أخوه المظفَّر بن حاجّ الذي قتل على يد قرامطة اليمن في حوالي سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ - ٩١١ م[٣].

وعندما توفي علي بن الفضل في سنة ٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م، وانحسر بوفاته

---

(١) أنظر: اليعقوبي، البلدان، ص ٢٤.

(٢) عن استيلاء القرامطة على المواقع التهامية الواقعة في نطاق مدينة زبيد، ودخولهم زبيد نفسها، واستباحتها. أنظر: الخزرجي، العسجد، ص ٤٠؛ الديبع، قرة العيون، جـ ١، ص ١٩٢، ١٩٨ - ١٩٩؛ يحيى بن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٢٠١، ٢٠٣ وما بعدهما في أماكن متفرقة.

(٣) أنظر: الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣٢٣ (الحاشية)؛ الجندي، السلوك، جـ ١، ص ٢٢٦ (الحاشية)؛ الخزرجي، العسجد، ص ٣٥؛ الديبع، قرة العيون، جـ ١، ص ١٧٥.

التهديد القرمطي لبني زياد، فإن الأخيرين ربما لم يكن في مقدورهم استعادة سيطرتهم على منطقة جازان التي يعتقد أنها ظلت في أيدي سلطاتها المحلية، بدليل أن الهمداني المتوفى بعد سنة ٣٤٤ هـ/ ٩٥٥ - ٩٥٦ م، يذكر أن الجزء الجنوبي من منطقة الدراسة، وهو مخلاف حكم، كان ملوكه من آل عبدالجد الحكميين، والجزء الشمالي منها، وهو مخلاف عثر، كان ملوكه من بني مخزوم من قريش(١)، مما يدعونا إلى الاعتقاد بأن أجداد الأخيرين ربما كانوا يتبعون إمارة مكة المكرمة على القول الذي سبق إيراده لليعقوبي، وأنهم كانوا يحكمون ذلك الجزء نيابة عن والي مكة المكرمة من قبل بني العباس الذي سبقت الإشارة إليه. ويعزز قول الهمداني، وعدم خضوع تلك المنطقة لسيطرة بني زياد خلال تلك الفترة، ما يذكره عمارة الحكمي في سياق حديثه عن انتفاض بعض أطراف دولة بني زياد عليهم، في عهد أبي الجيش، إسحاق بن إبراهيم، الذي حكم معظم القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، حيث يقول: «وأما الذي سلم لابن زياد حين طعن في السن، فله من الشَّرجة إلى عدن طولاً عشرون مرحلة، وله من غَلافِقَة إلى صنعاء عرضًا: خمس مراحل»(٢)، أي أن منطقة الدراسة كانت تقع خارج نفوذ بني زياد. ويذكر المقدسي، المعاصر لتلك الفترة، والمتوفى سنة ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م، أن ناحية عثر «عليها سلطان برأسه»(٣)، ويفهم من عبارة المقدسي أن سلطان عثر كان يحكم بمفرده، أي بمعنى آخر، كان مستقلاً بالشؤون الداخلية لتلك الناحية. وهكذا يلاحظ أن منطقة جازان، أو المخلاف السليماني حققت، منذ عهد مبكر، استقلالاً داخليًا على يد حكام محليين من أبنائها ربما كانوا يتوارثون حكمها كابرًا عن كابر. ومع ذلك، فمن المعتقد أن المنطقة ظلت على ولائها الاسمي للخلافة العباسية، إما مباشرة، أو عن طريق نوابها أينما كانوا، في مكة، أو في تهامة اليمن، بدليل العثور على عدد من النقود الذهبية المضروبة في

(١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٥٩.

(٢) عمارة، المفيد، ص ٦٤؛ وانظر أيضًا: الوصابي، تاريخ وصاب، ص ٢٦.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٨٦.

مدينة عثر، يحمل بعضها اسم الخليفة العباسي المطيع لله (ت ٣٦٣ هـ/ ٩٧٤م)، وبعضها الآخر يحمل اسم ابنه الخليفة الطائع لله (ت ٣٨١ هـ/ ٩٩١م)[(١)].

وعلى الرغم من الإشارات الواضحة في المصادر الميسورة عن وجود حكام محليين يديرون شؤون المنطقة، ويتوارثون حكمها، وينتمون إلى أسر عريقة من أهلها، فإن أيًّا من تلك المصادر لم يشر إلى أسماء هؤلاء الحكام، ولا إلى مدد حكمهم، حتى إذا حلت سنة ٣٧٣ هـ/ ٩٨٣ م، برز من بين هؤلاء الحكام اسم سليمان بن طرف الحكمي الذي تمكن - كما سبق الإشارة - من توحيد مخلافي عثر وحكم في مخلاف واحد سمي المخلاف السليماني نسبة إليه، واستقل بشؤونه الداخلية تحت النفوذ الاسمي للخلافة العباسية التي من المحتمل أن اتصاله بها كان مباشرًا، وليس عن طريق مكة أو بني زياد على الأقل في السنوات التي بقيت من حكم الأخيرين في عهد أبي الجيش الذي توفي في حوالي سنة ٣٩١ هـ/ ١٠٠٠ م[(٢)]. ولم تعد علاقة المخلاف ببني زياد إلى سابق عهدها إلا لفترة قصيرة جدًّا، هي تلك الفترة التي كان فيها الحسين بن سلامة يتولى الوصاية على الدولة الزيادية حتى وفاته في سنة ٤٠٢ هـ/ ١٠١١ - ١٠١٢ م[(٣)].

وتجدر الإشارة إلى أن ابن حوقل، المعاصر لتلك الفترة، يذكر أن تهامة

---

(١) محمد أبو الفرج العش، النقود العربية الإسلامية، ص ٣٠٦. وتحتفظ مؤسسة النقد العربي السعودي بخمس قطع من الدنانير الذهبية المضروبة في مدينة عثر، عاصمة المنطقة في ذلك الوقت، وتحمل اسم الخليفتين المذكورين في المتن. وهي مسجلة برقم ٤٠٣، و ٤٢٤، و ٤٢٥، و ٤٢٩، و ٤٣٣؛ وتاريخ سكها بين سنة ٣٦٣ هـ/ ٩٧٣ - ٤ م وسنة ٣٨١ هـ/ ٩٩١ م.

(٢) عمارة، المفيد، ص ٦٥؛ ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ٢٨؛ الديبع، بغية المستفيد، ص ٤٠. كانت مكة المكرمة مستقلة في ذلك الوقت عن الخلافة العباسية، وتحكمها أسرة محلية من الأشراف الموسويين الذين يدينون بولائهم الاسمي للخلافة الفاطمية في مصر، وليس لخلفاء بني العباس في بغداد (أنظر: الحاشية ٢ ص ١٤).

(٣) عمارة، المفيد، ص ٦٥ - ٦٦؛ الوصابي، تاريخ وصاب، ص ٢٧ - ٢٨.

كان يحكمها ثلاثة من الملوك هم: أبو الجيش، ملك زبيد، وابن طرف، ملك عثر، والحرامي، ملك حلي بن يعقوب، ويذكر أن هؤلاء الثلاثة الملوك خطبوا لصاحب المغرب في ذلك الوقت[1]. ويجد المرء صعوبة في الجزم بهذا الخبر الذي ينفرد به ابن حوقل المعروف بميوله الفاطمية، ولم يرد في غير كتابه من المصادر التاريخية المتاحة بما في ذلك المصادر اليمنية الموثوقة، خاصة وأن ابن حوقل توفي في سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م، وابن طرف وصل إلى الحكم في سنة ٣٧٣ هـ/ ٩٨٣ م، كما تقدم، إلا أن يكون ابن طرف الذي يورده ابن حوقل، شخصًا آخر حكم المخلاف قبل سليمان بن طرف المذكور، ومن الأسرة نفسها، أو أن الأخير هو نفسه الذي يعنيه ابن حوقل، وإنما كان يحكم عثر قبل توحيده للمخلاف السليماني، وأن السنة المذكورة هي سنة توحيده للمخلاف، وليست بداية حكمه. وفي تلك الحالة، ليس من المستبعد أن يكون نشاط دعاة الإسماعيليين في اليمن منذ أواخر القرن الثالث الهجري / أواخر القرن التاسع الميلادي، قد أوجد أرضية خصبة تمكن من خلالها هؤلاء الدعاة من التأثير على حكام تهامة، وحملهم على الدعوة للخليفة الفاطمي بالمغرب[2]. يضاف إلى ذلك أن حكام مكة الموسويين تبنَّوا الدعوة والخطبة للفاطميين منذ سيطرة الأخيرين على مصر في سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩ م[3]، فربما

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٣ - ٣٤؛ أنظر أيضًا: أحمد الزيلعي، «بنو حرام»، ص ١٠٣.

(٢) الزيلعي، «بنو حرام»، ص ١٠٣ - ١٠٤. بدأت الدعوة الإسماعيلية تنشط في اليمن منذ حوالي سنة ٢٦٨ هـ/ ٨٨٠ - ٨٨٢ م. أنظر: القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص ٩ - ٢٦؛ يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ج ١، ص ١٦٥؛ محمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ص ٥٨ - ٥٩.

(٣) كان قيام الأسرة الموسوية بمكة المكرمة متزامنًا تقريبًا مع مجيء الفاطميين إلى مصر، واتخاذهم القاهرة المعزية عاصمة لدولتهم، وقد اتخذت هذه الأسرة جانب الولاء للفاطميين في معظم أدوار تاريخها. أنظر: أحمد السباعي، تاريخ مكة، ج ١، ص ١٧٢ - ١٧٦؛ أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص ٤٢ - =

أثّرت مكة التي أشرنا سابقًا إلى أن جزءًا كبيرًا من منطقة جازان كان يقع تحت دائرة أعمالها - على ملوك تهامة في قبولهم بالتّبعيّة والولاء للفاطميين، والخطبة في بلادهم باسم خلفائها[١]، وإن كنا نعتقد أن ذلك الولاء - إن وجد - كان قصيرًا، ولظروف سياسية بحتة، وليس لاعتبارات مذهبية؛ لأن أهل تهامة ظلوا متمسكين بمذهبهم السني، وبالولاء للخلافة العباسية، راعية ذلك المذهب، على مر العصور، كما سيأتي.

= ٤٧؛ ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة، ص ١٤ - ٢٣.

(١) ممن خطب للفاطميين من ولاة اليمن في تلك الفترة، عبدالله بن قحطان بن عبدالله بن أبي يعفر (٣٨٧ هـ/ ٩٨٧ م)، حاكم صنعاء من قبل بني العباس، حيث يذكر كل من الخزرجي والديبع أن عبدالله بن قحطان قطع الخطبة لبني العباس، وخطب للعزيز العبيدي، صاحب مصر، في سنة ٣٧٩ هـ/ ٩٨٩ - ٩٨٠ م، أنظر: العسجد، ص ٤٧؛ قرة العيون، ج ١، ص ٢٢٧.

الفصل الأول

العهود المبكرة لبني سليمان بمنطقة جازان

من هم السليمانيون؟
استيطانهم، وبدء حكمهم.
ظهورهم على المسرح السياسي.
بنو حمزة بن وهاس.
بنو سليمان وعبدالنبي بن مهدي.
بنو سليمان وبنو أيوب.
علاقات المؤيد بكل من الأيوبيين والإمام الزيدي.

من هم السليمانيون؟

لا يجد الدارس لتاريخ الأشراف السليمانيين بالمنطقة، إلا معلومات شحيحة، ومتفرقة في ثنايا الأحداث الشهيرة التي كانت تهامة اليمن، أو تهامة الشام مسرحًا لها. وظل الدارسون زمنًا طويلاً - على حد علمي - يتحاشون إفراد الأسرة السليمانية بدراسة علمية مستقلة، أو حتى جزئية وافية، تبرز تاريخ تلك الأسرة، وتفتح بابًا لدراسات أخرى جادة عنها[1]. ولا غرو، فإن تاريخ بني سليمان في اليمن، والمخلاف السليماني، أو حتى في الحجاز يكتنفه كثير من الغموض؛ لأن تلك الأسرة كانت تظهر على مسرح الأحداث من وقت إلى آخر، ثم لا تلبث أن تختفي دون أن تلعب دورًا واضحًا يكشف غموض تاريخها، ويؤهلها إلى جذب انتباه الدارسين، والفوز باهتماماتهم. وهذا، بطبيعة الحال، ربما يرجع إلى ندرة المعلومات المباشرة، عن أفراد تلك الأسرة، في بطون المصادر المتاحة، وكذلك إلى قلة الإشارات التاريخية التي لا تغري الدارسين، ولا تحملهم على البحث في تاريخ بني سليمان. ولكن هذه المحاولة المتواضعة التي تضع الإطار العام لتاريخ الأشراف السلمانيين في منطقة جازان، أو المخلاف السليماني، يرجى لها أن تفتح الباب لدراسات أخرى متعمقة تتناول تاريخ الأسرة السليمانية، بل وتاريخ المنطقة عامة بشيء من التفصيل والإفاضة.

---

(١) تناول العقيلي بقدر من الاختصار، بعض فترات حكم هذه الأسرة في كتابه المخلاف السليماني، جـ ١، ص ٢٠٦ - ٢١٣، وكذلك الدكتور ركس سميث في دراسته القيِّمة التي جعلها مقدمة لتحقيق كتاب السمط الغالي الثمن، لابن حاتم، أنظر:
The Ayyúbids and Early Rasúlids in the Yemen, PP. 53-56.

وإذا كان تاريخ الأسرة السليمانية يكتنفه الغموض، فإن أنسابها تعرضت إلى أخطاء غير قليلة في كتب المؤرخين؛ فابن خلدون، على سبيل المثال، ينسبهم إلى سليمان بن داود بن الحسن المثنَّى بن الحسن السِّبط بن علي بن أبي طالب(١). وتبعه في ذلك كل من أبي العبّاس القلقشندي(٢)، ونجم الدين عمر بن محمد بن فهد(٣)، وعبدالملك بن حسين العصامي(٤)، حيث يذهب هؤلاء، وغيرهم إلى الاعتقاد بأن أول من قام منهم في مكة المكرمة هو محمد بن سليمان بن داود، ثم تتابع حكم أفراد هذه الأسرة فيها، بدءًا من جعفر بن محمد بن الحسن، أو من مَكَّن للأشراف في حكم مكة(٥)، وانتهاءً بوفاة شكر بن أبي الفتوح سنة ٤٥٣ هـ/ ١٠٦١ م الذي انقرضت بموته دولة بني سليمان في مكة، على حد قول هؤلاء(٦).

والحقيقة، هي خلاف ذلك لا من حيث التاريخ، ولا من حيث النسب؛ فمن حيث التاريخ، يلاحظ أن هؤلاء المؤرخين خلطوا بين أبناء الأسرة السليمانية، والأسرة الموسوية، فلم تكن الأسماء التي ذكروها في تواريخهم لما يعتقدونهم بني سليمان في مكة - على الأقل منذ منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي - سوى أسماء أفراد الأسرة الموسوية التي تنتسب إلى موسى الثاني بن عبدالله الشَّيخ الصَّالح بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب(٧).

---

(١) العبر، جـ ٤، ص ٢١٢.

(٢) صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٦٧.

(٣) أتحاف الورى، جـ ٢، ص ٤٦٦ - ٤٦٧.

(٤) سمط النجوم، جـ ٤، ص ١٩٢.

(٥) ابن عنبة، عمدة الطالب، ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٦) ابن خلدون، العبر، جـ ٤، ص ٢١٢، ٢١٦، ٢١٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٦٧ - ٢٧٠؛ ابن فهد، أتحاف الورى، جـ ٢، ص ٣٦٢، ٤٦٦ - ٤٦٧؛ العصامي، سمط النجوم، جـ ٤، ص ١٩٢، ١٩٥، ١٩٨.

(٧) ابن حزم، جمهرة، ص ٤٧؛ الفاسي، شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٣٠٦. نشر الدكتور =

وكان أول القائمين منهم في مكة المكرمة في أواخر العهد الأخشيدي، هو أبو محمد جعفر بن محمد بن الحسن أو الحسين الأمير بن محمد الثائر بن موسى الثاني إلخ..[1]. وقد امتدت دولتهم في مكة إلى ما يزيد قليلاً على قرن من الزمان حتى دالت بموت شكر بن أبي الفتوح سنة ٤٥٣ هـ/ ١٠٦١م[2]. ولم يكن لبني سليمان نصيب من حكم مكة طوال هذه الفترة، باستثناء ورود اسم بعض زعمائهم في حادثة بسيطة سيأتي ذكرها في مكان آخر.

أما من حيث النسب، فإن إرجاعهم إلى سليمان بن داود بن الحسن المثنى يجانب الصواب، وتنقصه الدقة، لأن بني سليمان ينتسبون إلى فرع آخر من أبناء الحسن المثنى، هو فرع عبدالله المحض، وحقيقة ذلك الثابتة في المصادر الموثوقة، أن عبدالله المحض أنجب عدَّة أولاد منهم: موسى الجون، الجدّ الأبعد لجميع الأشراف الحاكمين في مكة، وفي المخلاف السليماني[3]، وقد أنجب موسى الجون بدوره ولدين هما: إبراهيم، جدّ بني الأخيضر أصحاب اليمامة، وعبدالله الشيخ الصالح الذي يتفرع من نسله بنو

= ريتشارد مورتيل بحثًا قيمًا عالج فيه وجهات النظر المختلفة حول نسب الأسرة الموسوية، وإن كنت لا أتفق معه في إطلاقه اسم الجعفريين على هذه الأسرة مخالفًا بذلك الاصطلاح الشايع بين المؤرخين، وهو تسميتهم باسم الأسرة الموسوية، أنظر:

"The Genealogy of the Ḥasanid Sharifs of Makkah," Vol. 12, No.2, 2, PP.221-236.

(١) ابن حزم، جمهرة، ص ٤٧؛ ابن عنبة، عمدة الطالب، ص ١٠٧ - ١٠٨، Al-Zaila°I, "The Southern Area of the Amirates of Makkah", PP.142,449, No.39.

(٢) عن هذه الأسرة، ومدة حكمها لمكة المكرمة، أنظر: الفاسي، شفاء الغرام، جـ ٢، ص ١٩٣ - ١٩٦؛ أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص ٤٢ - ٦١؛ ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية، ص ١٤ - ٢٣.

(٣) ابن حزم، جمهرة، ص ٤٦ - ٤٧؛ الملك الأشرف، طرفة الأصحاب، ص ١٠٥، ١٠٩؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٢١، ٥٠؛ عاكش، الذهب المسبوك، مخطوط، ص ١٣ - ١٤.

سليمان، المعنيون بهذه الدراسة[1]. وهكذا، فإن بني سليمان ينتسبون إلى سليمان بن عبدالله الشيخ الصالح بن موسى الجون بن عبدالله المحض بإجماع النسابين الذين تيسر لي الاطلاع على مؤلفاتهم[2]، وليس إلى سليمان بن داود بن الحسن المثنى الذي ليس لذريته أي نفوذ بالمخلاف السليماني، على حد علمي[3].

وبعد هذا التأصيل لنسب الأشراف السليمانيين، يتعين على المرء تحديد البيت أو الفرع الأدنى الذي تنتمي إليه الأسرة السليمانية الحاكمة في المخلاف، لأن بني سليمان بن عبدالله انقسموا إلى فروع، وفخوذ كثيرة، واستوطنوا، بمرور الزمن، مناطق متفرقة في العراق، والشام، والحجاز، وأطراف اليمن، وإيران[4]، ولكن يتضح من كتابات بعض النَّسَّابين أن أحد هذه الفروع، وهو فرع الطيب داود بن عبدالرحمن بن أبي الفاتك عبدالله بن داود بن سليمان بن عبدالله الشيخ الصالح بن موسى الجون[5] - هو الفرع الأدنى الذي يصعد إليه معظم أشراف المخلاف السليماني بمن في ذلك أفراد الأسرة الحاكمة - سواء في المخلاف، أو بعض من قام منهم في مكة

---

(١) ابن عنبة، عمدة الطالب، ص ٩١، ٩٩؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٥٠.

(٢) ابن حزم، جمهرة، ص ٤٧؛ الملك الأشرف، طرفة الأصحاب، ص ١٠٨، ١٠٩؛ ابن عنبة، عمدة الطالب، ص ٩٩؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٢١؛ عاكش، الديباج الخسرواني، مخطوط، ص ٧ - ٨.

(٣) يذكر ابن حزم أن عقب سليمان بن داود فقط من ابنه محمد بن سليمان بن داود بن الحسن ابن علي بن أبي طالب، وأن عددهم يتجاوز المائتين، وأنهم بالحجاز، ولهم فيه ثروة وجموع. أنظر: جمهرة، ص ٤٣.

(٤) ابن عنبة، عمدة الطالب، ص ٩٩ - ١٠١.

(٥) أنظر على سبيل المثال: ابن حزم، جمهرة، ص ٤٧؛ الملك الأشرف، طرفة الأصحاب، ص ١٠٨، ١١٢؛ ابن عنبة، عمدة الطالب، ص ١٠١؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٢٢.

المكرمة(١).

وممن يورد فرع «آل أبي الطيب» هذا من النسابين، ابن عنبة الداودي الذي يذكر أنهم «عدد كثير يسكنون المخلاف، وقد تقسموا إلى عدة أفخاذ، وبطون، منهم: وَهّاس، وبنو علي، وبنو شَمَّاخ، وبنو مُكْثِر، وبنو حَسَّان، وبنو هِضَام، وبنو قاسم، وبنو يحيى، وهؤلاء كلهم أولاد أبي الطيب بصلبه، إلا مكثر وشماخ، فإنهم أولاد أولاده»(٢). ويقول أيضًا: «وأعقب وهاس بن أبي الطيب من ستة رجال: محمد، وحازم، ومختار، ومكثر، وصالح، وحمزة. ولحمزة بن وهّاس هذا صارت مكة شرفها الله تعالى، بعد وفاة تاج المعالي شكر بن أبي الفتوح»(٣)، وهو أيضًا - أي حمزة بن وهاس - الجد الأقرب للأسرة السليمانية التي حكمت المخلاف السليماني في الفترة التي يتناولها هذا الفصل كما سيأتي.

---

(١) نذكر من أشراف المخلاف الذين لا ينتمون إلى فرع أبي الطيب، الأشراف النَّعامية أي أبناء نعمة، وهؤلاء من بني سليمان، ولكنهم من فرع نعمة بن عبدالرحمن بن أبي الفاتك عبدالله ابن داود بن سليمان بن عبدالله بن موسى الجون... إلخ. ومنهم أيضًا: الأشراف الحوازمة، وهؤلاء يرجعون في نسبهم إلى يحيى بن عبدالله المحض القائم بالديلم، ويحيى هو أخو موسى الجون الذي سبق ذكره، أنظر: ابن حزم، جمهرة، ص ٤٧؛ الملك الأشرف، طرفة الأصحاب، ص ١١٢؛ عاكش، الديباج الخسرواني، مخطوط، ص ٨. قام بمكة من بني أبي الطيب، أبو الطيب نفسه، ثم محمد بن أبي الطيب، ثم حمزة بن وهاس بن أبي الطيب، وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد.

(٢) عمدة الطالب، ص ١٠١.

(٣) ابن عنبة، عمدة الطالب، ص ١٠١.

استيطانهم، وبدء حكمهم

لا تتوفر في المصادر المتاحة أدلة كافية ومقنعة عن بداية حكم هذه الأسرة للمخلاف السليماني، وإن كان بعض المؤرخين يذكرون أن حكم بني سليمان لهذه المنطقة بدأ منذ إخراجهم من مكة بعد سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م على يد مؤسس أسرة الهواشم، الأمير محمد بن جعفر بن أبي هاشم (ت ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م)(١). وقد لقي هذا الرأي الذي يورده ابن خلدون، قبولاً من عدد من المؤرخين الذين جاءوا بعده بمن في ذلك بعض الكتاب المحدثين(٢). غير أن الإشارات القليلة التي توردها بعض المصادر المحلية تظهر خلاف ذلك، وتؤكد على أن وجود الأشراف السليمانيين في المخلاف واستيطانهم به، كان قبل هذا التاريخ بكثير، ولعل ذلك حدث بعد سنة ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م، حيث يذكر بعض مؤرخي المخلاف السليماني أن أول خارج من الحجاز إلى المخلاف السليماني هو داود بن سليمان، وأنه استولى عليه بمساعدة الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين(٣). ومعروف أن الإمام يحيى بن الحسين

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٢٢٠.

(٢) أنظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٨؛ العصامي، سمط النجوم العوالي، ج ٤، ص ١٩٩؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٠٦؛ العسيري، الحياة السياسية، ص ٦١، هامش ٣،
Smith, The Ayyúbids and Early Rasúlids, PP.53-54.

(٣) أنظر النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٥٦ في الهامش؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٠٢. يذكر ابن المجاور أن وجود الأشراف بالمخلاف يرجع إلى أيام الخليفة العباسي الأمين بن هارون الرشيد، ويسوق هذه الرواية =

قام بالإمامة في اليمن العليا سنة ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م[١]. ولعل داود بن سليمان المذكور في هذه الإشارات، هو جد داود المعروف بالطيب بن عبدالرحمن بن أبي الفاتك عبدالله بن داود بن سليمان[٢].

وإذا كان من المستبعد جدلاً أن يكون السليمانيون قد كوَّنوا إمارة لهم بالمخلاف في هذا الوقت المبكر، بسبب قوة الولاة العباسيين في كل من مكة، وتهامة اليمن بمن فيهم آل زياد، وأيضًا بسبب انشغال الإمام الهادي إلى الحق بالمهام الأولى لتأسيس دولته في أقصى الشمال الشرقي لأرض اليمن - فليس من المستبعد أن تكون هذه الإشارة بداية لاستيطان بني سليمان لهذا الإقليم. ومن المحتمل أن ذلك الاستيطان استمر حوالي قرن من الزمان، وكانت بدايته في وادي حرض، ثم امتد ليشمل منطقة المخلاف بكاملها، وأدى تكاثر هذه الأسرة (ربما بالتناسل، أو بهجرة ذوي قرابتهم) إلى أن أصبحوا - على حد قول ابن عنبة - «عالم علماء عظيمة»[٣]. وهكذا يعتقد أن تلك البداية الاستيطانية تحولت بمرور الوقت، واكتساب الأنصار، والمؤيّدين، إلى سيطرة سياسية، يدعمها انتساب بني سليمان إلى آل البيت الذين كانوا يتمتعون بنفوذ روحي بين أهالي المنطقة، بالإضافة إلى شجاعتهم، وحبهم للسلطة، ونزعتهم إلى الملك[٤].

= بقوله: «لما كثرت الأشراف بأرض الحجاز خرج منهم قوم إلى العراق في خلافة الإمام أبي موسى محمد الأمين بالله، أمير المؤمنين ابن هارون الرشيد، واستوهبوا منه أرضًا يقيمون فيها، فأقطعهم من مكة إلى الهَلِيَّة طولاً، ومن صعدة إلى البحر عرضًا». أنظر: تاريخ المستبصر، ص ٥٧.

(١) ابن الحسين، غاية الأماني، جـ١، ص ١٦٧؛ العرشي، بلوغ المرام، ص ٣١، ٣٢.

(٢) ابن عنبة، عمدة الطالب، ص ٩٩.

(٣) عمدة الطالب، ص ١٠٠.

(٤) لدينا مثالان من أمثلة استيطان آل علي - رضي الله عنه - بالمخلاف، ثم وصولهم مع مرور الزمن إلى زعامته. المثال الأول، آل خيرات الحسنيون الذين وصل جدهم خيرات بن شبير، من ذوي زيد، أشراف الحجاز، إلى المنطقة في أواخر القرن =

ولعل هذا حدث في أواخر القرن الرابع الهجري / أوائل الحادي عشر الميلادي، لأن الظروف السياسية، في ذلك الوقت، كانت مهيأة أمام بني سليمان لتأسيس نفوذهم في المنطقة، حيث تشير الدلائل التاريخية إلى أن سليمان بن طرف الحكمي الذي ينتسب إليه المخلاف السليماني، كما أشرنا إلى ذلك سابقًا، ربما أُقْصِيَ من حكم المخلاف على يد الحسين ابن سلامة (ت ٤٠٢ هـ / ١٠١١ - ٢ م)، الوزير الأول في الدولة الزيادية، بعد حكم دام عشرين سنة، من سنة ٢٧٣ إلى سنة ٣٩٣ هـ/ ٩٨٣ إلى ١٠٠٢ - ١٠٠٣ م[1]. وهكذا، يعتقد أن إقصاء سليمان بن طرف من حكم المخلاف قد ترك فراغًا كان على زعيم بني سليمان أن يعمل على سدّه؛ فقد نبّه العقيلي إلى هذا الرأي، ودليله ما عثر عليه في المخطوطات التاريخية التي تشير إلى أن «إمارة المخلاف آلت إلى العلويين في عام ٣٩٣ هـ/ ١٠٠٢ - ٣ م أي في السنة التي زالت فيها إمارة سليمان بن طرف»[2]. ويعطي العقيلي تفسيرًا للأسباب التي بنى عليها هذا الرأي فيقول: «فمن المرجح أن الحسين بن سلامة رأى من

= الحادي عشر الهجري، واستوطن أبا عريش حتى توفي. وبعد حوالي أربعين سنة من الاستيطان، وتكوين الأنصار، استطاع حفيده محمد بن أحمد بن خيرات أن يؤسس إمارة آل خيرات في المخلاف السليماني في حوالي منتصف القرن الثاني عشر الهجري. والمثال الثاني، الأدارسة الذين استوطن جدهم أحمد بن إدريس مدينة صبيا في حوالي سنة ١٢٤٥ هـ، ثم استطاع أحد أحفاده، وهو محمد بن علي بن محمد بن إدريس، تأسيس حكم الأدارسة في منطقة جازان في سنة ١٣٢٦ هـ، أي بعد حوالي ثمانين سنة من تاريخ بداية استيطان الجد الأكبر للأدارسة. أنظر: العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٤٢٠ - ٤٢٣، ج ٢، ص ٤٦، ٥٦.

(١) العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٨٠، ٨٢.

(٢) المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٠٢. رجعت إلى مخطوطات العقيلي، التي أصبحت الآن ملكًا لجامعة الملك سعود بعد أن تبرع بها - جزاه الله خيرًا - لهذه الجامعة، وعثرت على هذه المعلومة في عدد من هذه المخطوطات. أنظر: النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٦١؛ عاكش، الديباج الخسرواني، مخطوط، ص ٤؛ الذهب المسبوك، مخطوط، ص ٨.

مصلحة دولتهم نقل إمارة المخلاف إلى أسرة جديدة يؤمن شرَّ انتقاضها بعد ما قاساه من انتقاض الأمير سليمان بن طرف، على أن يكون الأمير الجديد ممن يقدر له حسن الصنيع، وألا يكون خطرًا يهدد الإمارة الأم. ومن جهة أخرى، فإن هذه الأسرة التي رشحها، أو أسند إليها إمارة المخلاف هي موضع تقدير ونفوذ روحي تستند سياسته (بدلاً من) استغلالها، وقد يكون رمى لأن يبذر منهم منافسين لحلفاء بني الرسي في الشرق الشمالي من القسم الجبلي. فمن يا ترى ولي المخلاف»[1].

ولا تملك المصادر المتاحة إجابة على هذا السؤال الذي يطرحه العقيلي، وإن كان بعضها يقدم تفصيلاً أكثر عن اتصالات السليمانيين بزعماء بني زياد، قد يحمل الباحث في نهاية المطاف إلى تبني وجهة النظر هذه، فيما يتعلق بتولية أحد السليمانيين الموالين للعباسيين إمارة المخلاف من قِبَل الدولة الزيادية في زبيد باعتبارها ممثلة للخلافة العباسية في تهامة اليمن، ثم الوصول إلى إجابة تقريبيّة حول اسم الشخص الذي تولى إمارة المخلاف من بني سليمان، في أول عهدهم. من ذلك ما يورده صاحب غاية الأماني تحت حوادث سنة ٣٩٠ هـ/ ٩٩٩ م، حين يقول: «وفي هذه السنة، وصل إلى الإمام (القاسم العَيَّاني) جماعة من الأشراف آل أبي الطيب في أبهة عظيمة، وحاشية من الموالي والخدم، فاستوقفهم الإمام في صعدة، ونهض إليهم من عَيَّان، وقابلهم بجزيل الإحسان، وأهدوا له هدية لائقة، وأعانوه بشيء من المال، وطلبوا منه الهَجِير معهم لفتح تهامة الشام، وتوليتهم إيّاها، فوعدهم الإمام بذلك[2]. غير أن الإمام العياني لم يفعل شيئًا إزاء طلبهم، إذ لم يكن في وضع يسمح له بمساعدتهم. ويبدو أنهم، عندما أحسوا بعدم تلبية رغبتهم، قرروا الرحيل، والعودة إلى حيث كانوا، لأن المؤلِّف نفسه يورد خبر عودتهم بقوله:

---

(١) العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٠٢.

(٢) يحيى بن الحسين، ج ١، ص ٢٣٠. كان بنو عمهم، وخصومهم الأشراف الموسويون في مكة يوالون الخلفاء الفاطميين في مصر، فليس مستبعدًا أن يتبنى العباسيون الأشراف السليمانيين الذين كانوا أميل إلى العباسيين أكثر ممن سواهم.

«ولما رأى الأشراف، بنو أبي الطيب، كثرة اختلاف الناس على الإمام، استأذنوه بالعودة إلى بلادهم، فأذن لهم»[1].

ويتضح من هذا النص، سعي الأشراف السليمانيين إلى تولي إمارة المخلاف السليماني في هذه الفترة بالذات، وليس في عهد الإمام الهادي، كما تقدم، ويتضح منه أيضًا، حصر المطالبين بالإمارة في بيت أبي الطيب الذين لم يجدوا أذنًا صاغية من قِبَل الحاكم الزيدي، الأمر الذي يبرر سعيهم نحو التماس جهة أخرى لتحقيق مطالبهم. وليس من المستبعد أن تكون تلك الجهة هي الدولة الزيادية التي كان يدير شؤونها الحسين بن سلامة بصفته وصيًّا على حاكمها الذي كان حينذاك لم يبلغ سن الرشد. وكان عليه أن يتخلص من حكام الأطراف الذين نفضوا أيديهم من طاعة حكام بني زياد أيام محنتهم، التي سبقت الإشارة إليها، وأن يبحث عن ولاة آخرين يؤمن بهم تلك الأطراف، ويضمن بالتالي ولاءهم للدولة الزيادية، ومن ثم لبني العباس في بغداد[2]. ولعل الحسين بن سلامة وجد في بني سليمان ضالته المنشودة، لاحتمال أن توليتهم المخلاف كانت ترمي إلى إيجاد نوع من التوازن مع آل عبدالجد الحكمي، عشيرة سليمان بن طرف، أمير المخلاف السابق، الذين ناصبوا بني زياد العداء، واستقلوا بشؤونهم الداخلية عنه، بالإضافة إلى ما كانوا يتمتعون به من المزايا على النحو الذي سبق شرحه. ولهذا الاحتمال ما يبرره، فقد جاء

---

(١) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٢٣١.

(٢) يذكر عمارة وغيره أن الأمير الزيادي أبا الجيش إسحاق بن إبراهيم (ت ٣٩١ هـ/ ١٠٠٠ - ١ م) لما أسَنَّ وبلغ الثمانين تشعث عليه من دولته بعضها، فممن أظهر له بعض ما يكره: أسعد بن أبي يعفر حاكم صنعاء، وصعدة ثار بها الإمام الرسّي. وتغلب علي بن الفضل على جبل المذيخرة، وامتنع من عمال أبي الجيش، سليمان بن طرف، صاحب عثر، والحرامي، صاحب حلي بن يعقوب.. إلخ. أنظر: المفيد، ص ٥٥ - ٦٤؛ ابن عبد المجيد، بهجة الزمن، ص ٢٧ - ٢٨؛ الوصابي، تاريخ وصاب، ص ٢٦؛ الديبع، بغية المستفيد، ص ٤٠؛ أحمد الزيلعي، «بنو حرام، حكام حلي»، ص ١٠٣.

عن العقيلي قوله: «وبإمعان النظر في تنازع الإمارات في ذلك العصر المضطرب، نرى أن المتولي لإمارة المخلاف مع ما يربطه بأئمة الزيدية من وشائج القربى، فإنه كان على اتصال وصلة سياسية بالدولة الزيادية التي كان المخلاف تحت سلطتها المباشرة، ونرى أيضًا أنه قام بدور إيجابي في السعي والعمل عند الحسين بن سلامة في إزالة إمارة سليمان بن طرف، والحصول على ثقته بإسناد الإمارة إليه»[1].

غير أن العقيلي وغيره من مؤرخي المخلاف لم يفصحوا عن اسم الشخص الذي تولى الإمارة في المخلاف السليماني، فالبحث إذن يفتقر، في هذه الحالة، إلى تحديد اسم ذلك الشخص، ولو على سبيل الاجتهاد والتخمين. ولعل فيما يورده النعمي نقلاً عن صاحب اللآليء المُضِيَّة، ما يلقى بصيصًا من الضوء، ربما يعين على تقديم اقتراح يتعلق بتحديد اسم المتولي لإمارة المخلاف في ذلك الوقت، فهو - أي النعمي - يذكر أن ممن وفد على الإمام القاسم بن علي العياني من تهامة، محمد ويحيى إبنا أبي الطيب، منتظِرَيْن هبوطه إليها، وفتحها[2]. ولكن صاحب اللآليء المُضِيَّة، ومن نقل عنه من المؤرخين المحليين لم يوضحوا عمَّا إذا كانت هذه الوفادة ترمي إلى إسناد أمور المخلاف السليماني إلى والدهما، أبي الطيب، أو إلى أحدهما، أو إلى أي من إخوانهما الخمسة؟[3].

---

(١) المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٠٣، لم يكن العقيلي دقيقًا في الجزم بأن المخلاف كان تحت سلطة بني زياد المباشرة، فقد رأينا سابقًا أن المخلاف كان تحت سلطة حكام محليين من أبنائه، وكانوا لأسباب تنظيمية وضعتها الخلافة العباسية، يتبعون اسميًا لبني زياد، مرة، ولمكة المكرمة، مرة أخرى.

(٢) الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ١١٩. أنظر أيضًا: العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٠٥. مؤلف اللآليء المُضِيَّة في أخبار أئمة الزيدية، هو أحمد بن محمد بن صالح الشرفي (ت ١٠٥٥ هـ/ ١٦٤٠ م)، ويقع هذا الكتاب في ثلاثة مجلدات، وهو لا يزال مخطوطًا، لم يصل إلى يدي أثناء إعداد هذا الكتاب، أنظر: محمد عبدالعال أحمد، الأيوبيون في اليمن، ص ٣٢٤.

(٣) يذكر ابن عنبة أن أبا الطيب أنجب ستة من الأولاد هم: وهاس، وعلي، وحسان، =

وبالعودة إلى ابن عنبة، نجد أن أبا الطيب لم يكن له ابن يدعى محمدًا، في حين وجد أن من بين أبنائه من يدعى يحيى[1]. فمن المحتمل أنهم عندما أدركوا أن هذه الوفادة لم تجد نفعًا مع الإمام الزيدي، حولوا سعيهم إلى الحسين بن سلامة الذي لم يجد غضاضة في الاعتراف بتولي أحد هؤلاء أمور المخلاف على القول السابق. ولعل الذي تولى إمارة المخلاف من آل أبي الطيب هو: إما يحيى، أو أخوه وهاس الذي انحدر من نسله جميع حكام المخلاف من بني سليمان، وقد يكون هذا المتولي، هو والدهما أبو الطيب داود بن عبدالرحمن السليماني الذي تولى - فيما بعد - إمارة مكة في حوالي سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ - ٣ م[2]. ولا يتعارض كونه أميرًا على المخلاف السليماني مع توليه إمارة مكة، لأن الدلائل التاريخية تشير إلى أن معظم الذين تولّوا إمارة مكة لم يكونوا من داخلها، وإنما وفدوا إليها لطلب هذا الأمر، من أماكن بعضها نائيًا[3].

= وهضام، وقاسم، ويحيى. ولم يكن بين أبنائه من يدعى محمدًا. أنظر: عمدة الطالب، ص ١٠١.

(١) عمدة الطالب، ص ١٠١.

(٢) أنظر: أبو شجاع، ذيل تجارب الأمم، ج ٣، ص ٢٣٨؛ الوزير ابن المغربي، أدب الخواص، ص ٢٥؛ الفاسي، العقد الثمين، ج ٨، ص ٥٧ - ٥٨؛ مورتيل، الأحوال السياسية، ص ٢١؛ أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص ٥٦.

(٣) من أمثلة ذلك أن قتادة بن إدريس الحسني (ت ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م) كان يسكن في ينبع، ولما سنحت له الفرصة في أواخر عهد الأشراف الهواشم الذين حكموا مكة من سنة ٤٥٥ هـ إلى سنة ٥٩٨ هـ (١٠٦٣ - ١٢٠١ م)، غزا مكة واستولى عليها، وأسس بها حكم أسرة بني قتادة. وأيضًا أحد أحفاده ويدعى: أبا سعد، الحسن بن علي بن قتادة، كان يسكن في وادي فاطمة؛ وعندما سنحت له الفرصة غزا مكة في سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٥٠ م، واستولى عليها، ونصب نفسه أميرًا لها. أنظر: الفاسي، شفاء الغرام، ج ٢، ص ٣١٥، ٣١٩؛ العصامي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٢٠٨، ٢١٩.

ظهورهم على المسرح السياسي

تشير المصادر التاريخية المتاحة بشيء من الاقتضاب وعدم الوضوح، إلى أن أول ظهور ملموس لبني سليمان على المسرح السياسي كان في مكة المكرمة، على الرغم مما أشير إليه سابقًا من حصولهم على موطئ قدم في حكم المخلاف بعد عام ٣٩٣ هـ/ ١٠٠٢ - ٣ م. وكان ظهورهم هذا بمكة في مطلع القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، عندما خرج حاكمها الموسوي، الحسن بن جعفر، المعروف بأبي الفتوح (ت٤٣٠هـ/ ١٠٣٨ ٩م)، على طاعة الخليفة الفاطمي، الحاكم بأمر الله (ت ٤١١ هـ/ ١٠٢٠ م)، وغادر مكة المكرمة إلى مدينة الرَّمْلَة بفلسطين طلبًا للخلافة التي يرى أنه أحق بها من الفاطميين[(١)]، فاتخذ الخليفة الحاكم عددًا من التدابير لمواجهة أبي الفتوح، كان من بينها إسناد إمارة مكة المكرمة إلى أبي الطيب داود بن عبدالرحمن، جد الأسرة السليمانية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ولكن أبا الفتوح ما لبث أن سوى أمره مع الحاكم بأمر الله، فعاد إلى حكم مكة في شهر جمادى الأولى سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م، مُنْهِيًا بذلك أطماع أبي الطيب الذي تلاشى أمره بها[(٢)]. وليس في المصادر الميسورة ما يشير إلى وجود أبي الطيب في

---

(١) الفاسي، شفاء الغرام، جـ ١، ص ٣٠٨؛ العقد الثمين، جـ ٤، ص ٧٢ - ٧٣؛ غازي، إفادة الأنام، مخطوط، جـ ٣، ص ٦٣؛ ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية، ص ٢٠.

(٢) أبو شجاع، ذيل تجارب الأمم، جـ ٣، ص ٢٣٨؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٦٤؛ الفاسي، المقنع، ص ٢٩؛ الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص ٥٦.

مكة عند مراسلة الحاكم له لتولي أمورها، وعلى العكس من ذلك، فإن السياق التاريخي يؤكد على أنه لم يكن من أشراف مكة المقيمين فيها، لأن هؤلاء جميعًا بايعوا أبا الفتوح، وساروا معه تحت رايته إلى الرَّمْلَة، بعد أن ترك أحد أقاربه لينوب عنه في إمارة مكة المكرمة[1]. يؤكد ذلك ما تشير إليه المصادر التاريخية من أن الحاكم بأمر الله كاتب أبا الطيب، وأنفذ له، ولعشيرته من بني حسن مالاً وثيابًا، فسار أبو الطيب بها، ومن انضوى إليه من بني عمه إلى مكة، فنازل نائب أبي الفتوح بها، واستولى عليها، ونجح في صرف العرب عن طاعة أبي الفتوح، والدخول، بدلاً من ذلك، في طاعة الحاكم بأمر الله[2]. وهكذا، يتضح من جملة «فسار أبو الطيب، ومن انضوى إليه من بني عمه إلى مكة»، أن هؤلاء لم يكونوا في مكة، وإنما كانوا في منطقة ما خارجها. ومن المحتمل أن هذه المنطقة كانت هي المخلاف السليماني، بدليل ما أشير سابقًا إلى وجودهم فيها قبل هذا التاريخ بزمن، على حين أن معظم المناطق الأخرى التي اتخذها الحسنيون مقرًّا لهم مثل ينبع واليمامة والسرين، ونجد اليمن، كانت، في ذلك الوقت، بأيدي أسر حسنية أخرى غير الأسرة السليمانية، وبصورة خاصة آل أبي الطيب[3]. يضاف إلى ذلك ما قيل إن بني

(١) أبو شجاع، ذيل تجارب الأمم، جـ ٣، ص ٢٣٨؛ الفاسي، المقنع، ص ٢٩؛ غازي، إفادة الأنام، مخطوط، جـ ٣، ص ٦٣؛ أمينة بيطار، موقف أمراء العرب، ص ١١٧.

(٢) غازي، إفادة الأنام، مخطوط، جـ ٣، ص ٦٣؛ حسن إبراهيم حسن، الدولة الفاطمية، ص ٢٣٩؛ أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص ٥٦.

(٣) كان، في ينبع وما حولها، بنو مطاعن، جد قتادة بن إدريس، حاكم مكة المكرمة؛ وفي اليمامة بنو يوسف الأخيضر بن إبراهيم بن موسى الجون، وفي السرين بنو علي بن محمد الثائر بن موسى الثاني بن عبدالله الشيخ الصالح بن موسى الجون. أنظر: ابن عنبة، عمدة الطالب، ص ٩١، ٩٢، ٩٦، ١٠٤، ١٠٨؛ العصامي، سمط النجوم، جـ ٤، ص ٢٠٧. وممن سكن شمال الحجاز من بني سليمان بن عبدالله بن موسى الجون، نعمة، وعبدالحميد، وعبدالحكيم، وسكن هؤلاء جميعًا مدينة أملج، إلى الشمال من ينبع، أنظر: ابن حزم، جمهرة، ص ٤٧.

سليمان كانوا حتى سنة ٤١٢ هـ/ ١٠٢١ - ٢ م، يقومون بحكم المخلاف السليماني باعتراف من قبل الدولة الزيادية، كما سيأتي تفصيله.

ومهما يكن الأمر، فإن بني سليمان ربما عادوا إلى مخلافهم، واستكانوا فيه قانعين بما حققوه فيه من نفوذ سياسي، حتى سنحت لهم الفرصة للظهور مرة أخرى على مسرح الأحداث في مكة المكرمة أيضًا. كان ذلك بعد وفاة حاكمها الموسوي شكر بن أبي الفتوح الذي وافته منيته في سنة ٤٥٣ هـ/ ١٠٦١ م، دون أن يُخلِّف ولدًا ذكرًا يتولى مقاليد الإمارة في مكة، فآلت الأمور فيها حينذاك إلى أحد عبيده(١). فانتهز بنو أبي الطيب هذه الفرصة، وتوجهوا إليها بقيادة أحد زعمائهم، ويدعى محمد بن أبي الطيب، حيث تمكن من انتزاع مكة، ونصب نفسه أميرًا عليها(٢). وحيث أشير فيما سبق إلى أن أبا الطيب لم ينجب ولدًا محمدًا، وعلى فرض أنه كان له ولد بهذا الاسم، فإن المرء يجد صعوبة في القطع بأن يكون أمير مكة هذا هو الذي وفد على القاسم العياني، وبين توليه مكة، ووفادته على الإمام العيَّاني حوالي ستين سنة(٣). فلعل محمدًا هذا هو محمد بن وهَّاس بن أبي الطيِّب، فقد وُجِدَ أم من بين أبناء وهّاس شخصًا يدعى محمدًا، ولعله أكبر أبنائه(٤). فإذا صح هذا الاحتمال، فإن هذا الأمير هو محمد بن وهّاس بن أبي الطيِّب، أخو الأمير حمزة بن

---

(١) الفاسي، شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٣١٠؛ المقنع، ص ٢٩؛ غازي، إفادة الأنام، مخطوط، جـ ٣، ص ٦٣.

(٢) غازي، إفادة الأنام، مخطوط، جـ ٣، ص ٦٣؛ دحلان، أمراء البيت الحرام، ص ٣٠ - ٣١.

(٣) ليس من المستبعد أن يمتد الأجل بمحمد بن أبي الطيب - إن صح وجوده - إلى هذا التاريخ، لأن عددًا من أجداده عمروا إلى ما بعد المائة سنة. من هؤلاء جده الفاتك الذي عاش مائة وخمسًا وعشرين سنة، وجده الأقرب عبدالرحمن بن أبي الفاتك عاش مائة وعشرين سنة، وأخو جده، أحمد بن أبي الفاتك، عاش مائة وسبعًا وعشرين سنة. أنظر: ابن عنبة، عمدة الطالب، ص ١٠٠ - ١٠١.

(٤) ابن عنبة، عمدة الطالب، ص ١٠١.

وهّاس الذي سيأتي الحديث عنه فيما بعد.

ومهما يكن الأمر، فإن الأمير الجديد لم يطل به البقاء في مكة، إذ كثرت القلاقل بها حتى إذا قدم إليها علي بن محمد الصليحي (ت ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٧ م)، مؤسس الدولة الصليحية باليمن، في شهر ذي الحجة سنة ٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣ م عندئذ تمكن من طرد الأمير السليماني، وعمل على استقرار الأوضاع في مكة المكرمة[(١)]. وهنا نعود إلى السؤال السابق المتعلق بمنطقة وجود بني سليمان الذين ما فتئوا يراوحون منها مكة كلما سنحت الفرصة لهم. ولسنا، هذه المرة، بحاجة إلى الاجتهاد، إذ تكفَّلت المصادر المتاحة بتقديم إجابة واضحة عن هذا السؤال وغيره من الأسئلة السابقة، حيث يذكر كل من ابن الأثير والمقريزي أن بني سليمان أخذوا كسوة الكعبة، وحلية البيت الحرام، وذهبوا بها معهم إلى اليمن[(٢)]. وليس بالضرورة أن يكون اليمن هو القطر اليمني المعروف بحدوده السياسية قديمًا وحديثًا إلى اليوم، والذي كان في ذلك الوقت مقرًّا للحاكم الصليحي في أسفله، وللإمام الزيدي، في أعلاه؛ ولكن اصطلاح اليمن مرادف، في بعض الأحيان، لكلمة الجنوب ويقصد بها المناطق الواقعة إلى الجنوب من مكة المكرمة بما في ذلك منطقة جازان، أو المخلاف السليماني، كما أن الشام مرادف لكلمة الشمال، وهي تطلق على الجهات الواقعة إلى الشمال من مكة المكرمة، وكل ما يقع إلى الشمال، في اصطلاح سكان الحجاز واليمن، فهو شام أو شآم[(٣)]. فربما ذهب السليمانيون بما غنموه، إلى مقرهم في منطقة جازان التي تقع جغرافيًّا إلى اليمن، أو إلى

---

(١) الفاسي، شفاء الغرام، ج ٢، ص ٣١٠؛ العيني، عقد الجمان، ج ١١، ص ٤٦؛ غازي، إفادة الأنام، مخطوط، ج ٣، ص ٦٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ١٠٦؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٢٦٩. أنظر أيضًا: ابن فهد، أتحاف الورى، ج ٢، ص ٤٦٨.

(٣) أنظر: ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص ٣٩؛ الديبع، قرة العيون، ج ١، ص ٢٩، ٣١؛ البهكلي، نفح العود، ص ٤٩ – ٥٠؛ ثسيجر، «رحلة في تهامة وعسير وجبال الحجاز»، ص ٩٩.

الجنوب من مكة المكرمة، وإلا فكيف يذهب هؤلاء إلى قطر كانوا قد طردوا بالأمس من مكة على يد صاحبه؟

غير أن عودة بني سليمان إلى مكة لم تطل هذه المرة، إذ لم يكد علي بن محمد الصليحي يعود إلى مقره باليمن في شهر ربيع الأول من السنة التالية[١]، حتى وفد بنو سليمان إليها، فتمكنوا من طرد زعيم الأسرة الهاشمية، محمد بن جعفر بن أبي هاشم من مكة، ونصبوا قائدهم، حمزة بن وهاس بن أبي الطيب، أميرًا عليها[٢]. ولا تعرف بالضبط المدة التي بقي فيها حمزة بن وهاس أميرًا على مكة، ولكن يتضح من بعض الإشارات، أن الحرب بين بني سليمان والهاشميين لبثت في مكة سبع سنوات حتى انتهت بتغلب بني هاشم على بني سليمان، وطرد الأخيرين نهائيًّا منها[٣]. ويبدو أن هذه المحاولة كانت هي الأخيرة من جانب الأسرة السليمانية، في سبيل الحصول على موطئ قدم لهم في مكة، إذ إن الأمور فيها صفت نهائيًّا لمحمد بن جعفر، وبنيه من الهواشم، في حين أن بني سليمان قنعوا بالمحافظة على نفوذهم في المخلاف السليماني بزعامة حمزة بن وهاس بن أبي الطيب، حيث تتابع بنوه في حكم هذا المخلاف، كما سيأتي مفصلاً.

أما في المخلاف السليماني، فمن المحتمل أن نفوذهم المحلي فيه كان متصلاً منذ حصولهم عليه؛ فقد ذكر أن بني سليمان كانوا حتى سنة ٤١٢ هـ/ ١٠٢١ م، يقومون بحكم المخلاف من الناحية الفعلية، ويتصلون اسميًّا بالأمير نجاح، أحد موالي بني زياد وقادتهم[٤]. وكان الأخير يتولى أمور الكَدْرَاء، والمَهْجَم، ومَوْر، والواديين من قبل الأمير مرجان الذي كان بدوره وصيًّا على

---

(١) الفاسي، شفاء الغرام، ج ١، ص ٣١١؛ أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص ٦٦.

(٢) الفاسي، شفاء الغرام، ج ٢، ص ٣١١؛ الطبري، الأرج المسكي، ص ٨٤؛ دحلان، أمراء البلد الحرام، ص ٣١.

(٣) ابن عنبة، عمدة الطالب، ص ١٠١؛ دحلان، أمراء البلد الحرام، ص ٣٠.

(٤) العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٠٥.

عرش دولة بني زياد في أواخر أيامها[1]. ويحتمل أيضًا أن علاقة بني سليمان ببني زياد استمرت في عهد مواليهم بني نجاح الذين أقاموا دولتهم على أنقاض الدولة الزيادية ابتداءً من سنة ٤١٢ هـ/ ١٠٢١ م واستمروا على ولائهم للخلافة العباسية، وعلى حكم تهامة اليمن نيابة عن خلفاء بني العباس[2]. فقد ذكر أن بني سليمان كانوا يدفعون للأمراء النجاحيين، بصفتهم نوابًا عن الخلافة العباسية، إتاوة سنوية قدرت فيما بعد، بمبلغ ستين ألف دينار[3]، ويظن أن هذه العلاقة، أو التبعية التي كانت في كثير من الأحوال اسمية، وتخضع

---

(١) عمارة، المفيد، ص ٦٥؛ الديبع، بغية المستفيد، ص ٧٢. الكَدْرَاء من المدن الإسلامية في اليمن، اختطها الحسين بن سَلاَمَة على وادي سَهَام. مَوْر: مدينة إسلامية تقع على وادي مَوْر المشهور في اليمن، والمعروف باسم ميزاب اليمن. المَهْجَم: مدينة إسلامية كانت في وادي سردد إلى الغرب من مدينة الزَّيْدِيَّة المعروفة في الوقت الحاضر. الواديان: من الأعمال الشمالية لمدينة زبيد، ولعلهما المقصودان في هذا البيت للشاعر اليمني أبو الجياش الحجري:

فقرى مَوْر فالفريضةُ فالشَّرْجَةُ ... فـالـواديـان فـالـسَّـلْـعَـاءُ

أنظر: الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣٨١؛ ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص ٥٧ - ٥٨؛ إبراهيم المقحفي، البلدان اليمنية، ص ٥٥٢، ٦٧٣، ٦٨٠.

(٢) قضى نفيس، وهو مولى حبشي لبني زياد، على آخر أمراء الدولة الزيادية سنة ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦ م، ولكن نجاحًا، وهو مولى آخر من موالي بني زياد، استطاع بدوره أن يقضي على نفيس، وأن يؤسس دولة بني نجاح في سنة ٤١٢ هـ/ ١٠٢١ م. واستمرت تلك الدولة في الظهور والاضمحلال حتى سقطت نهائيًّا على يد علي بن مهدي، مؤسس دولة بني مهدي في زبيد، سنة ٥٥٤ هـ/ ١١٦٩ م، أنظر: عمارة، المفيد، ص ٧٦ - ٧٧، ١٨٨ والصفحات التي بعدها؛ محمد أمين صالح، بنو مهدي في زبيد، ص ١٧٢؛ الزويد «دولة بني نجاح»، ص ٧٠.

(٣) الوصابي، تاريخ وصاب، ص ٥٩؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ١٢٣. يعتقد أن هذه الإتاوة تذهب للخلافة العباسية، وأن بني زياد ثم بني نجاح من بعدهم، كانوا يجمعونها من الأقاليم التابعة للخلافة ويرسلونها إلى الخليفة في بغداد، وقد بلغ ارتفاع بني زياد في سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ - ٧ م ألف ألف دينار، أنظر: عمارة، المفيد، ص ٦٤؛ الوصابي، تاريخ وصاب، ص ٢٦.

لعوامل القوة والضعف من كلا الجانبين، استمرت طوال الفترات غير المتصلة لحكم الأسرة النجاحية حتى عهد الشريف غانم بن يحيى السليماني، الذي استقل بالمخلاف استقلالاً تامًّا، ووسع حدود بلاده على حساب دولة بني نجاح، وأُسقطت في عهده تلك الإتاوة، كما سيأتي.

أما في عهد علي بن محمد الصليحي، أي بعد مقتل نجاح سنة ٤٥٢ هـ/ ١٠٦٠ م وسيطرة الأخير على تهامة(١)، فإن المصادر الميسورة لم تشر إطلاقًا إلى وضع بني سليمان السياسي في المخلاف، وهل كانوا في السلطة أم كانوا خارجها؟، ويعتقد أن وضعهم المتوارث في المخلاف لم يتغير بعد قتل زعيم الأسرة النجاحية، وسيطرة علي بن محمد الصليحي على مناطق نفوذ بني نجاح، فربما بقي بنو سليمان يحكمون المخلاف حكمًا محليًّا على النحو الذي كان قائمًا من قبل. ويؤيد بقاء بني سليمان في حكم المخلاف خلال هذه الفترة، ما سبق أن أشير إليه من أنهم عندما احتلوا مكة بعد وفاة شكر، ثم أخرجوا منها، ومعهم حِلْيَة البيت، وكسوة الكعبة، عادوا بكل ما أخذوه إلى بلادهم. وهناك دليل آخر على حسن علاقتهم، أو - على الأقل - عدم سوء تلك العلاقة مع الصليحي، هو أن الأخير لم يسترد ما أخذه السليمانيون من حلية الكعبة، وكسوتها بالقوة مع قدرته على ذلك، وإنما لجأ إلى استعادة كل ما أخذوه عن طريق الشراء(٢). فربما استخدم الصليحي هذه الوسيلة لكيلا

---

(١) عمارة، المفيد، ص ٩٨؛ الديبع، قرة العيون، جـ ١، ص ٢٤٦، يذكر ابن عبدالمجيد في كتابه بهجة الزمن، ص ٥٣، أن نجاحًا توفي مسمومًا في سنة ٤٤٨هـ. ويذكر الوصابي أيضًا: سبب وفاة نجاح، ولكنه يجعل تاريخ وفاته في سنة ٤٥٣ هـ/ ١٠٦١ م. أنظر: تاريخ وصاب، ص ٣٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٨، ص ١٠٦؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٢٣٩؛ ابن فهد، إتحاف الورى، جـ ٢، ص ٤٦٨. يبدو أن النزاع بين بني نجاح، وبين الصليحيين كان على زبيد فقط، ولم يتدخل الصليحيون في شؤون الأقاليم التابعة لزبيد، حتى إنهم في عهد جياش كانوا ينزلون تهامة وقت الشتاء، ويغادرها جياش إلى غير بعيد، فيجبى الصليحيون الأموال، ويحتسبون للرعايا ما دفعوه لجياش في وقت الصيف. فإذا حل الصيف غادرها الصليحيون، وعاد إليها =

يعكّر ما يُعْتَقد بصفو العلاقة التي تربطه ببني سليمان، ويكدّر بالتالي خاطر الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (ت ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م)، الذي تضمنت مراسيمه، أو سجلاته للصليحي، عدم المساس بأبناء فاطمة الزهراء[١]. وآخر الأدلة ما يذكره ابن خلدون من أن حملة علي بن محمد الصليحي الثانية على مكة، تلك الحملة التي قتل فيها بالمهجم على يد سعيد الأحول بن نجاح سنة ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٧ م، كانت في واقع الأمر، انتصارًا لبني سليمان ضد الهواشم الذين نكثوا ما عاهدوا عليه الخليفة المستنصر من الولاء والطاعة، وخطبوا بدلاً من ذلك للخليفة العباسي، القائم بأمر الله (ت ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٥ م)، وأن هذه الحملة تمت بناءً على تعليمات تلقاها الصليحي من الخليفة المستنصر بالله تتضمن إقصاء الهواشم، وتولية السليمانيين مقاليد الأمور في مكة المكرمة[٢]. فلو صحّت هذه الرواية، وقُدِّرَ للصليحي البقاء حتى يصل إلى المخلاف، لمشى بنو سليمان في ركابه إلى مكة المكرمة. وهكذا يتضح أن بني سليمان ربما استمروا في حكم المخلاف حتى في عهد علي بن محمد الصليحي، وربما كان أميرهم في ذلك الوقت حمزة بن وهاس الذي سبقت الإشارة إلى أنه عاد إلى المخلاف مطرودًا من مكة على يد زعيم الهواشم، محمد بن جعفر بن أبي هاشم، ليقنع فقط بزعامته للمخلاف.

غير أن المصادر والمراجع المتاحة لم تشر إلى وضعه في المخلاف بعد عودته من مكة، ولا متى توفي؟ وإن كان أحدها يذكر أن المنية عاجلته قبل أن يدرك أمنيته تاركًا الأمر لابنيه عيسى ويحيى[٣].

= جياش، واحتسب للأهالي ما دفعوه للصليحيين من الأموال أثناء الشتاء، واستمروا على ذلك مدة طويلة. ومن المحتمل أن هذا الأمر كان قائمًا من قبل، ولم يتضرر بنو سليمان من تغيير النظام في زبيد لبعد أراضيهم عن هذه المدينة. أنظر: عمارة، المفيد، ص ١٢١؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٢٧٥.

(١) أنظر: إدريس، عيون الأخبار، جـ٧، ص١٧ - ١٩؛ ماجد، السجلات المستنصرية، ص٥٦.

(٢) العبر، جـ ٤، ص ٢٢١.

(٣) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ ١، ص ٢٠٧.

بنو حمزة بن وهاس

اتسمت الفترة التي سبقت وفاة حمزة بن وهاس، بالغموض وعدم الوضوح في تاريخ بني سليمان، ولكن الفترة التي تلت وفاته كانت إلى حد ما واضحة، على الأقل، في تسلسل الأشخاص الذين تولوا الحكم بعده. أما من حيث التواريخ، فإن الغموض يكتنف معظم فترات حكم السليمانيين بالمخلاف، سواء الفترات السابقة لوفاة حمزة، أو تلك التي تلتها. ولا توجد في المصادر الميسورة تواريخ محددة لوفيات زعماء هذه الأسرة، ولا للأحداث التي ألمت بمناطق حكمهم. لأن هذه المصادر، في معظمها، تنقل عن تاريخ اليمن لعمارة اليمني الذي كتبه في مصر بطريقة روائيّة معتمدًا على قراءات سابقة في مفيد نجاح، والأخير يعدّ في حكم المفقود منذ زمن طويل[1]. وعدم وجود تواريخ لوفيات زعماء بني سليمان، وللأحداث التي تمت في مناطق نفوذهم، يزيد من صعوبة البحث، ويعيق مهمة الباحث في هذا الموضوع الذي زادته صعوبة، ندرة المعلومات المتصلة به في المصادر المتاحة.

ومهما يكن من أمر هذه الصعوبة، فإن حُكْم المخلاف آل بعد وفاة حمزة بن وهّاس، إلى ولديه عيسى، ويحيى، حيث ولي الأول عثر وأعمالها[2]. والثاني ربما ولي أمور حرض وبلاد حَكَم. وهذا يخالف ما يذكره العقيلي من أن عيسى تولى أمور حرض، ويحيى تولى أمور عثر[3]، لأن

(١) عمارة، المفيد، ص ٢١ - ٢٢، ٤٦ - ٤٧؛ الديبع، قرة العيون، جـ ١، ص ٣٤٦.

(٢) عمارة، المفيد، ص ٢١٧؛ الخزرجي، العقد الفاخر، مخطوط، ورقة ١١٧ ب.

(٣) المخلاف السليماني، جـ ١، ص ٢٠٧.

المصادر اليمنية الأصيلة التي ينقل عنها العقيلي وغيره، تشير إلى أن عيسى كان صاحب عثر[1]. وما دام اقتسام أعمال المخلاف السليماني كان قائمًا بين الأميرين، فلا بد أن يكون يحيى على عكس ما يذكره العقيلي، هو الذي تولى أعمال حرض وبلاد حكم، على النحو الذي يقرره المؤرخون اليمنيون فيما يتعلق بولاية عيسى لعثر وأعمالها. وهكذا يلاحظ أن الأخوين وإن حافظا على استقلالهما بمناطق حكمهما، فإنهما لم يحافظا على وحدة المخلاف التي تحققت على يد سليمان بن طرف قبل حوالي قرن من الزمان من حكمهما، كما أن تقسيم أعمال المخلاف بين أفراد الأسرة، وما ترتب على ذلك من نزاعات بينهم، كانت من عوامل ضعف بني سليمان التي حالت دون تحقيقهم قوة يحسب لها حساب.

وتتمثل أولى عوامل الضعف تلك في قتل يحيى بن حمزة لأخيه عيسى، وتفصيل ذلك فيما يرويه عمارة ضمنًا في ترجمته لحياة الشاعر محمد بن زياد المأربي، من أن بقية الغز الأتراك الذين قدموا إلى اليمن بناءً على طلب جياش، قبضوا على يحيى بن حمزة، أخي عيسى، وحملوه معهم أسيرًا إلى العراق، فاجتهد أخوه عيسى في المكاتبة، وبذل الأموال حتى افتك أسار أخيه يحيى من العراق. فلما عاد يحيى إلى عثّر، قتل أخاه عيسى، وحكم المخلاف بمفرده[2]. وهكذا، ترد هذه الرواية في جميع المصادر اليمنية التي تناولت حياة الشاعر المأربي، دون أن توضح دوافع هذه الحادثة، ولا تاريخها، أو حتى تاريخ فكاك يحيى من الأسر، وقتله لأخيه عيسى[3].

---

(١) أنظر على سبيل المثال: عمارة، المفيد، ص ٢١٧؛ الخزرجي، العقد الفاخر، مخطوط، ورقة ١١٧ ب.

(٢) الخزرجي، العقد الفاخر، مخطوط، ورقة ١١٨ أ؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ ١، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٣) يذكر عمارة وغيره أن الشاعر محمد بن زياد المأربي، نسبة إلى مدينة مأرب، مدح الأمير عيسى بن حمزة السليماني، صاحب عثر، وأن الأخير وصله بصلات جزيلة، وعامله بمكرمات جميلة. فلما وقع لعيسى ما وقع على يدي أخيه يحيى، قال: =

ويسود الاعتقاد أن هؤلاء الغز ربما كانوا من أولئك الذين استعان بهم جياش بن نجاح في حربه ضد سبأ بن أحمد الصليحي، تلك الحرب التي استمرت منذ سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م على ما يذكره كل من الخزرجي، وابن الحسين[١]. فإذا ربطنا بين استعانة جياش بالغز، وبين ما يذكره ابن الأثير من أن السلطان ملكشاه السلجوقي أرسل في سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م، جيشًا من الأتراك إلى الحجاز واليمن[٢]، فربما يكون هؤلاء أرسلوا إلى اليمن عونًا لجياش، حليف العباسيين، ونائبهم في حكم اليمن، ضد بني الصليحي الذين يستمدون العون والتأييد من خلفاء مصر الفاطميين[٣].

= خُنْتَ المودةَ وهي ألامُ خطةٌ وسلوتَ عن عيسى بن ذي المجْدَيْنِ
يا طفُّ عثَّر أنت طفُّ آخرُ يا يومَ عيسى أنتَ يومُ حسينِ
قد كان يشفي بعضَ ما بي من جوى لو طاحَ يومُ الروعِ في الجَبَلينِ
هيهاتَ إن يدَ الحِمَام قصيرةٌ لو هزَّ مطرودُ الكعوب رُدَيْنِي
قرَّتْ عيونُ الشامتينَ وأسخنتْ عيني على من كانَ قرَّةَ عينِي

ويقال: إن يحيى لما وصله شعر المأربي توعده بالقتل، فقال المأربي:

نُبِّئْتُ أنك قد أقسمتَ مجتهدًا لتَسْفِكِنَّ على حرِّ الوفاء دَمِي
ولو تجلَّدتَ جلدِي ما غَدَرْتَ ولا أصبحتَ ألامَ من يمشي على قَدَمِ

أنظر: عمارة، المفيد، ص ٢١٧ - ١١٨؛ الخزرجي، العقد الفاخر، مخطوط، ورقة ١١٨ أ.

(١) العسجد المسبوك، ص ١١٩؛ غاية الأماني، جـ ١، ص ٢٧٥.

(٢) الكامل في التاريخ، جـ ٨، ص ١٦١.

(٣) عندما قامت الدولة النجاحية أعلن أول زعمائها، نجاح، دخوله في طاعة العباسيين، وعينه الخليفة القادر بالله (ت ٤٢٢ هـ/ ١٠٣٠ م) نائبًا عنه في اليمن، ولقبه نصير الدولة، ومثل ذلك فعل علي بن محمد الصليحي مع الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (ت ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م). وسار خلفاء كل من الزعيمين سيرتهما في التأييد والولاء. أنظر: ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص ٧٢؛ الوصابي، تاريخ وصاب، ص ٣٢؛ الخزرجي، الكفاية والإعلام، مخطوط، ورقة ٤٥ أ - ب؛ الديبع، بغية المستفيد، ص ٤٥.

أما كيف أخذوا يحيى بن حمزة معهم أسيرًا إلى العراق ومتى؟ فهذا ما لا يعرف على وجه التحقيق، خاصة وأن هناك من الإشارات ما يفيد ببقاء الغز في اليمن زمنًا طويلاً بعد عودة يحيى إلى بلاده، وحتى بعد وفاته[1]، إلا أن تكون هذه الثُّلَّة من الغز، هي إحدى فئاتهم العائدة إلى بغداد، فأخذت يحيى معها، وهي في طريق عودتها إليها. فقد ذكر أن أحد زعمائهم أصيب بالجدري، فتوفي في سابع يوم من وصوله، فعادوا به إلى بغداد، وحملوه، ودفنوه عند قبر أبي حنيفة[2]، فإذا كانت حادثة أسر يحيى تمت على يد هؤلاء تحت أي ظرف من الظروف، فإن هذه الحادثة كانت في السنة التي جاء فيها الغز، أو الأتراك إلى اليمن، أي في سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م على ما يذكره ابن الأثير[3]. فربما كان فكاك يحيى من الأسْر، ورجوعه إلى بلاده، في آخر السنة المشار إليها، أو في التي بعدها، ليلقى أخوه عيسى، على يديه بعد رجوعه، أجله المحتوم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

أما يحيى بن حمزة، فإننا لا نعرف شيئًا، على وجه التحقيق، عن حياته بعد قتله لأخيه عيسى، سوى أن علاقته كانت جيدة ونِدِّيَّة مع جياش بن نجاح الذي استرد حكم بني نجاح في حوالي سنة ٤٨٢ هـ/ ١٠٨٩ - ٩٠ م[4]. وفي ضوء هذه العلاقة الجيدة، استعان جياش بالأمير يحيى لينصره ضد خصمه الزعيم الصليحي، سبأ بن أحمد، فيما عرف باسم معركة الكظائم التي حدثت على باب زبيد[5]، حيث تذكر المصادر أن سبأ بن أحمد توجه إلى زبيد في ثلاثة آلاف فارس، وعشرة آلاف راجل، وكان جياش قد أعد الجموع لمواجهة هذا الزحف الهائل. وممن استعان بهم جياش ضد سبأ بن أحمد والقوات

---

(١) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ١١٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٨، ص ١٦١.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٨، ص ١٦١.

(٤) ابن عبدالمجيد، تاريخ اليمن، ص ٦٤؛ الوصابي، تاريخ وصاب، ص ٥١؛ الديبع، قرة العيون، جـ ١، ص ٣٤٥؛ الواسعي، فرجة الهموم والحزن، ص ١٦٤.

(٥) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٢٧٥.

الصليحية، الشريف يحيى ابن حمزة بن وهاس، أمير المخلاف السليماني، حيث جعله، هو ومن معه، كمينًا وفق خطة أُعدّت سلفًا[1]. وعندما نشب القتال بين الفريقين، ظهر الشريف يحيى بمن معه، وحمل على القاضي عمران بن مفضل، وطعنه طعنة مات متأثرًا بها بعد أيام. وانتهت هذه المعركة لصالح النجاحيين، بعد أن قتل من الصليحيين قيس بن أحمد بن المظفر، وانهزم الجيش الصليحي بمن فيهم قائدهم سبأ بن أحمد الذي عقرت فرسه، وسار بين الناس راجلاً[2]. وكانت هذه المعركة التي شارك فيها يحيى سببًا في مقتله، حيث يقول يحيى بن الحسين «وبعد مضي أيام نزل ولدا القاضي عمران بن مفضل، وهما - أحمد وحسين - إلى تهامة، للأخذ بثأر أبيهما من الشريف يحيى بن حمزة وقتلاه، وهو لا يعرفهما»[3]. وهكذا، فإن تاريخ هذه المعركة هو تاريخ وفاة الأمير يحيى، ومع الأسف الشديد، فإن المؤرخين المحلّيّين من

---

(١) كانت هذه الخطة تقضي بأن يعتقل جياش وزيره خَلَف بن أبي الطاهر، ويصادر أملاكه، ويعين وزيرًا آخر عوضًا عنه، ثم دبر خلف وسيلة للهرب إلى سبأ بن أحمد، والالتجاء إليه، فأخذ يحسن لسبأ النزول إلى تهامة، ووعده بالخِبْرة والمشورة، وكتب في نفس الوقت إلى جياش يأمره بالتراخي، وإظهار العجز، وأن يطالب سبأ بإبعاد الوزير خلف مقابل نصف البلاد، ومال يؤديه إليه. فطمع سبأ، وانطلت عليه الحيلة، ووقع في المكيدة التي دبرها جياش ووزيره خلف بن أبي الطاهر. أنظر: عمارة، المفيد، ص ١٢١؛ الوصابي، تاريخ وصاب، ص٤١.

(٢) عمارة، المفيد، ص ١٢١ - ١٢٢؛ الخزرجي، العسجد، ص ٦٤؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٢٧٥. وفي قتل القاضي عمران بن المفضل اليامي يقول الشريف يحيى بن حمزة مفتخرًا من شعر أوله:

أُبْـلِـغْ نـزارًا حـيـث حَـلَّ نـزَارُ

ومنها:

ونـجـا الـحـجـازيُّ الـرئـيـسُ بـطـعـنـةٍ نـجـلا لـهـا تـحـت الـقـمـيـصِ خُـوارُ

أنظر: الهمداني، الصليحيون، ص ١٥٣.

(٣) غاية الأماني، جـ ١، ص ٢٧٥.

أمثال عمارة، ومن نقل عنه، لا يوردون تاريخ هذه المعركة[1]. وسار على هذا التقليد بعض المؤرخين المحدثين الذين لم يحاولوا أن يجهدوا أنفسهم في الكشف عن تاريخ وقوعها[2]. ومع ذلك، فإن هناك بعض المحاولات العاجلة التي تفتقر إلى التحقيق، مثل إرجاع حدوث هذه المعركة إلى سنة ٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧ - ٨ م في بعض الأقوال[3]، أو إلى سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ - ٧ م، في أقوال أخرى[4]. وينفي هذه الأقوال أن معركة الكظائم حدثت أثناء حكم جيَّاش الذي ابتدأ في حوالي سنة ٤٨٢ هـ/ ١٠٨٩ م، وليس في عهد حكم أخيه سعيد الأحول الذي قتل في سنة ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ - ٩ م، وهو على رأس السلطة النجاحية[5].

ومن هذه الأقوال ما يجعل حدوث هذه المعركة في سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م[6] وهي، على أية حال، أقوال تقترب من الحقيقة، وإن كنّا نعتقد أنها وقعت بعد ذلك بقليل، لأنها جرت بين سبأ بن أحمد، وجياش ابن نجاح، ولم

---

(١) أنظر الوصابي، تاريخ وصاب، ص ٤١؛ الخزرجي، العسجد، ص ٦٤؛ الديبع، بغية المستفيد، ص ٤٩. يورد يحيى بن الحسين أخبار هذه المعركة في حوادث سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م ولكن يفهم من سياق الحديث أنها كانت مسبوقة بأحداث، ومصادمات بين بني الصليحي، في عهد سبأ بن أحمد، وبني نجاح، في عهد جياش، وأن هذه المعركة كانت آخر هذه الأحداث، مما يعطي دليلاً على أنها حدثت بعد هذا التاريخ، أنظر: غاية الأماني، ج ١، ص ٢٧٥.

(٢) أنظر على سبيل المثال: العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ١٧٠ - ١٧١؛ هدى الزويد، «دولة بني نجاح»، ص ١٢٩ - ١٣١.

(٣) أنظر: إسماعيل قربان، السلطان الخطاب، ص ١٦ - ١٧؛ وانظر أيضًا: Smith, *the Ayyubids and Early Rasulids*, p.54.

(٤) أنظر: عمارة، المفيد، ص ١٢٢ هامش ٢؛ الديبع، قرة العيون، ج ١، ص ٢٦٧ - ٦٨، هامش ٢؛ الهمداني، الصليحيون، ص ١٥٢ - ١٥٣، وفي أماكن متفرقة.

(٥) ابن الديبع، قرة العيون، ج ١، ص ٢٦٣ - ٢٦٥.

(٦) عبدالله الثور، هذه هي اليمن، ص ٢٨٥؛ أحمد شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص ٢٠٦، ٢١٢.

يتمتع الأول بالوصاية على بني الصليحي إلا بعد حوالي سنة من وفاة المكرم[(١)]. وقد كان يحتاج إلى سنة أخرى، أو أكثر حتى يسوي أموره مع السيدة أروى بنت أحمد التي كانت لا تريد وصاية سبأ ابن أحمد على ابنها عبدالمستنصر، ولا تريد أيضًا أن تحقق له رغبته في الزواج منها[(٢)]. فلا بد إذن أن تكون هذه المعركة قد حدثت بعد سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م، خاصة وأنها كانت آخر المعارك بين الصليحيين وبني نجاح، على الأقل في عَهْدَي جياش، وسبأ بن أحمد، وقد سبقتها بعض المناوشات بين الزعيمين على ما يذكره بعض المؤرخين المحلّيّين[(٣)]. فإذا تنبهنا إلى ما يورده يحيى بن الحسين من أن الساحة اليمنية لم تشهد من الحوادث، في المدة من سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م إلى سنة ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ م، ما يستحق الذكر[(٤)]. فمن المحتمل أن معركة الكظائم حدثت إما في سنة ٤٨٦ هـ/ ١٠٩٣ م، أو في سنة ٤٩١ هـ/ ١٠٩٧ م، أو حتى في السنوات التي بينهما، على افتراض أن أخبار هذه المعركة لم تصل إلى المؤرخ يحيى بن الحسين، أو من نقل عنهم، ولو أن المرء يميل إلى ترجيح السنة الأخيرة، لأن هذه المعركة، لم تكن الأولى بين الزعيمين، فقد أشرنا إلى أنها سبقتها مناوشات غير قليلة، ربما استغرقت بضع سنوات، هذا إلى أن سبأ بن أحمد توفي في السنة التي تليها أي في سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م[(٥)]، فربما كان متأثرًا، ولو نفسيًا بالنتائج السيئة التي ترتبت على هذه المعركة، يضاف إلى ذلك أنها كانت آخر المعارك بين الصليحيين وجياش مما يدل على

---

(١) الهمداني، الصليحيون، ص ١٥٤ - ١٥٦.

(٢) أنظر: عمارة، المفيد، ص ١٢٢ - ١٢٤؛ ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ٥٧؛ الهمداني، الصليحيون، ص ١٥٦ - ١٥٨.

(٣) أنظر: عمارة، المفيد، ص ١٢٠ - ١٢١؛ الديبع، بغية المستفيد، ص ٤٩؛ يحيى بن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٢٧٥.

(٤) غاية الأماني، جـ ١، ص ٢٧٨.

(٥) الخزرجي، العسجد، ص ٦٥؛ الأهدل، علماء اليمن، مخطوط، ورقة ٢٦٨ أ؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ١٧٩؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ٤١.

أن سبأ لم يعش بعدها طويلاً[1].

ومن هنا يمكن القول، أن الأمير يحيى الذي قيل إنه قتل بعد معركة الكظائم بأيام، ربما كان تاريخ مقتله في حوالي سنة ٤٩١ هـ/ ١٠٩٧ م، وهو تاريخ هذه المعركة الذي سبق ترجيحه. وهذا ينفي ما يذهب إليه العقيلي من أن يحيى عاش في الثلث الأول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي[2].

ومهما يكن من أمر، فإن زعامة بني سليمان آلت بعد وفاة يحيى ابن حمزة إلى ابنه غانم بن يحيى الملقب بأبي الغارات[3]. وليس في المصادر المتاحة ما يدل على أخذه بثأر أبيه من أبناء القاضي عمران بن مفضل، قتلة والده الأمير يحيى، ولكن يبدو أن هذا الحادث وثق علاقته بالدولة النجاحية السُّنِّيَّة، حيث كون معها حلفًا ضد الدولة الصليحية الإسماعيليَّة وحلفائها. وقد تجلّى هذا الحلف ابتداءً من سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ - ٧ م عندما استعان سليمان بن الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري، السني المذهب، بكل من صاحب زبيد النجاحي، وأمير المخلاف السليماني، ضد أخيه الخطاب الحجوري الذي كان على مذهب الصليحيين الإسماعيلي[4]. وقد انتهى نزاعهما على مدينة الجريب اليمنية بتغلب الخطاب على أخيه سليمان وقتله في حوالي سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م[5]. وكان هذان الأخوان من فحول شعراء اليمن، فأدى تورط غانم في نزاعهما إلى شهرته في شعرهما مدحًا وهجاءًا، وكان بالتالي سببًا في حفظ

---

(١) عمارة، المفيد، ص ١٢٢؛ الخزرجي، العسجد، ص ٦٤؛ الديبع، بغية المستفيد، ص ٤٩.

(٢) المخلاف السليماني، جـ١، ص ٢٠٨.

(٣) الخزرجي، العسجد، ص ١٢٣؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ١٢٠؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ ١، ص ٢٠٨.

(٤) العقيلي، ديوان السلطانين، ص ١٧.

(٥) عمارة، المفيد، ص ٢٠٣ - ٣١٥؛ العقيلي، ديوان السلطانين، ص ١٧، ١٩.

اسمه في المصادر اليمنية التي عنيت بنزاع الأخوين[١].

ولم يقتصر تدخل الشريف غانم في قضايا خارجية على حلفاء الصليحيين، بل تعدى ذلك إلى تورطه في معاداة الأئمة الزيدية، وهم أيضًا خصوم بني نجاح، فقد ذكر أنه في سنة ٥١١ هـ/ ١١١٧ - ٨ م قدّم عونًا لخصوم الحاكم الزيدي في صعدة، الأمير المحسن بن أحمد بن المختار بن الناصر بن الهادي إلى الحق، حيث تمكن هؤلاء الخصوم، بفضل مساعدة الشريف غانم، من دخول صعدة، وقتل المحسن، وولده، وجماعة من أصحابه في منزله، وإحراق جسده[٢]. وقد بلغ مقدار العون الذين قدمه الشريف غانم لخصوم الأمير المحسن، عشرة آلاف دينار[٣]. ولا يعرف سبب سياسي لهذا الموقف الذي وقفه الشريف غانم ضد الحاكم الزيدي الذي تربطه به صلات النسب والجوار[٤]، سوى أن المحسن قتل رجلاً من الباطنية استجار

---

(١) عن قصائد المديح والهجاء التي قيلت في الشريف غانم، أنظر: عمارة، المفيد، ص ٢١١ - ٢١٣، العقيلي، ديوان السلطانين، ص ١٢١، ١٣٢ - ١٣٤، ١٤٩ - ١٥٢، ١٧٢ - ١٧٤. وممن مدح الشريف غانم غير السلطان سليمان، وأخيه الخطاب، الشاعر اليمني المعروف بابن مكرمان، من أهل جبال بُرَع، وقد مدحه **بقصيدة مطلعها:**

مَا عَسَى أن يريدَ مِنّي العَذُولُ ... وفؤادِي مُتَيَّمٌ متبولُ

ويقول:

إن بالسَّاعِدِ الخصيبة ملكًا ... طالبيا من زارَهُ لا يعيلُ
علويًّا متوجا هاشميًّا ... حسنيا نوالُه مبذولُ
يا سليلَ البطينِ والحرةِ الزَّهْرا ... هي الطهرُ والحصانُ البتولُ
ما ترى في الملوكِ كالغانمِ الملكِ ... ابن يحيى هيهاتَ أينَ المثيلُ

ويقال: إن غانما أثاب الشاعر عن هذه القصيدة بألف دينار، أنظر: عمارة، المفيد، ص ٢٣٨.

(٢) ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٢٨٨؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ٤٣.

(٣) ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٢٨٨.

(٤) أنظر الخزرجي، العقد الفاخر، مخطوط، ورقة ٣٠ ب.

بجماعة من الحدادين في صعدة، فاستنجد الأخيرون بقبائل خولان وغيرهم، وتجاوب مع الحدادين الذين خفرت ذمتهم واعتدي على جارهم، عدد من القبائل بمن فيهم الشريف غانم ورجاله[1]. ولعل هذا الموقف من غانم، كان فقط بدافع الشهامة العربية والفروسية التي تدل عليها كنيته التي اشتهر بها وهي «أبو الغارات»[2].

أما علاقات الشريف غانم ببني نجاح، فيعتقد أنها كانت جيدة، ولو أنه فشل في الوقوف على الحياد أثناء نزاع الوزير مفلح الفاتكي (ت ٥٢٩ هـ/ ١١٣٤ - ٥ م) مع القائد سرور (ت ٥٥١ هـ/ ١١٥٦ م)، ولم يستطع المحافظة على علاقات متوازنة بين الخصمين، بل إنه راهن على الحصان الخاسر عندما استجاب لدعوة مفلح في حربه ضد القائد سرور، حيث تذكر المصادر أن مفلحًا الذي كان حتى ذلك الوقت يمثل الشرعية في زبيد، كتب إلى الشريف غانم، أمير المخلاف، وتعهد الوزير مفلح للشريف غانم، وبني عمه بإسقاط الإتاوة المستقرة عليهم لصاحب زبيد في كل سنة، ومبلغها ستون ألف دينار، وتعهد أيضًا بأن يضيف لهم أعمال الواديين[3]. ولا شك أن هذا العرض، بالإضافة إلى احتمال رغبة بني سليمان في مناصرة الشرعية، كان مغريًا للشريف غانم الذي سار في ألف فارس، وعشرة آلاف راجل، لنجدة الوزير مفلح ضد أهل زبيد في ثورتهم عليه بزعامة القائد سرور. فالتقى الجمعان بالمهجم في سنة ٥٢٩ هـ/ ١١٣٤ - ٥ م، حيث حلت الهزيمة بالوزير مفلح وأنصاره من الأشراف الذين تراجعوا إلى المخلاف، في حين أن مفلحًا عاد إلى حصن الكرش حيث أدركته المنية في السنة نفسها، وصفت الأمور بعد ذلك للجناح الموالي للقائد سرور[4]. وهكذا يلاحظ أن تمسك الشريف غانم

---

(١) ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٢٨٨؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ٤٣ - ٤٤.

(٢) ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٢٨٨.

(٣) الديبع، قرة العيون، جـ ١، ص ٣٥٥.

(٤) الخزرجي، العسجد، ص ١٢٣ - ١٢٤. ابن الحسين في كتابه غاية الأماني، يجعل =

بمناصرة السلطة الشرعية التي يمثلها مفلح، بالإضافة إلى العرض المغري الذي حمله على اتخاذ جانب الأخير، ومساعدته في حربه ضد القائد سرور، الخارج على هذه الشرعية - لم يؤديا إلى النتائج المرجوة التي كان الأمير السليماني يأمل في الحصول عليها من مغامرته تلك وعلى العكس، فإن هذا التدخل أدى إلى سوء علاقته بالقائد سرور الذي انتهت معركة المهجم لصالحه، وأصبح فيما بعد الوزير الأول للدولة النجاحية. وكان لزامًا على الشريف غانم، في المقابل، أن يسعى إلى تحسين هذه العلاقة مع القائد المنتصر. ويبدو أن الشريف غانم عمل على تدارك هذا الأمر في الحال، وذلك بأن أوفد إلى القائد سرور، قبل أن يبارح المهجم، وزيره مسلم بن سنحت، حيث عقد معه هدنة، ربما أسفرت عن بقاء الوضع في المخلاف على ما كان عليه، قبل نجدة الشريف غانم لمفلح الفاتكي[(١)].

ويدل على بقاء الوضع على ما كان عليه في المخلاف، ما يذكره الخزرجي بقوله: «فلما كسرهم (أي سرور) قلد فاتك بن منصور المهجم، وما يليها من الأعمال الشمالية، وهي مور والواديان»[(٢)]. ويتضح من هذا القول أن تولية فاتك اقتصرت على مور والواديين فقط، ولم تتعدها إلى المناطق الشمالية التي ربما بقيت تحت سيطرة الشريف غانم، ولكن الأخير خسر مطامعه في ولاية الواديين التي راهن عليها بدخوله الحرب ضد القائد سرور. أما الإتاوة التي كان يدفعها السليمانيون لحكام زبيد، فمن المحتمل أنها أسقطت بموجب هذه الهدنة، بدليل أن المصادر لم تشر إليها بعد هذه الحادثة، هذا إلى أن الدولة النجاحية دخلت في مرحلة من الضعف جعلتها عاجزة عن فرض الإتاوات حتى على ولاياتها التابعة لها فعلاً، وأصبحت بعد مقتل القائد سرور سنة ٥٥١ هـ/ ١١٥٦ م، وتنافس القواد، وأعيان الدولة على

= تاريخ هذه الوقعة تحت حوادث سنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ - ٦ م، أنظر: جـ ١، ص ٢٩٠ - ٢٩٢.

(١) عمارة، المفيد، ص ١٨٠.

(٢) الخزرجي، العسجد، ص ١٢٣.

السلطة – غير قادرة على حماية أطرافها حتى سقطت نهائيًا على يد ابن مهدي في رجب سنة ٥٥٤ هـ/ ١١٥٩ م كما سيأتي[١].

أما الشريف غانم، فإن المصادر المتاحة، لم تفصح عن ذكر اسمه بعد سنة ٥٢٩ هـ/ ١١٣٤ – ٥ م، كما أنها لم تشر إلى تاريخ وفاته، ونعتقد أن الأجل امتد به إلى أوائل عهد الإمام المتوكل أحمد بن سليمان الذي قام بالإمامة من سنة ٥٣٢ – ٥٦٦ هـ/ ١١٣٧ – ٧٠ م[٢]، بدليل ما يذكره العقيلي، من أن الشريف غانم وفد على الإمام المتوكل، وأن هذه الوفادة لم تتقبلها حكومة زبيد بطيب خاطر لسوء علاقاتها مع المتوكل، وما بينهما من حروب وخصام[٣]. غير أن العقيلي، كعادته، لم يوضح مكان هذه الوفادة، ومتى كانت؟ ولكنه يذكر في مكان آخر نقلاً عن الشرفي أن الإمام «أحمد بن سليمان تقدم من جهة حَيْدَان إلى أحواز تهامة، وأنه عندما دنى ﴿كذا﴾ منها، طلب منه الفقيه الحسن بن شبيب أن يكاتب غانم بن يحيى بن حمزة بن وهاس، وكافة بني سليمان، ويوعظهم لأنهم كانوا على فسق وظلم. وقد أجابه إلى ذلك، وحط بموضع يقال له الصَّبَابة، أعلا وادي جازان في شق تهلة، فأرسل الإمام رسلاً يطلب منهم الدخول في الطاعة والتوبة على يديه، فلما بلغ غانم بن يحيى رد جوابًا يعد فيه بالمساعدة والمعاضدة»[٤]. وبالرجوع إلى حوليات المؤرخ الزيدي، يحيى بن الحسين، يتضح أن الإمام المتوكل لم يحط في حَيْدَان إلا مرتين، إحداهما: في سنة ٥٣٦ هـ/ ١١٤١ – ٢ م،

---

(١) أنظر: الديبع، قرة العيون، ج ١، ص ٣٥٧ – ٣٥٨. يعزز إسقاط هذه الإتاوة، وتوقف دفعها لحكام زبيد منذئذ، ما يعتقده بعض الكتاب المحدثين من أن امتناع بني سليمان عن دفعها إلى بني مهدي كانت من بين أسباب غزوهم للمخلاف السليماني. محمد أمين صالح، «بنو مهدي في زبيد»، ص ١٣٧، كما سيأتي.

(٢) أنظر: العرشي، بلوغ المرام، ص ٣٩ – ٤٠.

(٣) المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٠٨.

(٤) العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٠٦؛ أنظر أيضًا النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ١١٩.

والأخرى في سنة ٥٦٦ هـ/ ١١٧٠ م، حيث توفي فيها ودفن بها[١]. فمن المحتمل أن اتصاله بالشريف غانم، كان في المرة الأولى، ومن هنا يمكن القول أن الأخير كان حيًّا في سنة ٥٣٦ هـ/ ١١٤١ - ٢ م، وليس من المستبعد أن يكون قد عاش إلى مطلع سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٣ - ٤ م؛ فقد ورد ذكره على أنه أمير تهامة الشامية عند وفاة مهدي بن علي بن مهدي، وانتقال حكم زبيد إلى أخيه عبد النبي بن مهدي[٢]؛ وأنه كان يحكمها حكمًا مستقلاً حتى إن بعض المصادر تطلق عليه لقب ملك[٣]. ومهما يكن من أمر وفاة الشريف غانم، فإن مقاليد السلطة في المخلاف، ربما انتقلت إلى ابنه وهاس بن غانم الذي سيأتي ذكره أدناه.

---

(١) غاية الأماني، جـ ١، ص ٣٠٠، ٣١٨. حَيْدَان: جنوب غرب صعدة بحوالي سبعين كيلومترا، أنظر: إبراهيم المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ص ٢١١.

(٢) أنظر: ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٣١٦؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ٥٢. إذا صحت الإشارة الأخيرة، فمعنى ذلك أن غانمًا كان فوق الثمانين خريفًا، وهذا ليس مستبعدًا في أسرة اتصف بعض أفرادها بطول أعمارهم إلى ما بعد المائة. كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

(٣) أنظر: الوصابي، تاريخ وصاب، ص ٥٩.

بنو سليمان، وعبدالنبي بن مهدي

تقدم أن علي بن مهدي احتل مدينة زبيد، ووضع حدًّا لدولة بني نجاح سنة ٥٥٤ هـ/ ١١٥٩ م، وأسس بدلاً من ذلك دولة جديدة عرفت باسم دولة بني مهدي، لم تعمر أكثر من خمسة عشر عامًا من سنة ٥٥٤ إلى سنة ٥٦٩هـ/ ١١٥٩ - ١١٧٤م[١]. وقد قام خلفاء ابن مهدي بحروب كثيرة في اليمن شملت الجَنَد، ولَحْج، وأبْيَن، وهدد سلطان بني زريع في عدن[٢]. وتجدر الإشارة إلى أن مناطق بني سليمان بزعامة وهاس بن غانم، بقيت بمنأى عن غارات بني مهدي حوالي خمس أو ست سنوات، ولم تطلها أيديهم إلا في عهد عبدالنبي بن مهدي الذي جاء إلى السلطة في سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣ - ٤م[٣]. وحتى بعد مجيء عبدالنبي إلى السلطة، فإنه لم يتجه في سني حكمه الأولى إلى تهامة

---

(١) الديبع، بغية المستفيد، ص ٦٥ - ٦٧، محمد أمين صالح، «بنو مهدي في زبيد»، ص ١٢٧. تذكر المصادر اليمنية أن ابن مهدي من أهل السنة، وأنه كان على المذهب الحنفي، وتضلع في معارف علماء العراق ووعاظه، وسلك مسلك الخوارج في التَّكْفِيْر بالمعاصي، والقتل بها. وكذلك قتل من يخالف اعتقاده من أهل القبلة، واستباحة وطء سباياهم، واسترقاق ذراريهم، وجعل ديارهم دار حرب يحكم فيها حكمه في أهل دار الحرب. وكان اعتقاد أصحابه فيه فوق ما يعتقده الناس في أنبيائهم. أنظر: عمارة، المفيد، ص ١٩٠؛ الوصابي، تاريخ وصاب، ص ١٠٧؛ ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ٧٤؛ الديبع، قرة العيون، جـ ١، ص ٣٦٠.

(٢) الديبع، قرة العيون، جـ ١، ص ٣٦٥ - ٣٧١؛ محمد أمين صالح «بنو مهدي في زبيد»، ص ١٣٥ - ١٣٧.

(٣) ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٣١٦؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ٥٢.

الشام، بل واصل تنفيذ الاستراتيجية التي سار عليها أبوه وأخوه، عبدالله بن مهدي، بأن خرج بجيش جرار في سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٣ م إلى جهات أَبْيَن، حيث أعمل في تلك الجهات ضروبًا من القتل، والسلب، والحرق، ثم عاد إلى زبيد تاركًا القيادة لأخيه أحمد بن مهدي[١]، ولم يتهيأ لغزو بني سليمان في المخلاف إلا في أواخر سنة ٥٦٠ هـ/ ١١٦٥ م[٢]. فكيف كان وضع بني سليمان قبل غزو عبدالنبي بن مهدي لبلادهم، وكيف كانت علاقتهم مع الحكام الجدد؟.

لم تشر المصادر المتاحة، من قريب ولا من بعيد، إلى أمراء بني سليمان بعد سقوط جيرانهم وحلفائهم، بني نجاح، وقيام دولة بني مهدي على أنقاض إمارتهم، كما أنها لم تشر إلى علاقتهم ببني مهدي، حكام زبيد الجدد. ويبدو أن تغيير النظام في زبيد لا يعني شيئًا بالنسبة لبني سليمان، لأن هذه ليست هي المرة الأولى التي تسقط فيها زبيد في حوزة نظام معاد لبني نجاح، الحلفاء التقليديين لبني سليمان، ولم يغير ذلك من وضعهم، ربما لأنهم فرسان يعتمدون على الغارات والانتقال، ويساعدهم في ذلك عمق جغرافي يمتد إلى الشمال حتى أطراف الحجاز الذي تسيطر عليه فئات من بني عمومتهم، فهم، بالنسبة لبني سليمان، ربما كانوا بمثابة فئة ينحازون إليها كلما آنسوا ضغطًا عليهم من الجنوب[٣]. وقد ساعدهم هذا الوضع، بالإضافة إلى سيطرتهم على

---

(١) بامخرمة، تاريخ ثغر عدن، ص ١٢٧ - ١٢٨؛ الديبع، قرة العيون، جـ ١، ص ٣٦٧.

(٢) الخزرجي، العسجد، ص ١٣٧؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ٥٢.

(٣) كانت تسيطر على حكم مكة المكرمة، والمناطق التابعة لها في جنوبي الحجاز، أسرة حسنية، هي أسرة الهواشم التي تلتقي مع الأسرة السليمانية في جدهم موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وقد حكمت هذه الأسرة مكة المكرمة من حوالي سنة ٤٥٥ هـ إلى سنة ٥٩٧ هـ/ ١٠٦٣ - ١٢٠٠ م. أنظر: الفاسي، شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٣١٠ - ٣١٥؛ دخلان، أمراء البلد الحرام، ص ٣١ - ٣٦.

طريق الحج اليمني[1]، في بقائهم محتفظين بزعامة المخلاف على الرغم من سقوط كثير من جيرانهم، من الأسر الحاكمة في الحجاز واليمن، ثم سقوط مدينة زبيد نفسها أكثر من مرة في أيدي الصليحيين، ثم بني مهدي[2]. فقد كان وضع بني سليمان في المخلاف السليماني حتى سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٣ - ٥ م، قائمًا على ما كان عليه من قبل، دون منازع. ولم يتجاوز نفوذ بني مهدي حدّ حرض من الجنوب[3]. أما إلى الشمال من ذلك حتى نهاية حدود المخلاف، فقد كان خاضعًا لنفوذ بني سليمان بزعامة الأمير وهّاس بن غانم السليماني[4]. حتى إذا حلت سنة ٥٦١ هـ/ ١١٦٦ م، قام عبدالنبي بغزوة خاطفة لديار بني سليمان، فتصدى لها الأخيرون بشجاعة فائقة، وجرت بينهما عدة وقائع[5]، ولكن بني مهدي هاجموا الأشراف بعنف، فهزموهم، ثم طاردوهم إلى الشمال، فقتلوا أميرهم الشريف وهّاس بن غانم وسبى عبدالنبي بن مهدي حريم وهّاس، واصطفى أمواله، وعاد إلى اليمن، ربما دون أن يضم

---

(١) يقطع البلاد الخاضعة لسيطرة بني سليمان، طريقان من طرق الحج اليمنية إلى مكة المكرمة، أحدهما: الطريق الأوسط ويعرف باسم «الجادة السلطانية» وهو الذي يجتاز المخلاف السليماني من المهجم، والثاني: الطريق الساحلي، وهو الذي يسير بمحاذاة ساحل البحر الأحمر مرورًا بأهم مدن المخلاف الساحلية مثل: الشرجة، وعثر، وبرك الغماد. أنظر: اليعقوبي، البلدان، ص ٢١٧؛ العمري، مسالك الأبصار، قسم اليمن، ص ٤٤؛ الجزيري، درر الفوائد المنظمة، ص ٤٧٠.

(٢) سقطت زبيد في يد المكرم الصليحي سنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧ - ٨ م، وسقطت في يد الصليحيين أيضًا بعد مقتل سعيد الأحول بن نجاح سنة ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ - ٩ م، ولم يغيّر ذلك من وضع السليمانيين في المخلاف. أنظر: عمارة، المفيد، ص ١٠٦ - ١٠٩، ١١٧ - ١١٨، ١٦٣؛ الديبع، بغية المستفيد، ص ٤٩ - ٥٠.

(٣) ابن الحسين، غاية الأماني، ج ١، ص ٣١٦؛ الكبسي، اللطائف السنية، مخطوط، ص ٥٢.

(٤) الخزرجي، العسجد المسبوك، مخطوط، ص ١٣٧؛ ابن الحسين، غاية الأماني، ج ١، ص ٣١٦.

(٥) العامري، غربال الزمان، ص ٤٤٨.

منطقة جازان إلى ملكة، وإنما اكتفى بتأديب أهلها، والتنكيل بحكامها[١]. وقد كان لهذه الغزوة صدى كبير، وأهمية قصوى في تاريخ المنطقة، لما ترتب عليها من نتائج كانت ذات مغزى بعيد في تحديد مصير دولة بني مهدي، سنعرض له فيما بعد.

أما الأشراف، فإنهم عملوا، بعد هذه الهزيمة، على لم شتاتهم، وتوحيد صفوفهم، واختاروا الشريف قاسم بن غانم، أخا الأمير السابق وهّاس، ليكون أميرًا عليهم بعد أخيه الأمير وهّاس الذي سبقت الإشارة إلى قتله على يد عبدالنبي بن مهدي[٢]. وكان على الأمير قاسم أن يعمل على استتباب الأمن والنظام في بلاده، وأن يثأر لمقتل أخيه من عبدالنبي بن مهدي. وأغلب الظن أن الأشراف قاموا ببعض المحاولات للثأر من بني مهدي، على الرغم من أن المصادر التاريخية لم تفصح عن تلك المحاولات، أو تميط اللثام عنها، ويستدل على تلك المحاولات من إشارة عابرة يوردها الخزرجي بقوله: «إنما دخل الملك المعظم نجدة للشريف قاسم بن غانم السليماني، وذلك أنه لما قتل أخوه وهاس بن غانم، وكان الذي قتله بنو مهدي، فقام أخوه قاسم بن غانم بحربهم، فألحُّوا عليه بالغارات حتى عجز عن مقاومتهم، فخرج إلى الديار المصرية مستنجدًا بالملك الناصر صلاح الدين على ابن مهدي»[٣].

وهكذا، يفهم من هذا النص، أن قاسم بن غانم لم يقف مكتوف اليدين أمام بني مهدي، وإنما قام بمحاولات للثأر من قاتل أخيه وهاس، وعندما أعياه الحال، ولم يقدر على هزيمة خصومه، أو يقوى - على الأقل - على منازلتهم أخذ يبحث عن جهة أخرى يستمد منها العون ضد قاتل أخيه، ومنتهك حرمات أرضه وعرضه، وهذا ما سنعرض له في الصفحات التالية.

---

(١) ابن سمرة، طبقات فقهاء اليمن، ص ١٤٣ - ٤؛ ابن الأهدل، علماء اليمن، مخطوط، ورقة ٢٧٧ أ؛ الديبع، قرة العيون، جـ١، ص ٣٦٦، ٦٧؛ بامخرمة، تاريخ ثغر عدن، ص ١٢٧.
Smith, *The Ayyubids and Early Rasulids*, P.33.

(٢) العامري، غربال الزمان، ص ٤٤٩.

(٣) العسجد المسبوك، ص ١٤٧ - ١٤٨.

بنو سليمان وبنو أيوب

يورد المؤرخون أسبابًا عدة لغزو الأيوبيين لليمن، يأتي من بين هذه الأسباب، أن حملة تورانشاه على اليمن كانت نجدة للشريف قاسم بن غانم، صاحب المخلاف السليماني، للثأر من عبدالنبي بن مهدي، بسبب إغارته على ديارهم، وقتله لأميرها وهاس بن غانم، وأن هذه الحملة كانت بناءً على أوامر من صلاح الدين، نتيجة لاستنجاد الشريف قاسم به، أو بالخليفة العباسي، المستضيء (ت ٥٧٥ هـ/ ١١٨٠ م)، الذي كتب بدوره إلى صلاح الدين الأيوبي يأمره بالتحرك لمساعدة الشريف قاسم، ووضع حدّ للفوضى التي أحدثها بنو مهدي في اليمن. وقد قال بهذا الرأي معظم المؤرخين اليمنيين، بل إن بعضهم يذهب إلى تبنِّي روايتين بخصوص طلب هذه النجدة، إحداهما، أن الشريف قاسم بن غانم، عندما أعياه الأخذ بثأره من بني مهدي، ذهب بنفسه إلى الدِّيار المصريَّة، مستنجدًا بالملك الناصر صلاح الدين ضد عبدالنبي بن مهدي، والثانية ترى أنه خرج إلى الخليفة العباسي، فكتب له الخليفة إلى الملك الناصر صلاح الدين[1].

غير أن رواية المؤرخين اليمنيين جوبهت بنفي شديد من قبل الباحثين المعاصرين، دون أن يبدوا أسبابًا مقنعة تبرر هذا النفي، أو يصلوا إلى أسباب أخرى منطقيَّة غير تلك التي يوردها المؤرخون بمن في ذلك مؤرخو اليمن. ولسنا في مجال مناقشة أسباب حملة تورانشاه على اليمن، أو تفنيد آراء

---

(١) أنظر على سبيل المثال: الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ١٤٧ - ١٤٨؛ الديبع، قرة العيون، ج ١، ص ٣٧٦؛ ابن الحسين، غاية الأماني، ج ١، ص ٣٢٢.

المؤرخين القدامى والمحدثين حول دوافع هذه الحملة. وإن كنا بحكم البحث في موضوع بني سليمان، بحاجة إلى مناقشة البراهين التي يوردها بعض الباحثين المحدثين، لدعم وجهات نظرهم المتمثلة في إنكار، استعانة قاسم بصلاح الدين، أو نفيها. ومجمل ما يذهب إليه هؤلاء الباحثون ينحصر فيما يلي[١]: -

١ . إن هذه الرواية لم ترد في كتاب السمط الغالي الثمن لابن حاتم، وهو من أقدم المصادر اليمنية. ويرد على هذا القول بأن النص الذي وصل إلى علم المؤرخين من كتاب السمط، يبدأ بالدخول مباشرة في موضوع الأيوبيين في اليمن، دون أن يورد أيًّا من الأسباب أو الاستعدادات التي اعتاد إيرادها مؤرخو الحملة الأيوبية على اليمن[٢].

هذا إلى أن هناك احتمالاً من أن بعض أجزاء هذا الكتاب مفقودة، فربما يشتمل الجزء المفقود على أسباب هذه الحملة، ودوافعها بما في ذلك استنجاد الشريف قاسم بصلاح الدين، أو بالخليفة العباسي[٣].

٢ . إن الخزرجي، صاحب هذه الرواية، ينقل عن الجَنَدي، وأن الأخير وقع في لبس واضح بين رسالة الأمير قاسم هذه، وبين تلك الرسالة التي بعثها ابن النساخ المطرفي إلى الخليفة العباسي، الناصر لدين الله في سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م. ويرد على هذا الرأي أيضًا، بأن الخزرجي لا ينقل هذه الرواية

---

(١) أنظر: محمد عبدالعال أحمد، الأيوبيون في اليمن، ص ٧٦ - ٧٧؛ العسيري، الحياة السياسية، ص ٦٢ - ٦٤؛ محمد أمين صالح، «بنو مهدي في زبيد»، ص ١٤٠ - ١٤١.
Smith, *The Ayyubids and Early Rasulids*, PP.32,47.

(٢) أنظر: ابن حاتم، ص ١٥، وما بعدها؛ عن قِدَم كتاب السمط في موضوعه، أنظر:
Smith, *The Ayyubids and Early Rasulids*, P.9.

(٣) يذكر محمد عبدالعال أحمد أن الخزرجي وغيره يوردون، نقلاً عن ابن حاتم، تفصيلات تتعلق بالفترة السابقة على الفتح الأيوبي لليمن. أنظر: الأيوبيون في اليمن، ص ٣٣١.
Smith, *The Ayyubids and Early Rasulids, P.4.*

المتعلقة باستعانة الشريف قاسم بصلاح الدين، أو غيره عن الجندي، وإنما ينقلها عن العقد الثمين لابن حاتم، وهو - كما تقدم - واحد من أقدم مؤرخي اليمن، بل إن ابن حاتم نفسه يعتبر أقدم من أرَّخ منهم للأيوبيين في اليمن على الإطلاق[(١)]. وهناك اعتقاد بأن كتاب ابن حاتم الذي بين أيدينا، مع الجزء المفقود ربما يطلق عليهما معًا العقد الثمين[(٢)]. فإذا صح هذا القول، فإنه يقوي ما سبقت الإشارة إليه في الفقرة السابقة، مع أن هذا الجزء يشتمل على أسباب حملة تورانشاه على اليمن، ودوافعها بما في ذلك استنجاد الشريف قاسم بن غانم بصلاح الدين، أو بالخليفة العباسي.

٣. إن مهاجمة عبدالنبي بن مهدي للمخلاف السليماني، وما ترتب على ذلك من مقتل الشريف وهّاس بن غانم، كانت في سنة ٥٦١ هـ/ ١١٦٥ م، وحملة تورانشاه على اليمن كانت في سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م، أي بعد مرور ثماني سنوات على مقتل وهّاس، مما يؤكد - على حد رأي هؤلاء المؤرخين - أن الحملة في أساسها لم تكن استجابة لدعوة الشريف السليماني. وعلى الرغم من وجاهة هذا القول، فإنه لا ينفي أن تكون هذه الاستعانة جاءت متأخرة عن مقتل وهّاس بن غانم بعض السنوات. ومن الجائز أنها وصلت إلى صلاح الدين، إما مباشرة، أو عن طريق الخليفة العباسي، فور توليه الوزارة في مصر سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م، أو بعد ذلك بوقت يطول أو يقصر. ولكن الأسباب، والاستعدادات لم تتهيأ لصلاح الدين إلا في سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م. ويؤيد مجيء طلب هذه الاستعانة متأخرًا، ما سبقت الإشارة إليه، من أن الشريف قاسم بن غانم لبث وقتًا غير قليل في محاربة بني مهدي، ولكن «عندما ألحُّوا

---

(١) الخزرجي، العسجد المسبوك، مخطوط، ص ١٤٨؛ وقد صرح الخزرجي باسم مؤلف العقد الثمين في كثير من الأمكنة، من ذلك على سبيل المثال، قوله في صفحة ١٧٨ «قال الحاتمي في كتابه العقد الثمين».

(٢) أنظر: محمد عبدالعال أحمد، الأيوبيون في اليمن، ص ٣٣١ - ٣٢؛ اسم هذا الكتاب كاملا: العقد الثمين في أخبار ملوك اليمن المتأخرين، أنظر:
Smith, *The Ayyubids and Early Rasulids*, P.3.

عليه بالغارات حتى عجز عن مقاومتهم»[1] - كما يقول الخزرجي - أخذ في أسباب البحث عن مساعدة خارجيّة، وعلى افتراض أن طلب النّجدة من قبل قاسم بن غانم، لم يأت إلا بعد ثماني سنوات، أفلم يكن ذلك بدافع الثأر لمقتل أخيه وهّاس من بني مهدي، واسترداد ما غنموه من أموالهم، وما سبوه من نسائهم؟ فما هو إذن وجه الغرابة في تأخر طلب النّجدة طيلة هذه المدة؟ إن المسألة مسألة ثأر، وعار، وجمرة الثأر، في بيئة لا تحتكم إلا إليه، لا تطفؤها السنوات مهما طالت، فضلاً عن أن هذه المدة لم تتجاوز الثّمانية أعوام، ثم ما عساه يكون الأمر بالنسبة للشريف قاسم، وهو القائل: «من عاشَ بعد عدوِّه يومًا فقد بلغ المُنى؟»[2]. فمن المحتمل أن قاسمًا لم يطلب هذه النّجدة إلا بعد أن صفت الأمور لصلاح الدين في مصر، وبعد أن رأى حسن معاملته، ورعايته لبني عمومته، أمراء الحجاز الذين لا نستبعد أن تكون هذه المساعي تمت عن طريقهم[3].

٤ . كان على أشراف المخلاف باعتبارهم علويين أن يلجأوا إلى الخليفة الفاطمي بمصر، وليس إلى الخليفة العباسي في بغداد. . . إلخ. وأغلب الظن، أن هذا الاستنتاج لم يبن على أساس من دراسة سابقة، وعن إحاطة بالأوضاع التاريخية في تهامة اليمن، وتهامة الشام، ولا يكفي كون الأشراف

---

(١) العسجد المسبوك، مخطوط، ص ١٤٨.

(٢) الديبع، قرة العيون، جـ ١، ص ٣٧٣.

(٣) أقيمت الخطبة في مصر باسم الدولة العباسية في أول سنة ٥٦٧ هـ، وتوفي الخليفة العاضد الفاطمي بعد ذلك بأيام، وأرسل صلاح الدين الأيوبي رسله إلى الحجاز حيث أقيمت الخطبة العباسية في مكة المكرمة على يد الشريف عيسى بن فليته، أحد زعماء أسرة الهواشم، ثم أسقط صلاح الدين المكوس التي كانت تفرض على الحجاج، وعوَّض شريف مكة بأن أمر له بثمانية آلاف إردب من القمح سنويًّا. أنظر: أبو شامة، الروضتين، جـ ١، ص ١٧٤؛ الفاسي، شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٣٦٨؛ المقريزي، السلوك، جـ ١، ص ٤٤؛ السباعي، تاريخ مكة، جـ ١، ص ١٩٢ - ٢٠٤.

من آل علي ليستعينوا بالفاطميين بدلاً من العباسيين[1]؛ لأن بني سليمان كانوا، على مدى حوالي قرن من الزمان، يشكلون مع بني نجاح حلفًا عباسيًّا سنيًا ضد الدولة الصليحية التي كانت تدين بولائها للفاطميين. ومما له دلالته على هذا الحلف، ما سبق أن أشير إليه من اشتراك الشريف يحيى بن حمزة السليماني، جدّ الأمير قاسم، جنبًا إلى جنب مع بني نجاح في معركة الكظائم الفاصلة، تلك المعركة التي انتهت بانتصار بني نجاح، وحليفهم الأمير السليماني، وهزيمة الصليحيين الذين لم تقم لهم قائمة بعد تلك المعركة. وكان للأمير يحيى الفضل الأكبر في ترجيح كفَّة النجاحيين على خصومهم الصليحيين بشهادة كثير من المؤرخين الذين عدَّ بعضهم ذلك الحلف رمزًا أو انتصارًا للمذهب السني[2]. وكذلك اشتراك الشريف غانم، والد الأمير قاسم، في تشكيل حلف مع بني نجاح والأمير سليمان بن الحسن الحجوري، وكان سنّي المذهب، ضد أخيه الخطّاب بن الحسن الحجوري الذي كان - كما تقدم - يدين بالمذهب الإسماعيلي، ويحظى بالدعم والتأييد من لدن أخته من الرضاعة السيدة أروى بنت أحمد الصّليحيّة. حقيقة! أن بني سليمان ربما كانوا يدينون بالمذهب الزيدي الذي لا يتفق مطلقًا مع عقيدة الإسماعيلية[3]؛ وكان

(١) إطلاق لفظ العلويين، أو آل علي على أشراف المخلاف السليمانيين وغيرهم من أبناء فاطمة رضي الله عنها، لا يرضي الملك الأشرف الرسولي الذي يقول: «اعلم أن الشَّرف لا يطلق على كل من كان من ذرية أولاد علي كرم الله وجهه، بل يطلق فقط على من كان من ذرية أولاده من فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورضي عنها، وهما الحسن والحسين رضي الله عنهما، ومن كان من غيرهما من أولاد علي كرم الله وجهه يسمى علويًّا، ولا يسمون أشرافًا. أنظر: طرفة الأصحاب، ص ٩٣.

(٢) الهمداني، الصليحيون والحركة الفاطمية، ص ٢٣٥؛ هدى الزويد، «دولة بني نجاح»، ص ١٣١؛ أنظر أيضًا: العقيلي، ديوان السلطانين، ص ١٧.

(٣) ليست هناك إشارة صريحة إلى نحلة بني سليمان الزيدية، على الأقل خلال الفترة التي سبقت حكم المؤيد بن قاسم، ولكن يفهم من ترجمة بعض من اشتغل بالعلم والفتوى من أفراد هذه الأسرة، أنهم على المذهب الزيدي، ولهم فيه فتاوى ومشاركات تدل على طول باعهم في هذا المذهب، أنظر: عمارة، المفيد، =

الأولى ببني سليمان موالاة الإمام الزيدي، بدلاً من بني نجاح، أو العباسيّين ناهيك عن الصّليحيّين، ولكن بني سليمان كانوا يحكمون منطقة أكثرية سكانها سنّة، غالبيتهم على المذهب الشّافعي[1]. فمن المحتمل أن هؤلاء الحكام كانوا يتصرفون وفق مصالحهم النّابعة من أهواء رعاياهم الذين يعتبرون أنفسهم رعايا للدولة العباسية[2]. وعلى افتراض أن المؤرخين الذين أوردوا النظرية السابقة، لديهم من الأدلة ما يدعمون به نظريتهم. فهل بقي للفاطميين شيء من النفوذ في اليمن، وقد دَكَّ بنو مهدي حصونهم، وقضوا على نفوذهم في اليمن الأسفل، وعملوا على عزل بني زريع ومحاصرتهم في منطقة عدن؟ وهل بقي لهم نفوذ في مصر، بعد أن تقلد صلاح الدين الوزارة هناك في سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م؟ والإجابة الطبيعية على هذين السؤالين هي النفي دون شك، ولم يعد أمام السليمانيين، لإدراك ثأرهم، وغسل ما لحق بهم من عار، سوى الاستعانة بالأيوبيين، أو بالدولة العباسية، وليّة نعمتهم، ونعمة حلفائهم السابقين من بني نجاح.

٥. إن الأشراف كانوا يدركون مغبَّة دخول قوات أجنبية إلى اليمن، وأن ذلك يؤثر على استقلالهم في المخلاف. وهذا الاستنتاج ليس دقيقًا بالضرورة، لما سبق أن أشير إليه من أن بني سليمان، كانوا من الفرسان، وأصحاب الغارات، ويتمتعون بعمق جغرافي، ويسيطرون على طرق اليمن الحيوية إلى

= ص ٢٢٢ – ٢٢٣؛ الخزرجي، العقد الفاخر، ورقة ٣٠ أ، ب؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٣٥٤. ويذكر النعمي، في إشارة عابرة، مذهب أشراف المخلاف السليماني بقوله: «وهم على ما عليه سلفهم من العدل والتوحيد، والوعد والوعيد»، وهو ربما يقصد بذلك المذهب الزيدي. أنظر: الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٧٤.

(١) أنظر: النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٧٧؛ أحمد حسين شرف الدين، تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن، ص ٣٦؛ فؤاد حمزة، قلب جزيرة العرب، ص ١٠٥؛ أمين الريحاني، ملوك العرب، ص ٢٢٨، ٢٦٦.

(٢) أنظر: عمارة، المفيد، ص ٥٥، ٧٧؛ الديبع، قرة العيون، جـ ١، ص ٣٢٣.

مكة المكرمة، وهذا يؤهِّلهم للتَّعايش مع كل الأنظمة التي لها مصلحة في استخدام هذه الطرق. هذا إلى أن هذه القوات الأجنبية التي كانت ستأتي بناءً على طلبهم، يفترض أنها لن تشكل خطرًا عليهم، بل على العكس، كان يُتوقَّع أن تعمل على زيادة نفوذهم باعتبارهم من السابقين إلى دعوتها، والتعاون معها. وهذا ما حدث بالفعل مع حكام المخلاف، فإن بني أيوب، عندما قدموا إلى اليمن، لم يقضوا على نفوذ بني سليمان - كما يعتقد بعض الباحثين - بل على العكس من ذلك، فإنهم أبقوا على ما كان لهم من نفوذ، وعملوا، في بعض الأحيان، على تقويته وتدعيمه، كما سيأتي.

وهكذا يبدو واضحًا افتقار نظرية أولئك الذين يقلِّلون أو ينفون أن تكون قضية بني سليمان مع عبدالنبي، هي إحدى أسباب حملة تورانشاه على اليمن - إلى السند التاريخي. فقد وجد لهذه الدعوة، من قِبَل الشريف قاسم، جذور في بعض المصادر الأيوبية مثل أبي شامة، وهو أقدم من ابن حاتم بحوالي قرن من الزمان، حيث يقول: «ووافق ذلك أنه كاتبه رجل من أهل اليمن، شريف يقال له هاشم (قاسم) بن غانم، وأطمعه في المعاونة، لأن صاحب اليمن، عبدالنبي كان قد تعدى على هذا الشريف»[(١)]. وهكذا يلاحظ أن أيّ نقاش لأسباب حملة تورانشاه على اليمن، ينبغي ألا يغفل ما كان يجري على الساحة اليمنية، وأن أحداث ذلك القطر ينبغي أن تأتي على رأس أسباب هذه الحملة ودوافعها، بما في ذلك طلب الشريف قاسم للنَّجدة، بالإضافة إلى الأوضاع المحلية والخارجية التي ترتَّبت على أفعال أمراء بني مهدي، وما كان يصدر عنهم من أقوال[(٢)]. ويؤيد هذا الرأي ما جاء في رسالة صلاح الدين إلى

---

(١) الروضتين، جـ ١، ص ٢١٧.

(٢) تذكر بعض المصادر أن أفعال بني مهدي التي قاموا بها في اليمن، وصلت إلى علم السلطان صلاح الدين، كما اتصل به أيضًا: أن عبدالنبي يزعم أن دولته تطبق الأرض، وأن ملكه يسير مسير الشمس، أنظر: ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ٧٤ - ٧٥؛ الديبع، بغية المستفيد، ص ٦٩؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ٥٤؛
Smith, *The Ayyubids and Early Rasulids*, P.32.

الخليفة العباسي، فقد جاء في تلك الرسالة: «وكان باليمن ما عُلِمَ من أمر ابن مهدي، الضَّال الملحد، المبتدع، المتمرِّد، وله آثار في الإسلام، طالبه النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه سبى الشرائف الصالحات، وباعهن بالثمن البخس، واستباح منهن كل ما لا يقر لمسلم عليه نفس... فأنهضنا عليه أخانا بعسكرنا - بعد أن تكلّفنا له نفقات رائعة، فأخذناه ولله الحمد»[١]. فمن المحتمل أن الشرائف المشار إليهن في هذا الخطاب هن نساء الأمير السليماني اللائي سبقت الإشارة إلى سبيهن من قِبَلِ عبدالنبي بن مهدي.

ومهما كانت أسباب تلك الحملة، فإن صلاح الدين الأيوبي جهز أخاه تورانشاه على رأس حملة كبيرة إلى اليمن، وزوده بالعدد الجمّ، والمال الوفير[٢]. ثم غادرت الحملة مصر عن طريق البر والبحر في مستهلّ رجب سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م[٣]. وبعد توقف قصير في مكة لأداء العمرة، توجه تورانشاه، سالكًا طريق السّهل السّاحلي عبر تهامة حتى وصل إلى مدينة حرض، مقر بني سليمان[٤]. وقد استقبله الأشراف السليمانيون، وعلى رأسهم الأمير قاسم بن غانم، بالترحيب والإكرام، وشكوا عليه تعدِّيات ابن مهدي، وطلب أميرهم من تورانشاه أن يكون أول دخوله اليمن نجدة لهم ضد ابن مهدي[٥]. فاستجاب له تورانشاه، وانطلقا معًا من حرض في سلخ شهر

(١) أنظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤٨٦ - ٤٩٣؛ أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٢٤١ - ٤٤؛ محمد عبدالعال أحمد، الأيوبيون في اليمن، ص ٧٧ - ٧٨.

(٢) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٢١٧؛ ابن حاتم، السمط، ص ١٦؛ محمد عبدالعال أحمد، الأيوبيون في اليمن، ص ٨١.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٣٨؛ الخزرجي، العسجد، ص ١٤٨.

(٤) العسيري، الحياة السياسية، ص ١٤٧؛
Smith, *The Ayyubids and Early Rasulids*, P.51.

(٥) يذكر الخزرجي أن الشريف قاسم استقبل القائد الأيوبي في أبي تراب بوادي بيش، أنظر: العسجد، ص ١٤١.

رمضان من السنة المذكورة[1]. فوصلا زبيد يوم السبت السابع من شهر شوال، وسقطت المدينة في أيدي الأيوبيين والأشراف بعد يومين من وصولهم، أي في يوم الاثنين التاسع من شهر شوال سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م[2]. وبعد أن حققت هذه الحملة أول أهدافها، وهو الاستيلاء على زبيد، والقضاء على عبدالنبي، انطلقت يد الملك المعظم تورانشاه في الاستيلاء على البلاد اليمانية[3]. أما الأمير قاسم بن غانم، فقد كافأه تورانشاه، على تعاونه معه، بأن أقرَّه على حكم المخلاف السليماني، وأشرك معه في الحكم ابن أخيه، ويدعى منصورًا، وقسم المخلاف بينهما، بحيث أصبح ما بيد منصور يمتد من وادي عَيْن جنوبًا إلى الساعد شمالاً، وما يلي ذلك إلى الشمال حتى نهاية المخلاف بيد عمه الشريف قاسم[4]. ثم غادر الأشراف مدينة زبيد عائدين إلى بلادهم في الثالث عشر من شوال من السنة نفسها[5]. والظاهر أن العهد لم يطل بالشريف قاسم بعد عودته، إذ تشير المصادر إلى أنه توفي بعد شهر واحد فقط من تاريخ عودته[6]. ومما ترويه هذه المصادر عنه أنه قال: «من عاش بعد عدوِّه يومًا فقد نال المنى»، فعاش بعد ذلك شهرًا ومات»[7]. وبهذا تكون وفاة

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ص ٢٤١؛ ابن حاتم، السمط، ص ١٦.

(٢) ابن حاتم، السمط، ص ١٦.

(٣) أنظر: الخزرجي، العسجد، ص ١٤١ وما بعدها؛ الديبع، قرة العيون، جـ ١، ص ٣٧٦ وما بعدها؛ بامخرمة، تاريخ ثغر عدن، ص ٣٧؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ٥٤ وما بعدها.

(٤) العامري، غربال الزمان، ص ٤٤٩؛ محمد عبدالعال أحمد، الأيوبيون في اليمن، ص ٨٦.

(٥) الخزرجي، العسجد، ص ١٤١؛ ابن الأهدل، علماء اليمن، مخطوط، ورقة ٢٨٥ ب.

(٦) الخزرجي، العسجد، ص ١٤١؛ الديبع، قرة العيون، جـ ١، ص ٣٧٣.

(٧) الخزرجي، العسجد، ص ١٤١؛ محمد أمين صالح، «بنو مهدي»، ص ١٤٧، هـ رقم (٥٥).

الأمير قاسم في حوالي الثالث عشر من شهر ذي القعدة سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤م.

يضاف إلى ذلك، أن الأمير قاسم لم يتوف حتى نال أمنية أخرى، وهي الثأر من القبائل التي ساعدت بني مهدي في مهاجمة بني سليمان، ونهب أموالهم، وسبي نسائهم، وذراريهم، فقد ذكر أن الأمير السليماني جمع رجاله، وأغار على وادي العين والمهجم، ونهب الأموال، وسبى الذراري[١]. أما ابن أخيه منصور، فإننا لا نعرف، على وجه التحقيق، من هو أبوه؟ ومن المؤكد أنه ليس ابنًا لوهّاس، قتيل عبدالنبي، لأن وهّاس قتل، ولم يخلف ولدًا على ما يذكر الملك الأشرف[٢]. فهل هو منصور بن أحمد الذي أوفده الأمير قاسم إلى الخليفة العباسي؟ والإجابة بالطبع غير معروفة، لأن المصادر الميسورة لم تذكر للشريف غانم من الأبناء غير وهّاس، وقاسم[٣]، فإذا كان من بين أبناء والدهما، الشريف غانم، رجل يدعى أحمد، فمن المحتمل أن منصورًا هذا هو ابنه، وقد كوفئ بإشراكه مع عمه قاسم للخدمات التي قدمها للأشراف والأيوبيين على حد سواء.

غير أن منصورًا هذا - سواء كان منصور بن أحمد، أو منصورًا آخر - ليس له ذكر في الحوادث التي تلت تاريخ تعيينه شريكًا لعمه قاسم في حكم بعض أجزاء المخلاف. فإذا صحت الرواية التي تذكر مبدأ شراكته لعمه، فربما يكون شريكًا في المدخول فقط، وليس شريكًا في السلطة[٤]، لأن الذي

---

(١) النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ١٢٠؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ ١، ص ٢١١.

(٢) الملك الأشرف، طرفة الأصحاب، ص ١٠٨.

(٣) أنظر جميع المصادر السابقة التي تعرضت لمقتل الشريف وهاس، ومطالبة أخيه قاسم بثأره. ومن جهة أخرى، لم يذكر ابن عنبة أبناء الشريف قاسم. أنظر: عمدة الطالب، ص ١٠١.

(٤) هذا النظام من المشاركة - سواء في السلطة، أو في المدخول - عرف بين بني عمومتهم، وجيرانهم من الشمال، أشراف مكة المكرمة، ولمزيد من المعلومات =

تولى مقاليد الحكم في المخلاف السليماني، بعد وفاة الشريف قاسم بن غانم، ولده المرتضى[(١)]. ويقال: إن علاقات المرتضى مع الأيوبيين لم تكن على ما يرام، بل كانت تسودها الوحشة والجفاء، حتى إنه دخل معهم في مناوشات حربية أدت إلى مقتله على أيديهم في سنة ٦١٠ هـ/ ١٢١٣ - ٤ م[(٢)]. وهذه الرواية التي انفرد بها العقيلي، لا يوجد لها أساس في المصادر اليمنية التي تناولت تاريخ الأيوبيين في اليمن، على الأقل تلك المصادر التي وصلت إلى يدي، هذا إلى أن بطلها المرتضى لم يكن مشهورًا في هذه المصادر، ولم يشتهر أيضًا، أو يلقب بالإمارة عند ابن عنبة[(٣)]، الأمر الذي يلقي ظلالاً من الشك على زعامته للمخلاف السليماني بعد وفاة والده، وربما آلت تلك الزّعامة إلى المؤيّد بدلاً من أخيه المرتضى. يضاف إلى ذلك أن تحديد تاريخ وفاة المرتضى بسنة ٦١٠ هـ، وقيام أخيه المؤيد مقامه بعد ذلك، لا يتفق مع الإشارات العارضة في المصادر اليمنية، تلك الإشارات التي يستشفّ منها أن أمير المخلاف في حوالي سنة ٥٩٥ هـ/ ١٢٩٨ - ٦ م هو المؤيد بن قاسم، وليس أخاه المرتضى[(٤)]. فإذا كان المرتضى تولى الإمارة فعلاً، فمن المحتمل أن وفاته كانت قبل سنة ٥٩٥ هـ/ ١٢٩٨ - ٦ م، لأن زعيم المخلاف في هذا التاريخ، هو أخوه المؤيد بن قاسم، بشهادة المؤرخ اليمني يحيى بن الحسين الذي ينصّ على ذلك صراحة أثناء وفادة المؤيد على الإمام عبدالله بن حمزة

= عن هذا النظام، أنظر: أحمد الزيلعي، «نظام المشاركة في الحكم لدى أشراف مكة»، مجلة الدارة، العدد ٣، ص ٦١ - ٨٨.

(١) العامري، غربال الزمان، ص ٤٤٩؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢١١.

(٢) العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢١١؛ العامري، غربال الزمان، ص ٤٤٩، يذكر مقتل المرتضى على يد الأيوبيين، ولكنه لم يذكر أنه تولى إمارة المخلاف بعد والده قاسم.

(٣) عمدة الطالب، ص ١٠٢.

(٤) أنظر: ابن حاتم، السمط، ص ٦٧.

(ت ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م)[١]، كما سيأتي.

أما سوء العلاقة مع الأيوبيين، فإن الأدلّة التاريخية تشير إلى وجود ذلك، فقد ذكر أن المعزّ بن طغتكين (ت ٥٩٨ هـ/ ١٢٠٢ م) سار في سنة ٥٩٦ هـ/ ١٢٠٠ م «إلى صَبْيَا، فتفرق أهلها قبل أن يصل إليهم، فراسلهم وأمنهم. فلما رجعوا ضرب أعناق الرجال، وأباح النساء لعسكره، بعد أن أخذ منهم لنفسه من أراد، وكذلك قتل من أهل الضَّحِي وما إليه، خلق كثير ﴿كذا﴾»[٢]. ورغم فظاعة هذه الحادثة، فإنها ليست مستبعدة من الحاكم الأيوبي المعزّ بن طغتكين الذي عرف عنه أنه متقلِّب المزاج، كثير سفك الدِّماء، وغير مستقرّ في مبادئه[٣]. ولم يكتف المعزّ بهذا القدر من العداء لأهل المخلاف، بل عمد في سنة ٥٩٨ هـ/ ١٢٠٢ م إلى سلخ حرض من الشريف المؤيّد، وأقطعها للأمير هَلَنْدَرى أو هَلْدَرى الذي كتب إلى المؤيّد بن قاسم شارحًا له علاقاته بكل من الإمام والخليفة، أي المعزّ بن طغتكين الذي عاجلته المنية في رجب من السنة نفسها[٤].

(١) ابن الحسين، غاية الأماني، ج ١، ص ٣٧٧.
(٢) ابن الحسين، غاية الأماني، ج ١، ص ٣٥٣ - ٣٥٤.
(٣) الديبع، قرة العيون، ج ١، ص ٤٠٣.
(٤) ابن حاتم، السمط، ص ٧٨ - ٧٩؛ ابن الحسين، غاية الأماني، ج ١، ص ٣٥٦.

علاقات المؤيّد بكل من الأيوبيين والإمام الزَّيدي

لقد أدت وفاة المعزّ بن طغتكين العاجلة إلى تمكين الأمير المؤيّد من استرداد جميع الأراضي التي أخذها منه المعزّ، ووصلت حدود بلاده إلى مناطق كانت خاضعة لسيطرة الإمام عبدالله بن حمزة(١). كما أن سوء العلاقة بين المؤيّد بن قاسم والأيوبيين في عهد الملك المعزّ بن طغتكين، مهدت السبيل أمام الأول لبناء علاقة جيدة مع الإمام عبدالله بن حمزة، تُوِّجت في سنة ٥٩٩ هـ/ ١٢٠٢ - ٣ م، بأن استغلّ المؤيّد وجود الإمام في حُوْث، فوفد عليه في تسعين راكبًا. فلما علم الإمام بمقدمه، خرج إلى الخُمُوْس لاستقبال الأمير السليماني ورجاله(٢). وقبل شفاعته في إطلاق سراح ولد قاسم بن مطرف الأهْنُومِي، عامل الإمام على الخموس، وإسقاط ما بقي عليه من أموال. ثم عاد الإمام إلى صعدة، وبصحبته الأمير المؤيد بن قاسم(٣). ويبدو أن سلوك السليمانيين مع الإمام ورعاياه كان سيئًا - فيما سبق -، لأن خطوة الإمام الرامية إلى إقامة علاقات طبيعية مع الأمير السليماني، لقيت معارضة شديدة من بعض رجال الإمام الذين اختلفوا في هذا الأمر اختلافًا بيّنًا، حيث يشير المؤرِّخ الزَّيدي يحيى بن الحسين إلى وقوع خلاف بين علماء الحضرة الإماميَّة؛ فمنهم من رأى رَأْي الإمام حول رغبته في التَّعاون مع أمير جازان، وإقامة علاقات طبيعيَّة معه، ومنهم من رأى خلاف ذلك، وأبدى تحفُّظًا على

(١) ابن الحسين، غاية الأماني، ج ١، ص ٣٧٧.

(٢) ابن الحسين، غاية الأماني، ج ١، ص ٣٧٧.

(٣) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

العلاقات الجديدة مع الأمير السُّليماني. وكان من أشدّ المعارضين للإمام، الشَّيخ محي الدِّين النَّجراني، وجماعة من أصحابه الذين رأوا في التَّقارب مع الشَّريف المؤيّد زيادة في رسوم الجور التي جرى عليها الأمراء السُّليمانيِّين. ولكن الإمام أصرَّ على موقفه لمصلحة رآها خاصَّة بعد أن ظهر له صدق الشَّريف المؤيّد، ورجوعه عمَّا سلف من ممارسات كان ينظر إليها من قبل المعارضين على أنَّها خاطئة. فوقع الإجماع على رأي الإمام الذي أكرم وفادة الأمير السُّليماني، وبعث معه ممثلاً من قبله، «وأعطاه الإمام أربعًا من جياد الخيل، وخلع عليه وعلى أصحابه خلعًا نفيسة، وعزم من حضرته شاكرًا. وخرج الحجاج من صعدة صحبته، فسار بهم أحسن سير، وأقام في حرض، وأزال عن الناس المظالم والمكوس، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر»[1].

ويبدو أن هذه العلاقة بين الإمام عبدالله بن حمزة، والأمير السليماني، كانت إجراءً وقتيًّا اقتضاه ما شاب علاقة الأخير مع الأيوبيين من الفتور، بسبب سوء تصرف الملك المعزّ بن طغتكين مع السليمانيين، وعدم اتضاح الصورة عن الوالي الأيوبي الذي كان سيخلفه، بدليل أن هذه العلاقة لم تدم طويلاً نتيجة لما طرأ على الساحة اليمنية من أحداث وتغيُّرات. ومن دلائل هذه التغيرات، أن الأتابك سنقر الذي خلف المعز في رعاية المصالح الأيوبية في اليمن، لم يكن على شاكلة سابقه من سوء السيرة، وكان قائدًا محنَّكًا تمكن من طي اليمن تحت قدميه حتى وصل إلى صعدة، مقر الإمام الزيدي، واحتلها في شعبان سنة ٦٠١ هـ/ ١٢٠٥ م[2]. وفي طريق عودته إلى زبيد استقبله المؤيَّد بن قاسم في حرض، وفاز منه بإقراره على ما تحت يده، والاعتراف به أميرًا على حرض والمخلاف[3]. وبذلك وجد السليمانيون أن من مصلحتهم تأييد الأيوبيين بدلاً من الإمام الذي خسر معظم مملكته بما في ذلك عاصمته صعدة.

---

(١) ابن الحسين، غاية الأماني، ج ١، ص ٣٧٩.

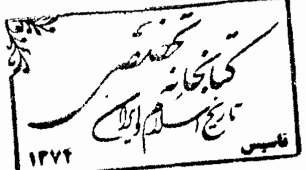
(٢) ابن حاتم، السمط، ص ١٢٠.

(٣) ابن حاتم، السمط، ص ١٢٠ - ١٢٣؛ محمد عبدالعال أحمد، الأيوبيون في اليمن، ص ٢٠٣.

ويبدو أن المؤيّد لم يكن صادقًا في تأييده للأيوبيين. وأن بني سليمان خالفوا القائد الأيوبي سنقر بعد اعترافه بزعيمهم المؤيّد بن قاسم، وعدم تعرضه لبلادهم، والنيل من استقلالهم، مما استوجب نتيجة لمخالفتهم تلك، خروج سنقر إلى ديارهم في مطلع سنة ٦٠٣ هـ/ ١٢٠٦ م، ودخل حرض والراحة، وواصل سيره منجدًا نحو البلاد الداخلية، ثم عاد بعد انتهاء مهمته إلى زبيد[1]. ولا تعرف، حتى الآن، أسباب خروج الأتابك سنقر إلى ديار بني سليمان، وما وراءها، وهل كان المقصود بهذه الحملة بني سليمان أنفسهم، أم أنه مرّ ببلادهم إلى نجد اليمن لمتابعة فلول الإمام الزَّيدي؟ وإذا كانوا هم المقصودين، فهل كان ذلك بسبب موقفهم من الإمام، أم بسبب ممارستهم في التعرض للحجاج والتجار اليمنيين، وهم في طريقهم إلى مكة؟ وإذا كانت المصادر لم تفصح عن أسباب هذه الحملة، فمن المحتمل أن ما حدث في السنة التالية كان نتيجة لها. ذلك أن الإمام عبدالله بن حمزة وضع خطَّة في سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٨ م لمهاجمة تهامة، بقصد الضغط على القوات الأيوبية للانسحاب من صعدة، واستعان في تنفيذ خطته هذه بالأمير السليماني المؤيّد بن قاسم الذي لا نستبعد أن استجابته للإمام كانت رد فعل لانتهاك سنقر لأراضيه في العام السابق. وقد استهدفت هذه الحملة التي قادها أخو الإمام، يحيى بن حمزة، مدينة المهجم التهامية، حيث دخلتها القوات الإمامية على حين غرَّة من أهلها، وأشعلوا النيران في مساكنها، وقتلوا جماعة من الحامية الأيوبية المرابطة بالمدينة[2]. غير أن القوات الأيوبية ما لبثت أن جمعت شتاتها، واستطاعت بمساندة من أهل سردد، أن تتصدّى للقوات الإمامية. وتصادف أن وقع المؤيد في أسر جماعة من عرب سردد بعد أن جرح وسقط من فوق فرسه، فأخذه هؤلاء، دون أن يعرفوه، ليسلموه إلى بكتمر السيفي، ولما لم يجدوا بكتمر سلموه إلى زوجته، فبالغت في إكرامه. حتى إذا عاد بكتمر

(١) ابن حاتم، السمط، ص ١٢٣.

(٢) ابن حاتم، السمط، ص ١٤٠ - ١٤١؛ محمد عبدالفتاح أحمد، الأيوبيون في اليمن، ص ٢١٥.



من غيبته، أخذ المؤيد إلى الأتابك سنقر، وهو مقيم في حصن تعز[١]. وقد كان سنقر بعيد النظر، فلم يعامل المؤيد معاملة عدوّ، بل عمل على المبالغة في إكرامه والإحسان إليه، ومعالجته وتعظيم شأنه، بهدف استمالته، وكسبه حليفًا، والتعاون معه مستقبلاً[٢]. وقبل عودة المؤيد إلى إمارته ناقش معه سنقر مشكلة الأشراف، ورأى أن ذلك لا يكون إلا باتحاد كلمة الأشراف في كل من المخلاف، ومكة المكرمة، وتقويتهم لمحاربة الإمام، ومعارضته، وعدم مواصلته. وعَقَد الأيوبيون اتفاقًا بين المؤيد وأمير آخر يدعى منصور بن داود، وطلبوا منه أن يقبل به أميرًا على حرض، على أن يكون تحت إمرة المؤيد الذي اعترفوا به أميرًا على بلاده جميعها وندبوا معه خمسين فارسًا محمولي المؤونة سنة كاملة، وأحَلَّ أولاده بزبيد رهينة واستمر على ذلك[٣].

غير أننا لا نعرف المدة التي استمر فيها المؤيد حاكمًا للمخلاف في ظل اتفاقه هذا مع الأيوبيين، والظاهر أن هذه الاتفاقية استمرت قائمة طوال عهد الأتابك سنقر، حتى إذا توفي الأخير في ربيع الآخر سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م[٤]، أقدم الملك الناصر أيوب بن طغتكين على فصل حرض والهلية من الشريف المؤيد بن قاسم، وأقطعهما، بدلاً منه، للأمير بدر الدين بن علي بن رسول[٥]. ولم تفصح المصادر المتاحة عن رد فعل الشريف المؤيد على هذا

---

(١) ابن حاتم، السمط، ص ١٤٢؛ العامري، غربال الزمان، ص ٤٤٩.

(٢) محمد عبدالعال أحمد، الأيوبيون في اليمن، ص ٢١٦.

(٣) ابن حاتم، السمط، ص ١٤٢. يذكر العقيلي أن علي بن محمد بن ذروة السليماني - جد بني ذروة، الأسرة السليمانية المعروفة في المخلاف - تولى الإمارة أثناء أسر المؤيد، ولما أطلق المؤيد قسّم الأيوبيون إمارة المخلاف بينه، وبين ابن عمه علي بن محمد بن ذروة بحيث كان نصيب علي من خُلَب وشمالاً إلى نهاية المخلاف، ونصيب المؤيد من خلب وجنوبيّه إلى وادي عين. أنظر: المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢١٢.

(٤) الخزرجي، العسجد، مخطوط، ص ٢٠٩.

(٥) ابن حاتم، السمط، ص ١٤٨.

الإجراء الذي اتخذه الملك الناصر، بإقطاع جزء من الأراضي التي كانت تحت سيطرته، لشخص آخر، ولم تفصح كذلك عن نوع هذا الإقطاع، وهل كان يقضي بمباشرة الأمير بدر الدين لولاية حرض والهلية، أم أنه إقطاع اسمي دون المباشرة الفعلية للولاية، والاكتفاء فقط بالحصول على إيرادات هذين الموقعين.

والظاهر أنه كان إقطاعًا للأمير الرسولي مع مباشرته للولاية، بدليل ما يذكره ابن حاتم نقلاً عن رواية رواها له بدر الديم نفسه قائلاً: «قال لي الأمير بدر الدين، لما جرى على الناصر ما جرى، وقتل غازي بن جبريل، وخلت البلاد من الملوك، وبقي الغزّ بغير زمام لهم، كنت يومئذ أمير حرض والهلية، ومعي صنوي نور الدين. . . فبقينا ننتظر ما يكون من الأمر، فجاءني من أعلمني أنه قد دخل حرض رجل، في زي الفقراء، ينتسب إلى بني أيوب، فأمرت بإحضاره، وقلت: نسأله ونبحثه عن نسبه، فإن كان كما زعم، فهو يكون السلطان. فحضر إليَّ، وسألته، فانتسب، فعرفته، فقمت حينئذ، واستعددت أنا وصنوي نور الدين، وأقمناه، ولقبناه بالمعظم، ونشرنا له الدعوة من وقته وسرنا في خدمته[١]».

وهكذا، يتضح أن نور الدين باشر ولاية حرض والهلية، وأنه استمر على ذلك حتى سنة ٦١١ هـ/ ١٢١٤ م، عندما توفي الملك الناصر في المحرم من هذه السنة، وقدم الملك المعظم سليمان بن تقي الدين إلى اليمن[٢]. أما ردّ فعل الأمير المؤيّد بن قاسم، فمن المحتمل أنه لم يتمّ إلا بعد مباشرة الوالي الأيوبي الجديد، لزمام الأمور في اليمن. فقد ذكر أن الأمير السليماني، بدعم من قوات الإمام، ومن التفّ حوله من القبائل - شنَّ غارة على مدينة المَحَالِب بوادي مور في ربيع من السنة نفسها[٣]. ورغم أن هذه الحادثة لم تتضمن

(١) السمط، ص ١٥٨.

(٢) أنظر الديبع، قرة العيون، جـ ١، ص ٤٠٩، هامش ٥، ص ٤١٠.

(٣) ابن حاتم، السمط، ص ١٦٢.

استعادة المؤيد لحرض والهلية، فإن الأدلة التاريخية تشير إلى خروجها من يد الأمير بدر الدين، ووقوعها، بدلاً من ذلك، في يد الشريف المؤيّد، بدليل أن الأمير بدر الدين أعطيت له مدينة صنعاء إقطاعًا من قبل الملك المعظم سليمان، وأن الأمير المؤيّد كان في الهلية بعد حادثة المحالب، وأنه عقد فيها اجتماعًا مع جيوش الإمام، ووضعوا معًا خطة لغزو مدينة المهجم بوادي سُرْدُدْ، وتمَّ لهم ذلك في شوال سنة ٦١١ هـ/ ١٢١٥ م[١].

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الحادثة ربما كانت آخر الحوادث المتصلة بالأمير السليماني/ المؤيد بن قاسم من جهة، والملك المعظم سليمان بن تقي الدين من جهة أخرى، إذ لم يلبث الملك المسعود بن الملك الكامل أن قدم إلى اليمن في أواخر هذه السنة، وتسلم الحكم في زبيد في مستهل المحرم سنة ٦١٢ هـ/ ١٢١٥ م[٢]. وكان الملك المسعود، قبل وصوله إلى زبيد، قد مرَّ بديار بني سليمان، حيث استقبله الأمير المؤيّد ابن قاسم في راحة بني شريف، فأحسن إليه المسعود، وخلع عليه، وقابله بالإكرام والجود[٣]. ويغلب على الظن أن سيطرة المؤيد بن قاسم على حرض والهلية استمرت طوال السنوات الثلاث التي أعقبت مجيء الملك المسعود إلى اليمن، لأن هذين الموقعين كانا تحت سيطرة الملك المؤيد حتى سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م[٤]. ومن المحتمل أيضًا أن العلاقة بين الزعيمين الأيوبي والسليماني كانت جيدة، لأن المصادر المتاحة لم تذكر أي خلاف، أو احتكاك يشوب هذه العلاقة التي يعتقد أنها توثّقت منذ لقاء الزعيمين السابق في راحة بني شريف. إلا أن سنة ٦١٦ هـ/ ١٢١٩ - ٢٠ م، شهدت أحداثًا كانت بداية النهاية في تردِّي العلاقة بين الملك المسعود والشريف المؤيد، وربما عجلت بالتالي إلى وضع حدّ لسلطان بني سليمان، أو اهتزازه، على الأقل، في الفترة التي يغطيها هذا الفصل وتتلخص

---

(١) ابن حاتم، السمط، ص ١٦١ - ١٦٢، ١٦٤.

(٢) الديبع، قرة العيون، جـ ١، ص ٤١٢.

(٣) ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٤٠٣.

(٤) ابن حاتم، السمط، ص ١٧٤.

هذه الأحداث في أن الملك المسعود، سمع عن حصان، يدعى الحَوْمَاني، للشريف المؤيد بن قاسم، فكتب إليه يطلبه منه، فاعتذر المؤيد عن تلبية طلب المسعود، وأرسل له، عوضًا عن الحصان، فهدًا وحصانين. فغضب الملك المسعود، ولم ير خيرًا من مقابلة المؤيد على صنيعه، إلا أن ينتزع منه حرض والهليّة، فأقطع الأولى لأمير يسمى الخوارزمي، والثانية لأمير آخر يدعى المجاهد النظامي، وكانت حرض والهلية، قبل هذا الإجراء، خاضعة للشريف المؤيّد بن قاسم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك؛ فجرت حروب طويلة بين القائدين الأيوبيين، وبين الأمير السليماني، أسفرت عن تغلب الأخير على الخوارزمي ورفيقه، وقتلهما[١].

غير أن مصير المؤيد، ونفوذ أسرته، لم يعرفا بعد هذه الحادثة[٢]. فبعض المراجع الحديثة تذكر أن الخوارزمي هو الذي قتل المؤيد بن قاسم، مع أن العكس هو الصحيح[٣]. ورغم التفصيل الواضح الذي يورده ابن حاتم بشأن هذه الحادثة التي انتهت بقتل الشريف المؤيد للخوارزمي ورفيقه، فإن المصادر المتاحة بما في ذلك السمط الغالي الثمن لابن حاتم، لم تذكر شيئًا عن مصير الملك المؤيد، ونفوذ أسرته - على الأقل - في السنوات التي تلت هذه الحادثة حتى خروج الأيوبيين من اليمن. فابن المجاور - على سبيل المثال - يذكر أن البلاد بقيت بأيديهم إلى سنة ٦١٥ هـ/ ١٢١٨ - ١٩ م، ثم خرجت من أيديهم، وصارت إلى يد الغز[٤]، أي قبل سنة من الحادثة المشار إليها، ويشير العامري إلى تلك المعركة التي وقعت بين الأيوبيين وبني سليمان، والتي قتل فيها الشريف المؤيد على حد قوله، ثم يردف قائلاً:

---

(١) ابن حاتم، السمط، ص ١٧٤.

(٢) ابن حاتم، السمط، ص ١٧٤.

(٣) العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢١٢ - ٢١٣؛ العسيري، الحياة السياسية، ص ١٣٧؛ في غربال الزمان، للعامري، ص ٤٥٠، قُتِل من الغز رجل أو رجلان، ومن الأشراف ثلاثة عشر، أو ستة عشر، يفهم أن المؤيد كان من بينهم.

(٤) المستبصر، ص ٥٧.

«وبعدها استولى المسعود على مخلاف بني سليمان وتردّد مرارًا من اليمن إلى مكة»[1]. ويذكر العقيلي أن المؤيد كان الصريع الأول أثناء قتاله ضد السَّريَّة الأيوبية التي قادها الخوارزمي في سنة ٦١٦ هـ/ ١٢١٩ - ٢٠ م، ثم يعقب بقوله: «وبذلك دخل المخلاف في حكم الأيوبيين المباشر»[2].

ولا يجد المرء بُدًّا من الميل إلى ترجيح رواية ابن حاتم، لقربه من هذه الحادثة، ومعاصرته لبعض الأمراء الذين كانوا في السلطة أثناء حدوثها. غير أن وفاة قاسم، أو مقتله، وضم المخلاف السليماني - إن وجد ذلك الضم - أو، على الأقل، الحدّ من نفوذ أمرائه - ربما حدثا في وقت غير طويل بعد السنة المذكورة؛ لأن جميع الظروف كانت في صالح الملك المسعود، فقد كان في عز شبابه ونشاطه، ويستند إلى دعم أمراء وقواد عظام يأتي في مقدمتهم عمر بن رسول الذي أسس الدولة الرسولية فيما بعد، وأصبح يلقب بالملك المنصور. يضاف إلى ذلك قلة الدعم الذي كان يتلقاه الأمير المؤيد بن قاسم من الأشراف الزَّيديِّين الذين توفي إمامهم القوي، عبدالله بن حمزة في سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م، وحدث بوفاته نزاع على الإمامة بين هؤلاء الأشراف، يمثل أحد أطرافه الإمام يحيى بن المحسن بن محفوظ، من نسل الإمام الهادي إلى الحق، ويمثل الطرف الثاني محمد بن عبدالله بن حمزة، ابن المتوفى[3]. وكان من شأن هذا النزاع ضعف الأشراف وتفككهم، وبالتالي ضعف دعمهم لبني سليمان، كما أن أبناء عمومتهم، أشراف مكة بزعامة الشريف قتادة بن إدريس، كانوا في ذلك الوقت منشغلين عن مساعدة السليمانيين، بحروبهم مع أشراف المدينة، الحسينيين، حيث بدأت تلك الحروب فيما بينهما، في سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، واستمرت حتى وفاة قتادة نفسه في سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م[4]. ومن

---

(١) غربال الزمان، ص ٤٥٠.

(٢) المخلاف السليماني، جـ ١، ص ٢١٣؛ أنظر أيضًا، النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٦١.

(٣) أنظر: ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٤٠٦ - ٤٠٨.

(٤) أنظر: ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية، ص ٤٠ - ٤٢.

المحتمل أن جميع هذه العوامل مع عوامل أخرى، جعلت الملك المسعود لم يجد سببًا واحدًا يثنيه عن توجيه حملة أخرى إلى المخلاف السليماني للثأر لمقتل الخوارزمي ورفيقه، ووضع حد نهائي لنفوذ المؤيد وتعدياته على المناطق الخاضعة لسلطان بني أيوب في اليمن. وربما كانت هذه الحملة في السنة نفسها، أي في أواخر سنة ٦١٦ هـ/ ١٢٢٠ م، وربما هي التي قتل فيها الأمير المؤيد بن قاسم، وتمهدت السبل لبني أيوب في المخلاف السليماني(١). يدل على ذلك أن الملك المسعود وجد الطريق أمامه ممهدًا لزيارة مكة المكرمة برًّا في مطلع السنة التالية ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م(٢)، وأنه قبل عودته إلى اليمن، ولى الشريف راجح بن قتادة، حكم السرين، وحلي، ونصف المخلاف(٣). فإذا قدرنا أن نصف المخلاف يصل إلى عَثَّر، في مصب وادي بَيْش إلى الشمال من صبيا وجازان، فإن المنطقة التي تمتد إلى حرض من جهة اليمن بقي مصيرها معلقًا. ويغلب على الظن، أنها بقيت بأيدي أهلها،

(١) ربما آل الأمر في المخلاف، بعد وفاة المؤيد أو مقتله، إلى ولده يحيى ثم طرد بعد ذلك، أو نفي إلى مكة المكرمة، حيث توفي بها في جمادى الآخرة سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م، ودفن في مقبرة المعلاة. أنظر: الفاسي، العقد الثمين، جـ ٧، ص ٤٥١، وسيأتي الحديث عنه في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

(٢) ابن حاتم، السمط، ص ١٧٥؛ ويذكر ابن الأثير أن الملك المسعود حج إلى مكة في سنة ٦٢٠ هـ. أنظر: الكامل في التاريخ، جـ ٩، ص ٣٥٠. أما ابن عبدالمجيد، والفاسي، فيذكران أن هذه الحجة كانت في سنة ٦١٩ هـ، أنظر: بهجة الزمن، ص ٨٤؛ شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٣٧٥. والظاهر أن المسعود ذهب إلى مكة في سنة ٦١٧ هـ بغرض الحج، والثانية في سنة ٦١٩ هـ، لتأديب حسن بن قتادة الذي قتل أباه، قتادة بن إدريس، وأساء السيرة في مكة المكرمة، والثالثة في سنة ٦٢٠ هـ أثناء سفره إلى مصر، ثم الرابعة في سنة ٦٢٦ هـ، وهي السنة التي مات فيها، كما سيأتي.

(٣) أنظر: الفاسي، العقد الثمين، جـ ٤، ص ٣٧٣؛ المقريزي، السلوك، جـ ١، ص ٢١٣؛ أحمد الزيلعي، حاكم السرين، ص ٢٢.

ويحكمها زعماء محليون من أسرة الأشراف السليمانيين، كما سيأتي، وأن ولاية الشريف راجح على حلي ونصف المخلاف كانت فخرية، لأن الأخير لم يتجاوز منطقة السرين جنوبًا، وحلي كان يحكمها أهلها من بني حرام[١].

ومهما يكن من أمر، فإن السياسة التي تبنَّاها الملك المسعود لم تعمر طويلاً، كما أنه هو نفسه لم يطل به العهد، ولا بالنفوذ الأيوبي في اليمن، إذ ما لبث أن وافته منيته بمكة المكرمة في سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م، وتسلم نائبه باليمن، السلطان عمر بن علي بن رسول، الملقب بالملك المنصور، مقاليد الأمور فيها[٢]، وأعلن استقلاله بها، وحارب الأيوبيين في الحجاز الذي كان لا يزال تحت نفوذ بني أيوب المباشر[٣]، واتخذت الأوضاع السياسية في المنطقة سبيلاً آخر سنعرض له مبسوطًا في الفصل التالي.

يتضح مما تقدَّم أن صلة بني سليمان بالمخلاف بدأت على هيئة استيطان، وبمرور الوقت، واكتساب الأنصار والمؤيدين، تمكنوا من تكوين دولة مستقلة بشؤونها الداخلية والخارجية، كانت تربطها ببني زياد، ثم ببني نجاح في زبيد، بعض الروابط الأدبية التي أملتها عوامل القرب الجغرافي، والمذهب الديني الذي كان عليه معظم أهالي تلك المنطقة. بالإضافة إلى أن بني نجاح كانوا يعتبرون أنفسهم ممثلين شرعيين للخلافة العباسية، ويحكمون تهامة نيابة عن الخلفاء العباسيين[٤]. وقد ترتب على تلك الروابط مع بني نجاح، قيام بني سليمان بتقديم النجدات العسكرية لحكام زبيد متى ما احتاجوا

---

(١) أنظر: أحمد الزيلعي، «بنو حرام»، ص ١٠٨.

(٢) خرج الملك المسعود من اليمن متوجهًا إلى بلاده في شهر ربيع الأول سنة ٦٢٦ هـ بعد أن أناب عنه في حكم اليمن، نور الدين عمر بن رسول، ولكن المنية وافته في مكة في يوم الاثنين الثالث عشر أو الرابع عشر من شهر جمادي الأولى من السنة نفسها. أنظر: ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ٨٥؛ الخزرجي، العسجد، ص ٢٢٢؛ ابن الأهدل، علماء اليمن، ورقة ٢٨٤ أ.

(٣) أنظر: أحمد الزيلعي، «حاكم السرين»، ص ٢٥.

(٤) أنظر: عمارة، المفيد، ص ٧٧.

إلى ذلك، والدخول معهم في أحلاف ضد أعدائهم، وكذلك دفع إتاوة سنوية غير مستقرة مقابل الاعتراف باستقلالهم وولائهم للخلافة العباسية، وكان بنو نجاح يقبضونها نيابة عن خلفاء بني العباس. ويغلب على الظن أن دفع هذه الإتاوة استمر طوال معظم فترات حكم بني نجاح المتقطع إلى أن أسقطها الشريف غانم بعد معركة المهجم سالفة الذكر، وامتنع ورثته عن دفعها لسلطات زبيد حتى أن هناك من يعتقد أن من بين أسباب غزو عبدالنبي بن مهدي للمنطقة التي كانت تحت نفوذ بني سليمان، هو امتناع الأخيرين، في عهد وهّاس بن غانم، عن دفع الإتاوة التي كان يدفعها أجداده لبني نجاح[1]. ولعل عدم دفعهم إيَّاها لعبد النبي، أن الأخير لا يدين بولائه للخلافة العباسية، على عكس بني نجاح الذين كانوا - كما سبقت الإشارة - يقبضونها نيابة عن خلفاء بني العباس الذين تدين المنطقة لهم بالولاء والطاعة.

وقد أدت هذه الروابط مع حكومة زبيد إلى فشل بني سليمان في إقامة علاقات متوازنة مع الصليحيين، أتباع الفاطميين في مصر، وكذلك مع الأئمة الزيديين، أو على الأقل، إلى وقوفهم على الحياد، وعدم الدخول معهم في عداوات مكشوفة. كما أن تمسك السليمانيين بتأييد الشرعية في زبيد، وإقامة علاقات جيدة معها، جعلت الشريف غانم يفشل أيضًا في الوقوف على الحياد أثناء نزاع القائد سرور والوزير مفلح، بل إنه دخل معركة المهجم مناصرًا للأخير ضد القائد سرور الذي خرج من هذه المعركة منتصرًا، وأصبح لزامًا على الشريف السليماني أن يسعى إلى توثيق علاقاته مع القائد المنتصر الذي غدا بدوره ممثلاً للشرعية في زبيد.

وعندما سقطت الدولة النجاحية على يد علي بن مهدي، حافظ بنو سليمان على استقلالهم بمنطقتهم برهة من الزمن، ولكنهم فشلوا في إقامة علاقات جيدة مع الدولة الجديدة كتلك التي كانت قائمة مع الزعماء الذين سيطروا قبلهم على تهامة اليمن، ولم يستطيعوا، من ناحية أخرى، الوقوف

(١) محمد أمين صالح، «بنو مهدي في زبيد»، ص ١٣٧.

بمفردهم، وتبعًا لإمكانياتهم المحدودة، في مواجهة زحف بني مهدي إلى الشمال، بعد أن قتلوا زعيمهم وهّاس بن غانم، وأصبحوا خطرًا يهدد وجودهم في المخلاف. وقد كانت لأحداث المخلاف، ومقتل وهّاس بن غانم، آثار بعيدة المدى في تاريخ اليمن والمخلاف السليماني على حد سواء، ذلك أنها عجلت بسقوط دولة بني مهدي على يد الأيوبيين الذين كانت نجدتهم لبني سليمان ضدّ خصومهم بني مهدي، من بين الأسباب التي حملتهم على دخول اليمن، ومن ثم قيامهم بإرساء قواعد لعلاقات جيدة فيما بينهم وبين الأشراف السليمانيين استمرت طوال عهد ولاة بني أيوب الأوَل.

غير أن عدم استقرار هؤلاء الولاة في اليمن، وتقلب أمزجة بعضهم، مهد السبيل أمام الزعيم السليماني، المؤيد بن قاسم، إلى التلويح بإقامة علاقات جيدة مع الإمام الزيدي القوي، عبدالله بن حمزة. ولكن حنكة الزعيم الأيوبي سنقر، وحسن تدبيره وقوته، حالت دون قيام هذه العلاقة التي لم تتحقق بشكل واضح إلا في عهد الزعيم الأيوبي الناصر أيوب بن طغتكين. فقد كان لسوء سيرته مع السليمانيين، وحتى مع القادة الأيوبيين، الأثر الأكبر في مراهنة المؤيد بن قاسم على الخيار الزيدي، عندما سنحت لزعيم بني سليمان فرصة إقامة علاقة متينة مع الإمام عبدالله بن حمزة، وشكل معه، ومع بعض زعماء الغز حلفًا قويًّا ضد الوجود الأيوبي في اليمن، ذلك الوجود الذي يمثله الملك أيوب بن طغتكين. ولكن هذه العلاقة لم تدم طويلاً، إذ إن مجيء الملك المسعود إلى اليمن، أجهض تلك التحالفات، وأدى إلى تحول توجه المؤيد بن قاسم إلى الزعيم الأيوبي الجديد، حيث قامت بينهما علاقة حسنة دامت ثلاث سنوات إلى أن تدهورت لأسباب شخصية بحتة. ومن المحتمل أنها استمرت في التدهور حتى وفاة المؤيد بن قاسم، أو قتله، وبعد ذلك بمدة وجيزة، سقطت دولة بني أيوب في اليمن، وقامت دولة بني رسول بها، ودخلت أوضاع منطقة جازان السياسية، وعلاقاتها الخارجية في طور جديد.

الفصل الثاني

أُسْرة الغوانم

الغوانم، وبنو رسول، والشرعية العباسية

أُسر الأشراف السليمانيين، وزعامة الغوانم للمنطقة

الغوانم، والرسوليون، والنزاع على حرض

خروج حرض مؤقتاً، واقتصار نفوذ الغوانم على منطقة جازان

الغوانم وبنو رسول والشرعية العباسية

تشير بعض المصادر إلى أن المخلاف السليماني كان، خلال الفترة المعاصرة لبني رسول في اليمن، موزعًا بين عدد من أسر الأشراف السليمانيين هم: الغوانم في جازان، وآل قاسم في بَيْش، وآل وهّاس في بَاغِتَة، وآل ذروة في صَبْيَا، والقاسميون في ضَمَد، والهِضَامِيُّون في ضمد العليا[1]، أي أن المخلاف كان موزعًا - على حد رأي بعض من نقل عن تلك المصادر - على عدد من الإقطاعات أو الدويلات الصغيرة التي لا رابط بينها، وترتبط، من ناحية أخرى، ارتباطًا مباشرًا ببني رسول الذين عملوا على تفتيت أجزاء المخلاف منذ عهد مؤسس دولتهم السلطان الملك المنصور، من أجل سهولة سيطرتهم عليه، وربطه بعجلتهم[2]. بل إن بعضهم يذهب إلى أبعد من ذلك عندما يقرر أن الملك المنصور كان يحكم المخلاف حكمًا مباشرًا، وأنه كان يبعث إليه عمالاً من قبله لتولي إدارة شؤونه، وأن هذا الوضع ظل قائمًا طوال عهد بني رسول، ثم عهد خلفائهم بني طاهر[3].

---

(١) الملك الأشرف، طرفة الأصحاب، ص ١٠٨ - ١١٢؛ ابن الأهدل، علماء اليمن، مخطوط، ورقة ١١ب؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٢١ - ٢٢؛ عاكش، الديباج الخسرواني، مخطوط، ص ٦ - ٧.

(٢) يرى بعض المؤرخين المحدثين أن المخلاف دخل في حكم بني أيوب المباشر منذ مقتل الشريف المؤيد، آخر زعماء بني سليمان الأوائل، سنة ٦١٦ هـ، أنظر: العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢١٣؛ العسيري، الحياة السياسية، ص ١٣٧.

(٣) أنظر: العقيلي، ديوان الشاعر القاسم بن هتيمل، ص ١٣ - ١٤ وما بعدهما في أماكن متفرقة؛ الجراح بن شاجر الذروي، ص ٤٥، وفي أماكن متفرقة.

ومع أننا لا نستطيع إنكار التوزيع العشائري لأسر الأشراف السليمانيين المذكورين، ومعظمهم من أحفاد الشريف غانم، على أودية المخلاف السليماني على شكل زعامات أو إقطاعات صغيرة، إلا أن ما قيل عن ربط المنطقة بشكل مباشر ببني رسول، وإرسال الأخيرين لعمال من قبلهم يديرون شؤونها الداخلية - يحتاج إلى إعادة نظر[1]. ولا بد من وضع هذا القول في إطار علامة استفهام مهمة تستحق الإجابة، وهذه العلامة الاستفهامية هي: ما حقيقة ما يذكره بعض هؤلاء الباحثين المحدثين عن خضوع هذه المنطقة بأسرها لبني رسول، ثم من بعدهم لخلفائهم بني طاهر؟ والواقع أن الإجابة على هذا السؤال التي سنأتي إليها فيما بعد، تفتقر إلى كثير من الأدلة التاريخية التي عز وجودها في بطون المصادر المعاصرة لتلك الفترة، بما في ذلك المصادر اليمنية، ناهيك عن المخلاف السليماني الذي لم يدون تاريخه في تلك الفترة، ولم تصلنا أي معلومات عن مصادر محلية تتناول تاريخ هذا الإقليم أو الترجمة لأعيانه حتى يتمكن الباحثون الآن من وضعه في سياق تاريخي منظم، ومتصل في حلقاته، كما هو الحال بالنسبة لجاريه، الحجاز من الشمال، واليمن من الجنوب اللذين وصلنا الشيء الكثير عن تاريخهما المحلي؛ وهو أمر سهل على الباحثين تناول موضوعاتهما، والخوض فيها على نحو كبير[2]. وعلى العكس

---

(١) يمكن استثناء مدينة حرض وناحيتها التي شهدت، على فترات متقطعة، تعيين بعض الولاة من قبل بني رسول منذ أواخر أيام الملك المنصور، ثم احتفاظ بني رسول، ولظروف أمنيَّة خارجية، بحاميتين على طريق الحج إحداهما في الراحة، والأخرى في البرك، وسيأتي بيان ذلك لاحقًا.

(٢) حظي اليمن والحجاز بعدد من المؤلفات التاريخية التي تناولت عصورهما الإسلامية المختلفة من حيث التاريخ، وسير المشاهير من أعلامهما، نذكر من ذلك على سبيل المثال: مؤلفات ابن حاتم، وإدريس، وابن عبدالمجيد، والخزرجي، والديبع، وغيرهم بالنسبة لليمن، والفاكهي، والأزرقي، والفاسي، وآل فهد، والمراغي، والسخاوي، والسمهودي بالنسبة للحجاز. وحظي هذان القطران أيضًا بدراسات حديثة لا تقل أهمية عما كتب عنهما في العصور الإسلامية. أنظر عن بعض هذه =

من ذلك، فإن تاريخ المخلاف، وافتقاره إلى المصادر المحلية، جعلته كثير الغموض متناثر الحلقات. وإذا أمكن، بعد جهد جهيد، جمع تلك الحلقات ولم شتاتها، ووضع الفترات السابقة للأشراف الغوانم في سياق تاريخي مترابط - على الرغم مما فيه من فجوات - فإن تاريخ الفترات اللاحقة التي تسبق قيام الأسرة القطبية الآتي ذكرها، أشد غموضًا، وحلقاته أكثر تفككًا مما يصعب على الباحث الجزم بكثير من الوقائع التاريخية أو حتى تقديمها، على أية حالة، دون حذر. فما كتب عن المخلاف في هذه الفترات يكاد يكون معدومًا، والمصادر التاريخية التي اهتمت - كما أسلفنا - بالتاريخ المحلي للمناطق المجاورة في كل من الحجاز واليمن، تضن بكثير من معلوماتها عن المخلاف، وعلاقته بهذين القطرين. والمصدر المحلي الوحيد الذي يعول عليه في أحداث المخلاف السليماني في القرن السابع الهجري / الحادي عشر للميلاد، هو ديوان الشاعر القاسم بن هتيمل الذي سبقت الإشارة إليه، ولو أن هذا المصدر شأنه في ذلك شأن المصادر الشعرية الأخرى، يغفل جانبًا مهمًّا من المنهج التاريخي، هو تحديد الزمان.

ومهما يكن من أمر، فإن بني رسول عندما نفضوا أيديهم من التبعية للأيوبيين في حكم اليمن، وأعلنوا استقلالهم بها - كما أسلفنا - في سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠ - ٣١ م، مدّوا سيطرتهم على معظم المناطق والحصون اليمنية التي كانت خاضعة لبني أيوب[١]. وبدأوا ينافسون الأخيرين في السيطرة على الحجاز التي نجحوا في نقل ميادين المعارك بينهم وبين الأيوبيين إليها، بدلاً من اليمن التي بقيت بمنأى عن صراعات الخصمين[٢]. ثم عقدوا معاهدة مع

= المؤلفات والدراسات الحديثة، قائمة المصادر والمراجع الملحقة بذيل هذا الكتاب.

(١) أنظر: ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ٨٦ - ٨٧؛ الديبع، بغية المستفيد، ص ٨١.

(٢) أنظر: محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ١٠٠، ٣٣٩ - ٣٤٦؛ العسيري، الحياة السياسية، ص ١٩٤ - ١٩٦؛ أحمد الزيلعي، «أمير السرين»، ص ٢٥.

الأشراف الحمزيين على المناصرة والمعاضدة[1]. واستطاعوا بذلك تأمين عدم وجود أي منافس لهم في اليمن، بحيث ظهر جليًّا تغلبهم على معظم المشكلات التي كانت تواجه دولتهم الجديدة، ولم يعد أمامهم إلا أن يسعوا جادين - كما هي عادة الطامحين من حكام الأقاليم السنيين في ذلك الزمان - إلى الحصول على اعتراف الخلافة العباسية بهم، طمعًا في إضفاء الشرعية على دولتهم، وحفاظًا على وحدتها، وعلى إيجاد سند شرعي يعزز بقاءهم في السلطة، ويقوي قبضتهم على المناطق التي تحت أيديهم، ويساعدهم بالتالي على التوسع في مناطق أخرى خلاف تلك التي تحت سيطرتهم، باسم الخلافة العباسية. فأرسل السلطان عمر بن رسول مبعوثًا في سنة ٦٣١ هـ/ ١٢٣٤ م، إلى الخليفة المستنصر بالله العباسي (ت ٦٤٠ هـ/ ١٢٤٢ م)، ومعه هدية قيمة للخليفة نفسه، حيث طلب إليه المبعوث اليمني أن يعترف بالسلطان الرسولي نائبًا عنه على اليمن، وأن يرسل إليه تشريفة وهدية على جري العادة[2].

استقبل الخليفة مبعوث السلطان بالإيجاب، وشرط عليه أن يذهب السلطان بنفسه إلى مكة المكرمة، لمقابلة أمير الحج العراقي في عرفات، ومنه يتسلم التشريفة، وأمر النيابة باليمن[3]. ولما عاد مبعوث السلطان الرسولي إلى اليمن، وأخبر مولاه بما شرطه عليه الخليفة، رحل الملك المنصور عمر بن رسول على النُّجُب إلى مكة المكرمة حاجًا، وفي الوقت نفسه، منتظرًا بشوق وصول التشريفة، وأمر النيابة[4]. ولسوء حظه لم يتمكن الحاج العراقي من الوصول إلى مكة المكرمة، بسبب اختلال الأمن في الطريق إليها، فعاد المنصور إلى اليمن خالي الوفاض[5]. ولكنه ما لبث أن

---

(١) ابن حاتم، السمط، ص ٢٠٣؛ ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ٨٦؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ١٩٤.

(٢) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ١٩٥؛ الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ٦.

(٣) ابن حاتم، السمط، ص ٢٠٦؛ الخزرجي، العقد الفاخر، مخطوط، ورقة ٤٨ ب.

(٤) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ١٩٥؛ الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ٦.

(٥) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ ١، ص ٥٤؛ الخزرجي، العقد الفاخر، مخطوط، =

تلقى في العام التالي تشريفتين من الخليفة العباسي، وصلته إحداهما عن طريق البر، ووصلت الأخرى عن طريق البحر، ومعهما رسائل بالاعتراف به نائبًا عن الخليفة العباسي[1]. وبموجب هذا الاعتراف اعتبر السلطان الرسولي نفسه مطلق اليد في السيطرة على جميع الأراضي التي تقع تحت يده في اليمن والحجاز بصفته نائبًا عن الخلافة العباسية في بغداد. وطبيعي أن يكون المخلاف السليماني الذي يفصل بين الحجاز واليمن، داخلاً في المناطق التي يشملها النفوذ الرسولي المستمد شرعيته من الخلافة العباسية. ولكن هل كان المخلاف السليماني يحكم حكمًا مباشرًا من قبل الرسوليين، ويتولى إدارته ولاة يعينهم سلطان بني رسول؟ أم إنه كان خاضعًا لزعماء محليين من الأشراف السليمانيين الذين كانوا يعترفون فقط بالتبعية الاسمية لبني رسول باعتبارهم نوابًا للخلفاء العباسيين؟ ويكاد يكون في حكم المؤكد أن الاحتمال الأخير الذي يطرحه الشق الثاني من السؤال السابق، هو الأرجح؛ لأنه لم يغير شيئًا من طبيعة الوضع الذي كان قائمًا قبل بني رسول. فالسليمانيون اعتادوا على الاستقلال بترابهم، وعلى توارث حكمه جيلاً بعد جيل، مع الاعتراف بالخلافة العباسية، أو من يمثلهم من الحكام السنيين، من زياديين، ونجاحيين، وأيوبيين. ويعتبر سلاطين بني رسول، وإن اختلفوا مع الأيوبيين على مناطق الحكم والنفوذ، امتدادًا لسابقيهم من حيث الاعتراف بالتبعية للخلافة العباسية، والدعاء باسم الخليفة القائم، والذود عن سلطانه، وتنفيذ سياسته، ومحاربة الخارجين عليه. أما كون المخلاف السليماني خضع في هذه الفترة لسيطرة بني رسول المباشرة، طبقًا لما أسلفنا من أقوال بعض المؤرخين، فلا نعتقد بصحته؛ لأن المصادر التي وصلت إلى أيدينا لم تشر إلى أن الملك المنصور ولى أحدًا أمور المخلاف السليماني، أو أنه أقطع أراضيه لأي من رجاله طوال الفترة الممتدة من توليه الحكم إلى قبيل وفاته بأشهر فقط أي في سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٥٠ م، كما سيأتي. وفي المقابل، أسهبت هذه المصادر في

= ورقة ٤٨ ب.

(١) ابن حاتم، السمط، ص ٢٠٧؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ١٩٦.

ذكر الأماكن التي أقطعت لرجال السلطان في اليمن التي هي فعلاً تحت حكمه المباشر، بما في ذلك الأماكن الواقعة مباشرة إلى الجنوب من حدود المخلاف السليماني مثل القَحْمَة، والمَهْجَم، والمَحَالِب التي أقطعت بالتعاقب لعدد من القادة الرسوليين بمن فيهم الملك المظفر الذي أصبح سلطانًا بعد وفاة والده الملك المنصور(١). وهكذا يتضح أن سكوت المصادر اليمنية المعاصرة لبني رسول، عن ذكر أي إقطاعات، أو مقطعين في المخلاف السليماني، وذلك على غير عادتها بالنسبة لليمن والحجاز مثلاً، يعني أن المخلاف ربما لم يقع تحت سيطرة الرسوليين المباشرة، وإنما كان خاضعًا لأسرة محلية تحكمه بالتوارث كما سيأتي، وهذا الاحتمال يجيب بالنفي على أهم طرف من السؤالين اللذين سبق طرحهما، استنادًا إلى أقوال بعض المؤرخين المشار إليهم آنفًا.

غير أن هناك إشارة يتيمة يوردها ابن حاتم ومفادها أن ابن البصري، وهو أحد القادة الرسوليين المعروفين، كان له إقطاع حَرَض والهَلِيّة في سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م، وأن هذا الإقطاع تم في آخر حياة الملك المنصور، أي قبل شهرين من وفاته في ذي القعدة من السنة نفسها(٢)، ومعلوم أن حرض والهلية كانتا ضمن المخلاف السليماني، وكانتا في معظم الأحيان السابق ذكرها، بيد حاكم المخلاف حتى نهاية عهد الشريف المؤيد بن قاسم الذي أشرنا إلى وفاته في سنة ٦١٦ هـ/ ١٢٢٠ م، كما سبقت الإشارة إلى ذلك(٣)، كما أن الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول الذي خلف والده في السلطنة والذي أسهبت المصادر في ذكر أخبار إعادة توحيده لليمن، واسترداد البلاد التي كانت

---

(١) ابن حاتم، السمط، ص ٢١٩ - ٢٤؛ الديبع، قرة العيون، ج ٢، ص ٦ - ١٧ في أماكن متفرقة.

(٢) السمط، ص ٢٣٤.

(٣) كانت منطقة حرض، خلال فترة حكم الأشراف الغوانم، مرة مع بني رسول، وأخرى مع الأشراف السليمانيين حتى دخلت نهائيًا تحت سيطرة الأخيرين في عهد الأسرة القطبية والأسر التي حكمت منطقة جازان بعد ذلك، كما سيأتي لاحقًا.

خاضعة لسيطرة والده، لم تذكر في المقابل، أنه وصل إلى المخلاف، أو أنه ضمه بشكل مباشر إلى الأراضي التي أعاد توحيدها، مما يدل على أنه لم يكن ضمن سلطان والده، ولا تحت يده في حياته؛ ويدعم من ناحية أخرى، وجهة نظرنا السابقة حول نفي ما قيل من دخول هذا الإقليم تحت السيطرة المباشرة لبني رسول. أما بالنسبة لحرض التي كانت قد أقطعت لابن البصري في أواخر أيام والده، الملك المنصور، فقد استردها المظفر في سنة ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ - ٥١ م، وأقطعها لشخص يدعى الأمِيْنِي، بدلاً من صاحبها ابن البصري الذي حامت حوله الشبهات، حول عدم إخلاصه للملك المظفر في كفاحه ضد خصومه للوصول إلى الحكم، وممالأته لأخيه ومنافسه الملك المفضّل قطب الدين، وإن كان المظفر قبل عذره، وصفح عن زلته[1].

غير أن تصرف السلطان المنصور ومن بعده ولده السلطان المظفر في حرض، وذلك بإقطاعها لبعض رجال الدولة الرسولية، ربما جلب عليهما غضب الأشراف السليمانيين، مما كان سببًا في قيام خلافات كثيرة فيما بينهم وبين الرسوليين، نتجت عنها حروب طويلة بين الفريقين استمرت شطرًا كبيرًا من عهد السلطان الملك المظفر سنأتي إلى ذكرها فيما بعد.

وتجدر الإشارة إلى أن السلطان المظفر، شأنه في ذلك شأن والده، حرص على الحصول على تفويض من الخليفة العباسي المستعصم بالله، فتم له ذلك مرتين: في عام ٦٤٩ هـ/ ١٢٥١ م، وعام ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م[2]؛ بل إن حرص المظفر على التقمص بثوب الشرعية العباسية حمله على الخطبة للخليفة العباسي، وضرب السكة باسمه حتى بعد مقتله على يد المغول في سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م[3]. ومع ذلك، فإن بني سليمان قاوموا سياسة بني رسول

---

(١) ابن حاتم، السمط، ص ٢٦٢؛ وانظر أيضًا، ص ٢٤٦.

(٢) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٢١٩، ٢٣٢؛ الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ٣٦؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٤٣٧.

(٣) لم تقتصر الخطبة باسم الخليفة العباسي المقتول سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م على =

الرامية إلى ضم مدينة حرض، وإدارتها من قبلهم، كما سيأتي تفصيله بعد.

= السلطان المظفر بل تعدى ذلك التقليد إلى جميع سلاطين بني رسول الذين خلفوه في حكم اليمن. أنظر: الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ ١، ص ٦٩؛ العامري، غربال الزمان، ص ٤٥٠، ٥٣٣؛ محمد عبدالعال أحمد، إحياء الخلافة، ص ٦٥ - ٧٤. أما بالنسبة لكتابة اسم الخليفة العباسي المستعصم على الدراهم الرسولية بعد مقتله، فقد عثر على مجموعة من هذه الدراهم في مؤسسة النقد العربي السعودي بالرياض تحمل اسم الخليفة المستعصم، وتتراوح تواريخها من سنة ٦٥٧ هـ/ ١٢٥٩ م، أي بعد وفاة المستعصم بسنة، إلى سنة ٧٢٨ هـ/ ١٣٢٧ - ٨ م. في عهد السلطان الرسولي الملك المجاهد علي بن داود. وَلِي في هذا الموضوع بحث، تحت النشر، يعتمد على مجموعة خاصة من الدراهم الرسولية التي ضربت في العواصم اليمنية، بعد وفاة الخليفة المستعصم، وتحمل اسمه.

أسر الأشراف السليمانيين وزعامة الغوانم للمنطقة

قبل الدخول في صراعات بني رسول والسليمانيين يجدر بنا معرفة الأسرة التي آل إليها حكم المخلاف خلال هذه الفترة المتسمة بضحالة المعلومات، والخالية من التواريخ، ومن تسلسل الأحداث والوقائع التاريخية، وهل كانت كل أسرة من أسر الأشراف السليمانيين المار ذكرها للتوّ، تحكم بمفردها، وتتصرف في شؤونها الداخلية والخارجية بطريقة مستقلة عن الأسر الأخرى؟ أم إنه كان لكل أسرة وضع خاص في المنطقة التي تقع تحت نفوذها، بحيث تتوارث الحكم فيها، وتتصرف في شؤونها الداخلية، وتلتف جميعها تحت لواء أُسْرة واحدة بعينها، كانت لها الزعامة الشاملة، أو الإمارة في عموم المخلاف؟.

وقبل الإجابة على هذه التساؤلات يتعين علينا أن نستعرض أقسامهم، وتسلسل أفرادهم، لنقرر عما إذا كانت الزعامة العامة في المخلاف كانت بيد أسرة من تلك الأسر، أم إن كلا منها كانت تعمل مستقلة عن الأخرى. ويهمنا من تلك الأسر السابقة أربع، هم الغوانم في جازان[1]، والقاسميون في بَيْش،

(١) ينتسب الأشراف الغوانم إلى جدهم الأكبر الشريف غانم بن يحيى بن حمزة بن وهاس بن الطيب داود بن عبدالرحمن بن أبي الفاتك عبدالله بن داود بن سليمان بن عبدالله الشيخ الصالح بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب. ويعرفون بآل أبي الطيب أو ببني سليمان نسبة إلى سليمان بن عبدالله المذكور، أنظر: ابن حزم، جمهرة، ص ٤٧؛ ابن عنبة، عمدة الطالب، ص ١٠١؛ النعمي، الجواهر اللطاف، ص ٢١، وانظر جداول النسب الملحقة بهذا الكتاب.

وبنو ذُرْوَة في صَبْيَا، وبنو وَهَّاس في بَاغِتَة؛ لأن أفراد هذه الأسر ينتمون إلى حكام المخلاف الأوائل من بني سليمان، وينتهي نسب كل منهم إلى الشريف غانم بن يحيى بن حمزة، أمير جازان في حوالي النصف الأول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، كما تقدم. يضاف إلى ذلك أنه برز من أفراد بعض هذه الأسر قادة لعبوا أدوارًا مهمة في أحداث المنطقة التي دارت في المخلاف السليماني، وفي شمال اليمن، بين الأشراف السليمانيين من جهة، وبين العمال الرسوليين من جهة أخرى. هذا إلى أن حكم المخلاف أو منطقة جازان لم يخرج من ذرية الشريف غانم المذكور حتى نهاية الأسرة القطبية في سنة ٩٤٣ هـ/ ١٥٣٦ م، تلك الأسرة التي تنتهي بنهايتها فترة حكم بني سليمان المتصل لتلك المنطقة، وتنتهي أيضًا موضوعات الدراسة التي يغطيها هذا الكتاب.

ولعل أهم، وأقدم مصدر بين أيدينا عن هذه الأسر، بل لعله المصدر الوحيد الذي يعالج أنساب الأشراف السليمانيين، وتسلسل أفرادهم وأسرهم في تلك الفترة، هو طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، للسلطان الملك الأشرف عمر بن يوسف بن عمر بن رسول (ت ٦٩٦ هـ/ ١٢٩٦ م)(١)؛ حيث يذكر صاحب هذا الكتاب أن أولى هذه الأسر، هي أسرة الغوانم، وينسبهم إلى هاشم بن غانم بن يحيى بن حمزة(٢). ويذكر أن من أولاد الأمير هاشم

(١) عن هذا الكتاب أنظر: أيمن فؤاد السيد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، ص ١٣١ - ١٣٢؛ حسين عبدالله العمري، مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني، ص ٥٢ - ٥٣.

(٢) الملك الأشرف، طرفة الأصحاب، ص ١٠٨؛ في ابن عنبة، عمدة الطالب، ص ١٠٢. قاسم بن غانم بن يحيى بن حمزة، ونحن نرجح ما جاء عن ابن عنبة لكونه صاحب اختصاص في أنساب آل أبي طالب؛ ولأن ما جاء عنه يتفق مع المصادر اليمنية الموثوقة، وبعضها ينقل عن مصادر معاصرة لفترة الشريف قاسم بن غانم المذكور. أنظر: ابن حاتم، السمط، ص ١٦؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ١٤٧ - ١٤٨؛ الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ٣٧٦.

(قاسم)، ولد ولده الأمير وهّاس بن محمد بن **هاشم (قاسم)** بن غانم بن يحيى، وينعته بأنه صاحب جازان[١]. ثم يذكر أيضًا أن للأمير وهاس من الأولاد ستة نفر، منهم: الأمير جمال الدين هاشم «وهو اليوم صاحب جازان» على حد قول المؤلف[٢]. أي أنه كان أميرًا لجازان في حياة الملك الأشرف الذي لا نعلم على وجه التحديد متى ألف كتابه؟ وإن كان من الثابت أنه ألفه عندما كان أميرًا، وقبل توليه السلطنة، أي قبل سنة ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٥ م[٣].

أما الأسرة الثانية التي ترجع بأصولها إلى غانم المذكور، فهي أسرة بني وهّاس، أصحاب بَاغِتَة المعروفة الآن في جهة المَلْحَاء إلى الشمال من صبيا[٤]، وهم من أولاد الأمير أحمد بن غانم بن يحيى بن حمزة[٥]. وأولهم وهّاس بن سليمان بن منصور بن أحمد بن غانم، وله من الأولاد خمسة نفر، أكبرهم سليمان بن وهاس الذي قيل بأنه توفي ودفن مع والده وهاس بن سليمان، ولهم ذرية كثيرون بالمخلاف في حياة المؤلف الملك الأشرف[٦]. ويغلب على الظن أن أشراف باغتة هؤلاء هم والغوانم فرعان لأصل واحد قريب، ويعصب التفريق فيما بينهم حتى إن بعض المؤرخين ينعتهم باسم حكام

(١) الملك الأشرف، طرفة الأصحاب، ص ١٠٨.

(٢) الملك الأشرف، طرفة الأصحاب، ص ١٠٨.

(٣) أنظر: الديبع، قرة العيون، ج ٢، ص ٥١.

(٤) أنظر: ابن هتيمل، الديوان، ص ٦٦ في الهامش.

(٥) لم يرد أحمد بن غانم عند ابن عنبة، إلا أن يكون أحمد المؤيد بن قاسم بن غانم، أمير المخلاف الذي توفي، أو قتل في حوالي سنة ٦١٦ هـ/ ١٢٢٠ م، كما قدمنا. أنظر: عمدة الطالب، ص ١٠٢. وورد اسم منصور بن أحمد في السفارة التي أرسلها السليمانيون إلى الخلافة العباسية طمعًا في نجدتهم ضد بني مهدي الذين قتلوا أميرهم وهاس، وخربوا ديارهم، وانتهكوا حرماتهم، على النحو الذي سبق شرحه.

(٦) الملك الأشرف، طرفة الأصحاب، ص ١٠٠؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٥٠.

باغتة وجازان[1]، مما يحملنا على الاعتقاد بأنهم أسرة واحدة تعاقب أفرادها على كرسي الإمارة بالمخلاف السليماني، حتى النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر للميلاد، كما سيأتي فيما بعد.

يلي هذه الأسرة القاسميون، أصحاب وادي بَيْش المعروف إلى الشمال من صبيا، وهي الأسرة الثالثة من أسر الأشراف السليمانيين التي تنتسب إلى الأمير قاسم بن غانم بن يحيى بن حمزة[2]. وأولهم الأمير علي بن قاسم بن غانم، صاحب بيش. وله من الأولاد سبعة نفر: الأمير يحيى، ولعله أكبرهم، ثم الأمير غانم والأمير سليمان، وأبو غانم أحمد الملقب مؤيد الدين، وعبدالله، وعيسى، ويوسف[3].

أما الأسرة الرابعة والأخيرة من أسر الأشراف السليمانيين بالمخلاف، فهم الأمراء آل ذروة، أهل وادي صبيا الواقع إلى الجنوب من وادي بيش المشهور، منهم: قاسم بن علي بن محمد بن غانم الذروي، وله من الأولاد ثمانية نفر هم: بدر الدين الصياد، وهو الذي تأمر في عشيرته بعد وفاة والده[4]، وعماد الدين خالد، وحسين، ومهدي، وأحمد المؤيد، وشمس.

---

(١) أنظر: النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٢٨؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٦٣؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٣١، ٣٢. إذا صح هذا الاحتمال فربما ينتسبون إلى أحمد المؤيد بن قاسم (هاشم) بن غانم، وليس إلى المنصور بن أحمد بن غانم؛ لأن أحمد المذكور أخو محمد بن قاسم (هاشم)، وأقرب من المنصور بن أحمد من حيث الالتقاء بين الأسرتين. أنظر: ابن عنبة، عمدة الطالب، ص ١٠٢؛ وانظر أيضًا الملك الأشرف، طرفة الأصحاب، ص ١٠٨ - ١٠٩ ثم جداول النسب الملحقة بالكتاب.

(٢) ينسبهم النعمي إلى حسن، أو حسين بن يحيى بن أبي الطيب، أنظر: الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٢٢.

(٣) الملك الأشرف، طرفة الأصحاب، ص ١١٠؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٥٠.

(٤) ابن هتيمل، الديوان، ص ٨٤؛ وانظر أيضًا: عاكش، الديباج الخسرواني، =

وكان لهم ذرية كثيرة بالمخلاف في القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد[1]. وتجدر الإشارة إلى أن الملك الأشرف أهمل ذكر الأمير خالد بن علي بن محمد بن غانم، أخي الأمير قاسم، ونعتقد أنه أكبر منه سنًّا، وكان أميرًا على وادي صبيا قبل أخيه قاسم[2]. وأهمل أيضًا ذكر اثنين من أبناء الأمير قاسم هما: عبدالله المنصور بن قاسم بن علي الذي كان فارس بني ذروة في حياته، وتوفي مقتولاً في عهد والده[3]، والأمير علم الدين بن قاسم بن علي الذروي الملقب بالخواجي، وكان حيًّا بعد وفاة والده الأمير قاسم[4].

ونعود بعد هذا الإيجاز الذي عرضنا فيه لأفراد الأسر السليمانية بالمخلاف، إلى الأسئلة المطروحة سابقًا حول مَن مِن هذه الأسر كانت لها الزعامة بالمخلاف السليماني؟ وهو في الواقع سؤال تصعب الإجابة عليه بالنظر إلى شحّ المعلومات المتعلقة بتاريخ المنطقة. ولكننا في حدود ما أتيح لنا الاطلاع عليه من هذه المعلومات الشحيحة، نعتقد أن الزعامة للمخلاف كانت من نصيب الأسرة الأولى، وهي أسرة الغوانم، لارتباط هذه الزعامة بالعاصمة جازان؛ فوجودهم في العاصمة ربما يعني أنه كانت لهم السيطرة على الإقليم بكامله. فإذا صح هذا الاعتقاد فمعنى ذلك أن زعماء الأسر الثلاث الباقية كانوا يمثلون دور أمراء صغار، أو شيوخ يتزعمون عشائرهم، ويديرون الإقطاعات الصغيرة، أو الأودية التي تحت أيديهم، ويدينون بزعامة الأمراء الغوانم الذين يتخذون من جازان العاصمة مقرًّا لهم، ولو أنه ظهر من بين هؤلاء الأمراء الصغار قادة عظام من أمثال خالد وقاسم إبني علي بن محمد الذروي.

ونلاحظ ولاء هؤلاء القادة السليمانيين، أو زعماء الإقطاعات للأمراء

= مخطوط، ص ١١.

(١) الملك الأشرف، طرفة الأصحاب، ص ١١٠ - ١١١.

(٢) ابن هتيمل، الديوان، ص ٤٩، ٦٥، ٧٤.

(٣) ابن هتيمل، الديوان، ص ٤٢، ٤٣، ٨٧، ٨٨.

(٤) ابن هتيمل، الديوان، ص ٤٤.

الغوانم، وعملهم تحت إمرتهم، من هذه القصيدة التي قيلت على لسان أكبر هؤلاء القادة، وأولهم في هذه الفترة، وهو الأمير خالد بن علي الذروي. وكانت موجهة إلى أمراء جازان محمد بن هاشم، وابنيه وهّاس وأحمد البدر ومنها[1]:

وَسَادَةٍ ذَادَةٍ غُرٌّ غَطَارِفَةٍ ... إنْس إذَا نَزَلُوا جِن إذَا رَكِبُوا

- * -

وأنْتَ يَا رَائِحًا تَهْوِى بِهِ قُلُصٌ ... كالجَابِ أخْلَقَ مِنْهُ الثَّوْبُ والقَرَبُ

شَاطَرْتُكُم حُلَبَ المَكْرُوهِ مَحْتَمِلاً ... ثِقَلَ المَتَاعِبِ إذْ لاَ يُحْمَلُ التَّعَبُ

كَمْ قُدْتُهَا فِي رِضَاكُمْ ذَاتَ زِلْزِلَةٍ ... رَجْرَاجَةِ المَوْتِ يَهْوي فَوْقَهَا الصَّخَبُ

فإنْ رضيْتُمْ فَلاَ خَفْضٌ ولاَ دَعَةٌ ... وإنْ عَصَيْتُم فأيْنَ النَّصْرُ والغَضَبُ

يَا قومَنَا إنْ جَحَدْتُمْ سَعْيَنا لَكُمُ ... طُولَ الزَّمَانِ فعِنْدَ اللهِ نَحْتَسِبُ

وهذه القصيدة التي تحمل عتابًا صريحًا على أمراء جازان، يتضح منها أن الأمير خالد كان يقود الجيوش في سبيل رضاء الممدوحين، وإن كانت تظهر بعض المواقف غير المنصفة من جانب أمراء جازان التي عدَّها الأمير خالد جحودًا للمساعي التي بذلها في سبيل رضاهم، وتثبيت حكمهم، باعتبارهم أمراء عموم المخلاف السليماني الذي يندرج تحت إمرتهم، ويدين بولائهم، جميع أمراء الإقطاعات الخاضعة لزعماء الأسر السليمانية السالفة الذكر. يضاف إلى ذلك أن أسرة الغوانم هذه من أبناء حكام المخلاف السابقين، وهم الورثة الحقيقيون لمن سبقهم من الأمراء الذين حكموا المخلاف حتى الربع الأول من القرن السابع الهجري / الثاني عشر للميلاد. وربما بقي الأمر فيهم باعتبارهم ورثة للمرتضى وللمؤيد، أميري المخلاف السابقين، يتضح ذلك من قصيدة أخرى عثر عليها في ديوان الشاعر القاسم بن هتيمل، تتضمن مديحًا لحاكم جازان الأمير وهاس بن محمد بن هاشم (قاسم) بن محمد بن غانم،

---

(١) ابن هتيمل، الديوان، ص ٣٩، ٤٠.

وتقرر حقيقة أنهم أمراء المخلاف عامة، وأنهم ورثة أمرائه السابقين، ومما جاء في بعض أبياتها[1]:

قُـلْ لِـلأمِـيْـرِ أبـي مُـحَـمَّـدْ ... وهَّـاسٍ ذي الـشَّـرَفِ الـمُـمَـجَّـدْ
وَلَـدِ الإمَـارةِ والـفُـتُـوَّةِ ... والـمـرُوءَة حِـيْـنَ يُـنْـقَـدْ
نِـعْـمَ الأبُ الـزَّاكِـي أبُـوْكَ ... ونِـعْـمَ ذَاكَ الأبُّ والـجَـدْ
أَحْـيَـيْـتَ مَـجْـدَ الـمُـرْتَـضَـى ... وَسَـنَـنْـتَ مـا سَـنَّ الـمُـؤَيَّـدْ
مَـلِـكٌ يُـجَـانِـبُ أهْـلَـهُ فِي الـلـهِ ... مَـنْ صَـلَّـى وَوَحَّـدْ

وهكذا نلاحظ أن الأمراء الغوانم هم حكام المخلاف السليماني، أو حكام منطقة جازان بعدما سلبت منها حرض، وبعض المناطق الجنوبية الأخرى التي سنأتي إلى ذكرها فيما بعد، على حين كان الأمراء الذرويون فرسان المنطقة، وقادة الحروب مع بني رسول، وزعماء صبيا، وما والاها، وإن كان بعض شخصيات هذه الأسرة، طغى ذكرهم على من سواهم من زعماء بني سليمان[2].

غير أن أصعب ما يواجه الباحث في تاريخ هذه المنطقة، هو إيجاد تواريخ محددة لحياة هؤلاء الأشخاص، أمراء كانوا أم قادة، أو لوفياتهم، أو للأحداث التي اشتركوا فيها، أو ارتبطوا بشكل أو بآخر بها. ولكن لا بأس من الاجتهاد في وضع ترتيب تاريخي يوضح أسبقية هؤلاء الأمراء، أو القادة، بعضهم على بعض، ويوضح من ناحية أخرى تحديد تواريخ بعض هذه الأحداث تبعًا للقرائن المصاحبة لها، أو تبعًا لوفيات بعض الأشخاص الذين خاضوها، أو ارتبطوا بشكل، أو بآخر بها، وكذلك تبعًا لتغيير مواقعهم الوظيفية، أو القيادية خلال فترات حياتهم.

فبالنسبة إلى ترتيب أمراء المخلاف الذين تعاقبوا على حكمه بعد وفاة

---

(١) ابن هتيمل، الديوان، ص ٤٦.

(٢) أنظر: النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٣٥؛ عاكش، الديباج الخسرواني، مخطوط، ص ١١ - ١٢.

الشريف المؤيد بن قاسم التي سبقت الإشارة إلى أنها كانت في حوالي سنة ٦١٦ هـ/ ١٢٢٠ م - نعتقد أن أمور المخلاف ربما آلت بعد وفاته إلى ابنه يحيى بن أحمد المؤيد بن قاسم بن غانم، وإن كنا لا نعرف شيئًا عن حياته، ولا عن الدور الذي لعبه بعد وفاة والده، وكلّ ما يعرف عنه أنه توفي في مكة المكرمة، ودفن في مقبرة المعلاة في جمادي الآخرة سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م. على حدّ قول مؤرخ مكة، تقي الدين الفاسي الذي أورد ترجمته من شاهد قبره، وعليه كتابة يصفه نصّها بأنه: «الأمير السعيد السيد الشهيد المفارق للأهل والأحباب»[١]، ولا تعرف أسباب وفادته إلى مكة المكرمة، وموته غريبًا عن وطنه، وهل كان مطرودًا، أم إنه جاءها حاجًا أو وافدًا في زيارة تتعلق بأمور الإمارة، فوافاه قدره بها. كما أننا لا نعرف شيئًا عن سبب نعته بالشهيد، الذي قد يكون من المحتمل أنه توفي مقتولاً في سبيل الله، أو دون ماله، وعرضه. وقد يكون مات غريقًا أو مبطونًا، أو بالطاعون، أو بأي سبب من الأسباب التي تجعل بعض المتوفين بها في مصاف الشهداء[٢].

ومهما كانت أسباب وفاة الأمير يحيى بمكة المكرمة، فإن إمارة المخلاف ربما انتقلت بعده إلى عمه محمد بن هاشم، ثم إلى ابنه وهاس بن محمد، وكلاهما وردا في قصيدة ابن هتيمل البائية التي مرّ ذكرها، كما أن الملك الأشرف يورد الأخير، وهو وهّاس بن محمد، ويصفه بأنه صاحب جازان[٣]. ويفهم من سياق ما يورده الملك الأشرف عن هؤلاء الأمراء أن وهّاسًا، كان أميرًا على جازان قبل تأليف كتابه الذي نعتمد عليه في هذه السلسلة، لأنه يذكر، ضمنًا، أن إمارة جازان، عند إعداد كتابه المذكور، كانت من نصيب ابن وهّاس، وهو جمال الدين هاشم بن وهّاس بن محمد، ويصفه بأنه أمير جازان اليوم[٤]، أي عند إعداده لكتابه الذي يعتقد بأنه ألفه قبل

---

(١) العقد الثمين، جـ ٧، ص ٤٥١.

(٢) أنظر: أ. ي. ونسنك، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، جـ ١، ص ١٩٨ - ١٩٩.

(٣) طرفة الأصحاب، ص ١٠٨.

(٤) طرفة الأصحاب، ص ١٠٩.

عام ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٥ م - كما تقدمت الإشارة إلى ذلك - وهو العام الذي تسلم فيه السلطنة بعد وفاة والده الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول[١].

أما القادة من الأشراف الذرويين، فيعتقد أن أولهم هو علي بن محمد الذروي، الذي قام بإدارة أمور المخلاف في أثناء أسر ابن عمه الملك المؤيد الذي سبقت الإشارة إليه، من قِبَل الأيوبيين في سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٨ م[٢]. ولما توفي علي الذروي، خلفه في مشيخة عشيرته، وقيادة فرسان بني سليمان ابنه خالد بن علي الذروي، ثم أخوه القاسم بن علي الذروي، ثم ابن الأخير، محمد الصَّيَّاد الذي ربما بقي حيًّا إلى ما بعد سنة ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٥ م، وهي السنة التي يحتمل أن الشاعر القاسم بن هتيمل توفي فيها، أو في التي بعدها[٣]، لأننا لم نعثر في ديوان الأخير على أي قصائد رثاء قيلت في موت الأمير محمد الصياد، خلافًا لما درج عليه ذلك الشاعر الذي عكف طوال حياته على رثاء من مات من أفراد هذه الأسرة، بالقدر الذي صاغه فيهم من مديح عندما كانوا أحياء[٤].

---

(١) عن وفاة السلطان المظفر، وتولي ابنه الملك الأشرف مقاليد السلطنة من بعده، أنظر: ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ ٢، ص ٦٠٦؛ الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ٤٨، ٥١؛ محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ١٦٢.

(٢) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ ١، ص ٢١٢.

(٣) توفي الشاعر تقديرًا في سنة ٦٩٦ هـ/ ١٢٩٦ م - ٧ م، أنظر: الديوان، ص ٧، من مقدمة المحقق، محمد أحمد عيسى العقيلي؛ وانظر للعقيلي أيضًا: أضواء على الأدب والأدباء في منطقة جازان، ص ٢٨ - ٣٦. وللشاعر ابن هتيمل ترجمة كاملة في كتاب العقد الفاخر، للخزرجي، مخطوط، ورقة ١٨٢أ - ١٨٥أ، ويذكر الأكوع أنه توفي في سنة ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٤ م، ولا نعرف شيئًا عن دقة ذلك التاريخ، ولا المصدر الذي استقاه منه. أنظر: الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٧٦ حاشية رقم ٢.

(٤) رثى الشاعر الأمير قاسم بن علي الذروي الذي قتل على يد شخص اسمه عاطف، بعدة قصائد مثبتة في ديوانه؛ منها واحدة يعزي فيها الشريف محمد الصياد، ابن المقتول، وخليفته في زعامة عشيرته، ويحث قومه على طاعته والولاء له:

تَأَسَّ فما مصابُكَ من مُصَابِ ... فيومُ أبيكَ يومُ أبي تُرابِ =

= ولا تجززعْ فإن الدَّهْرَ يُرضِي ... ويُغضِبُ في المجيءِ وفي الذَّهابِ
إذا استعرضتَهُ من حالَتَيْهِ ... أجَلْتَ الفِكْرَ في العَجَبِ العُجَابِ
ترى البازيَّ والأسدَ الغضنفر ... صريعًا بابنِ آوى والغُرابِ
وإن يقتلْ عويطفُ وهو أدنى ... وأحقرُ من بُواءٍ بالصَّوابِ
فقد قُتِلَ ابنُ مُلْجِمَ في عليٍّ ... وما يوفى ابنُ مُلْجمَ في ذُبَابِ
حميتم جانبَيْ صبيا بحربٍ ... سحائِبُهَا مواطرُ كالسَّحابِ
وسُسْتُم أهلَ دولتِكم بحملِ ... الجفانِ والطِّعانِ وبالضِّرابِ
فروموا أمرَ سيدِكم وكونُوا ... له مثلَ الرَّبابةِ والرَّبابِ
فان محمَّدَ الصَّيادَ فيكم ... كَعُنْوانِ الكتابِ من الكتابِ

عن تلك المراثي أنظر: الديوان، ص ٨٤ - ٨٦، ٨٧ - ٨٨، ٨٩ - ٩٤؛ الخزرجي، العقد الفاخر، ورقة ٨١ ب، ٨٢ أ.

الغوانم، والرسوليون، والنزاع على حرض

أوضحنا للتَّوّ أن السلطان الملك المنصور، عمر بن علي بن رسول، ثم ابنه الملك المظفر، يوسف بن عمر، لم يوليا أحدًا من قِبَلِهما حكم المخلاف السليماني. ولم يقطعا أراضية لأيٍّ من رجالهما. كما لم يرد ذكر المخلاف ضمن الأراضي التي وحّدها عمر بن رسول، أو ضمن تلك التي استردها ابنه الملك المظفر، بعد أن انفرط عقد السلطنة الرسولية، وانحسر نفوذها عن معظم ما كان تحت يد والده من الأراضي، إثر اغتياله في سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م. كما أن المصادر التي بين أيدينا، لم تشر إلى أن السلطان الملك المنصور أرسل أيًّا من قواده إلى المخلاف في حرب ضد الأشراف الغوانم، ولم تفصح أيضًا عن قيام أي مواجهة بين بني رسول وبين الأخيرين طوال عهد مؤسس الأسرة الرسولية، السلطان الملك المنصور عمر بن علي بن رسول، الذي أشرنا سابقًا إلى حصوله على تفويض من الخلافة العباسية بحكم بلاد اليمن. ولكون هذه المصادر تسكت عن ذكر أي مواجهة بين الطرفين، فمن المحتمل أن العلاقة كانت وديّة بين حكام منطقة جازان، والرسوليين طوال عهد السلطان عمر بن رسول، وإن كان الأخير أقطع حرضًا والهليّة، وهما جزء من المخلاف السليماني، لاثنين من رجاله قبل وفاته بشهرين، كما سبق توضيحه. ولا شك أن هذا الإجراء يعتبر بالنسبة للأشراف الغوانم، تعدّيًا على حقوقهم، وانتقاصًا من سيادتهم على جزء مهم من أراضيهم، يتجاوز في نظرهم التفويض الذي مُنح لابن رسول من الخلافة العباسية، ويستحق بالتالي الرد وعدم الاستكانة أو السكوت عليه.

غير أننا لا نعرف شيئًا عن رد فعل بني سليمان على هذا الإجراء الذي

ينال من سيادتهم، وهيمنتهم على جميع أراضي المخلاف، وهل كان ذلك الرد سريعًا قبل موت الملك المنصور، أم أنه تأخر حتى وفاته، وانتقال مقاليد السلطنة إلى ابنه السلطان الملك المظفر؟. وفي كلتا الحالتين، فإن الأشراف الغوانم شنّوا غارة على حرض بقيادة الشريف خالد بن علي الذروي، حيث تمكنوا من استردادها سريعًا، بل وتوغلوا جنوبًا في الأراضي الواقعة فعلاً تحت نفوذ بني رسول، وقد خلّد هذا النصر شاعر المخلاف السليماني، القاسم بن هتيمل، بقصيدة يمدح بها الشريف خالد، ويذكر فيها بعض أحداث هذه الغارة، ومنها[1]:

حَـرَضًـا حُـزْتَـهُ وَأوْقَـدْتَ بـالـرَّا ... حَـةِ بَـعْـد الـمَـعِـيْـنِ نَـارًا حَـزَازا
حُـزْتَـهـا عُـنْـوَةً وعَـانَـدَكَ الإخْـوا ... نُ فِـيْـهَـا فَـحَـازَهَـا مَـنْ حَـازَا

ويبدو من الشطر الأخير في البيت الثاني: حدوث خلاف بين بني سليمان بعد موقعة استرداد حرض، ربما بين من تكون هذه المدينة من نصيبه وضمن إقطاعه من أفراد الأسرة السليمانية، وربما بين مؤيد للدخول في حرب مع بني رسول، وبين معارض لذلك، والرضوخ للأمر الواقع، خاصة، وأن بين أفراد تلك الأسر من هم أصدقاء شخصيين للملك المظفر الذي من المرجح أن تلك المعركة حدثت في عهده[2]. ومهما يكن من أمر، فإن هذا الخلاف ربما ترك أثرًا سيئًا في نفس الأمير خالد بن علي الذروي، قائد تلك المعركة، الذي شعر بالإحباط من موقف عشيرته، يتضح ذلك من الأبيات الأربعة الأخيرة من القصيدة نفسها التي كانت بمثابة لوم مبطن من الشاعر للفريق المعارض، وتعزية أو تهوين للأمر على الأمير خالد تجاه موقف معارضيه. وهذه الأبيات هي[3]:

---

(١) ابن هتيمل، الديوان، ص ٦٥.

(٢) من الأصدقاء الشخصيين للملك المظفر أمير باغتة وهّاس بن سليمان، وكان كثير الوفادة على الملك المظفر. أنظر: النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ١٢١ - ١٢٢؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ ١، ص ٣١٨.

(٣) ابن هتيمل، الديوان، ص ٦٥.

فَأرِحْ واسْتَرِحْ فَمَا نِلْتَ مَا نِلْتَ   مِـنَ الـمُـتْـرَفِـيْـنَ إلاَّ ابْـتِـزَازَا
خَلِّ أهْلَ الـمِخْلاَفِ عَنْكَ فَقَدْ   خَلَّى القَتَادَاتُ يَنْبُعًا والحِجَازَا
أنْتَ تَبْغِي بالسَّيْفِ والرُّمْحِ إعْـ   زَازًا قُـبَـيْـلَ لاَ يَـطْـلُـبُ الإعْـزَازَا
كُلَّما رُمْت أنْ يَكُونُوا صُدُورًا   جَـعَـلْـتَـهُـم نُـفُـوسُـهُـمْ أعْـجَـازَا

ويغلب على الظن أن الغوانم طلبوا العون والمساعدة من الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة (ت حوالي ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م)، وأنهم لم يحصلوا منه على طائل. وعندما أجلى الغوانم العساكر الرسولية عن حرض، واستردوها من قبضتهم، بعث الأمير خالد الذروي برسالة إلى الأمير شمس الدين المذكور يخبره فيها بالانتصار على أعدائه، ويعاتبه على عدم تقديم العون الذي طلبه الغوانم منه، وشفع رسالته تلك بقصيدة قيلت على لسان الأمير خالد إلى الأمير الحمزي، شمس الدين، ومنها(١):

أمِنْ مُبْلِغٍ عَنَّى أئِمةَ مَعْشَرِي   بَنِي حَمْزَةٍ أهْلِ الخَمِيْسِ العَرَمْرَمِ
وَمَنْ عِزُّهُمْ عِزِّي وعِزِّي عِزُّهُمْ   ومَنْ لَحْمُهُمْ لَحْمي ومَنْ دَمُهُمْ دَمِي
بِأنَّا شَبَبْنَا الحَرْبَ حَتَّى تَضَرَّمَتْ   وقَدْ طَالَما شَبَّتْ وَلَمْ تَتَضَرَّمِ
فأنْزَلَهُم صِدْقُ الجِلاَدِ وَبَأْسُنَا   عَلى حُكْمِنَا فِي غِلْظَةٍ فِي التَّحكُّمِ
أتَتْ خَيْلُنَا عِشْرُونَ لا شيءَ غَيرُهَا   وَهُمْ مائَتَا عِلْجٍ فَصِيْحٍ وأعْجَمِ(٢)
سَدَكْنَاهُمُ فِي غَمْرةٍ جاهِلِيَّةٍ   نُداعِسُ فِيْها كُلَّ أعْجَمَ طمْطَمِ
تَرى الخَيْلَ تُرْدي فارِسًا نَحْو فَارِسٍ   كِفَاحًا. ويمْشِي ضَيْغَمٌ نَحْو ضَيْغَمِ
صَدَقْنَاهُمُ بِالطَّعْنِ حَتَّى تَعوَّجَتْ   صُدُورُ المَذَاكِي بالوشِيْجِ المُقَدَّمِ
بَنِي عَمِّنا حتى متى وإلى مَتي   تَخَلُّفُكُمْ عَنْ نَصْرِنَا وإلى كم؟

(١) ابن هتيمل، الديوان، ص ٧٤ - ٧٥.
(٢) الإشارة بكلمة «أعجم» إلى مماليك بني رسول الذين جلهم من الأتراك أو الغز كما يسميهم المؤرخون اليمنيون.

دُعِيْتُم إلى الْحُسنى فإنْ تتقدَّموا إلى فِعْلِها فالفَضْل لِلمُتقدِّمِ
كِلُوهُمْ إلَيْنا إنْ خُذِلْتُمْ فإنَّنا إلى ضُرِّهِمْ أهْدى مِن الْيَدِ لِلْفَمِ
فَكَمْ عَائِذٍ. عَنَّا وعَنْكُمْ وَبَائِعٍ حَمِيَّتَهُ فِيْنا وفِيْكُمْ بِدِرْهَمِ
فإنْ تَرْزُقُونَا العَوْنَ نظْفَرْ وإنْ يكُنْ سِوَاهُ فَمَنْ لَمْ يُرْزقِ العَوْنَ يُحْرمِ

وهذه القصيدة التي ربما قيلت بعد تلك المعركة التي استرد فيها الغوانم مدينة حرض، أو ربما قيلت بعد معركة أخرى من تلك المعارك التي نشبت بين الغوانم والرسوليين بسبب محاولة الأخيرين إقطاع ناحية حرض لأحد قادتهم، أو احتفاظهم بحامية من رَاحَةِ بني شَرِيْف، على طريق الحج اليمني إلى مكة المكرمة، كما سيأتي. أما تاريخ هذه المعركة، فلم يشر إليه في المصادر التاريخية المتاحة، ناهيك عن الشعر الذي من المعروف أنه لا يعير الزمان اهتمامًا، وإن كانت القصيدة المشار إليها تتضمن في أحد أبياتها الإشارة إلى أنها حدثت في أوائل شهر محرم الحرام:

ولَمَّا عَلِمْنَا الكُفْرَ مِنْهُمْ وأنَّهُمْ جِهادُهُم فَرْضٌ على كُلِّ مُسْلِمِ
وتَرْناهُم في قَتْلِهِمْ فِي مُحَرَّمٍ حُسَيْنًا. فَجِئْنَاهُمْ لأولى مُحرَّمِ(١)

فإذا كانت هذه الحادثة قد جاءت ردًّا على تعيين ابن البصري حاكمًا على حرض في أواخر أيام الملك المنصور كما أسلفنا، فمن المحتمل أن معركة استرداد حرض وقعت في أوائل شهر محرم سنة ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م، أي مباشرة بعد وفاة الملك المنصور، وفي أثناء محاولات الملك المظفر استرداد ملك والده، والتخلص من أنصار أخيه الملك المفضل(٢). أما إذا كانت بعد ذلك،

(١) يقصد الشاعر قتل الحسين بن علي ﷺ في العاشر من شهر محرم، وربما كان ذلك مراعاة للممدوحين لنسبتهم إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، أخي الحسين بن علي.

(٢) عن جهود المظفر في استرداد ملك أبيه، والوصول إلى السلطنة، أنظر: ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ٨٨ - ٩٢؛ الديبع، قرة العيون، ج ٢، ص ٢١ - ٢٨.

فلا بد أنها وقعت قبل سنة ٦٥٧ هـ/ ١٢٥٨ م؛ لأن هذا العام شهد وفاة الأمير شمس الدين الحمزي[١]، وبالتالي فمن المؤكد أن هذه الحادثة والقصيدة التي تؤرخ لها، وقعتا في حياة الأمير، وليس بعد مماته. وإذا جاز لنا ترجيح أحد الاحتمالين، فإن الاحتمال الأول هو الراجح، لأن ابن البصري قدم على السلطان الملك المظفر، وسأله الذِّمام، فأذمَّ له.وعندما استقرت له الأمور، أقطعه حَيْسًا ومَوْزَعًا بدلاً من حرض التي رجحنا أن بني سليمان استردوها[٢].

غير أن الملك المظفر ربما استرد مدينة حرض في السنة نفسها، وفي خضم الأحداث المحيطة بتمكنه من استرداد ملك والده، والنجاحات المتواصلة التي حققها في سبيل ذلك، أو أنه ربما أوكل أمر استردادها إلى صاحب إقطاعها الجديد الذي خلف ابن البصري، وهو الأمِيْني[٣]. ويبدو أن الأميني الذي لا يعرف في المصادر المتاحة إلاً بلقبه هذا، ولعله جاء من أمين الدولة - تمكن من مباشرة إقطاعه بنفسه، ولعله دخل في حروب مع الغوانم، وأخذ يهددهم في عقر دارهم في المخلاف، ووصل في بعض حروبه معهم إلى قرية الجُرُوْب بالقرب من مدينة صبيا الحالية[٤]. ولكن الغوانم بقيادة القاسم بن علي الذروي، أخي خالد بن علي سابق الذكر، نجحوا في صد الأميني عن ديارهم، وشنوا حملة موفقة على حرض، تمكنوا فيها من هزيمة الأميني، واسترداد جميع مناطق نفوذهم بما فيها مدينة حرض نفسها، وللأسف الشديد أن هذه الأحداث لم تسجل في المصادر التاريخية الميسورة، ولكنها وصلتنا عن طريق قصيدة عثر عليها في ديوان الشاعر القاسم بن هتيمل، ومنها قوله[٥]:

يُجْتَنى اليُمْنُ مِنْ يَمِيْنِ أَبِي خَالِدٍ   والْـيُـسْـرُ كُـلُّـهُ مِـنْ يَـسَـارِهْ

(١) عن وفاة المتوكل شمس الدين أحمد بن الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة، أنظر: العرشي، بلوغ المرام، ص ٤٩.

(٢) ابن حاتم، السمط، ص ٢٤٦، ٢٦٢.

(٣) ابن حاتم، السمط، ص ٢٦٢.

(٤) العقيلي، المعجم الجغرافي، ص ٧٠.

(٥) الديوان، ص ٦٠ - ٦١.

كَانَ يَوْمُ الجُرُوبِ أشْنَعُ مِنْ كَسْرةِ　　كِسْرى والْفُرْسِ في ذِي قَارَةْ
فالأمِينِيُّ مِنْ بِرازِكَ وَلَّى　　عَنْ عَلِيٍّ فِي كَفِّه ذُو فِقَارهْ
وَرَأى فِي الفِرارِ فِي يَوْمِ رِحْبَانَ　　فَكَانَتْ حَيَاتُهُ فِي فِرارِهْ[1]
ودَلَفْتُم إلى المَعِيْنِ إلى بَيْشٍ　　فَلاَقى وُقُوعُكُمْ بِمَطَارِهْ
لاذَ بالدَّرْبِ ثُمَّ أدْلَجَ يَسْتَرْ　　جِفُ لمَّا نَزَلْتُمُ لِحِصَارِهْ

* * *

وتَعَزَّزْتَ في الرَّجِيْعِ عَلى قَوْمٍ　　أذَلُّوا العَزِيْزَ فِي أمْصَارِهْ
وأذَاقُوا الحَمْزِيَّ كَيْما يبُزُّوا　　مُلْكَهُ مِن بَرَاشِهِ وظفَارِه[2]

ويعتقد أن هذه الحوادث وقعت قبل سنة ٦٥١ هـ/ ١٢٥٢ م، لأن الأميني، صاحب إقطاع حرض، لم يكن فيها في أواخر هذه السنة، ولم يسند إليه أيّ إقطاع آخر بعد هزيمته في يوم رحبان بحرض، وإنما كان ضمن مقدمي الجيش الرسولي الذين أرسلهم السلطان الملك المظفر في السنة المذكورة تحت قيادة الأمير شمس الدين إلى الجوف، ولم يسمع عنه بعد هذه الحادثة[3]. كما أن المصادر الميسورة لم تشر إلى أن السلطان الرسولي أقطع

(١) الجُرُوب من قرى الحسيني بالقرب من صبيا، والرَّجِيْع من قرى الجعافرة بين قريتي البطيح والحقاوية، رَحْبَان، واد يروي مزارع مدينة حرض، ومجراه يمر من تحت المدينة، ويوم الجروب، ويوم الرجيع، ويوم رحبان، لعلها من الأيام التي شهدت حروبًا طاحنة بين الرسوليين والأشراف السليمانيين، وانتصر فيها الأخيرون على أعدائهم. أنظر: الذروي، الديوان، ص ٨٤؛ العقيلي، المعجم الجغرافي، ص ٧٠ - ١٠٧.

(٢) يشير الشاعر إلى قوة خصوم ممدوحه، وأنهم تغلبوا على الأيوبيين في مصر، وعلى الأمير شمس الدين أحمد بن المنصور بالله في حُصْنَيْه المشهورين (بَرَاش)، و(ظَفَار)، ومع ذلك هزمهم الأشراف السليمانيون بقيادة القاسم بن علي الذروي، وأجلوهم عن ديارهم.

(٣) أنظر ابن حاتم، السمط، ص ٣١٦.

حرضًا لأي من رجاله بعد الأميني، وإن كنا نعتقد بوجود احتكاك ما بينهم، وبين بني سليمان قبل سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م، بسبب النزاع على إدارة حرض وامتلاكها. ولعل الرسوليين استعادوها في وقت ما بعد طرد الأميني منها، ثم استردها السليمانيون بدورهم من عمال بني رسول، يتضح ذلك من هذه القصيدة التي قيلت في مدح الأمير القاسم بن علي الذروي، ومنها[١]:

أغَـرُّ رَسُـولِـيٌّ يُـزِرُّ قَـمِـيْـصَـهُ عَـلـى خَـيْـرِ مَـوْلُـودٍ وأكْـرَمِ وَالِـدِ
يُسَاعِدُهُ القَلْبُ الأصَمُّ وسَيْفُهُ إذَا كَانَ في الدُّنْيَا قَلِيْلَ المُسَاعِدِ
شَهِدْتَ أبَا الْمَنْصُورِ واللهُ شَاهِدٌ بِـمَـا قُـلْـتُـهُ والـلـهُ أكْـبَـرُ شَـاهِـدِ
لَمَا نَقَمَتْ أبْنَا سُلَيْمَانَ ثَأرَهَا ولاَ جَاهَدَتْ في اللهِ لَوْ لَمْ تُجَاهِدِ
أتَاحَتْ لأهْلِ السَاعِدِ الموْتَ بَعْدَمَا غَدَتْ حَرَضٌ رَأسًا وَلَيْس بِسَاعِدِ
وقدْ ظَنَّتِ الأتْراكُ أنْ لَيْسَ مَخْرَجًا إلَيْهِمْ وألاَّ غَزْوَ مِنْ بَعْدِ خَالِدِ[٢]
فـوافَـيْـتَـهُـمْ فـي عُـصْـبَـةٍ طَـيِّـبـيَّـةٍ كِرَام اللِّحى عِنْد الْتِحامِ الشَّدائِدِ

* * *

إذا أصْـدَرُوهـا كُـنْـتَ آخِـرَ صـادِرٍ وإنْ أوْرَدُوهَــا كُــنْــتَ أوَّل وارِدِ
ولَمَّا الْتَقى الجَمْعَانِ أيْقَنَ كَبْشُهُمْ بِـصَـعْـقَـةِ مَـطْـرُودٍ وقُـوَّةِ طـارِدِ
وعَـانَـقَ حـدُّ الـسَّـيْـفِ كُـلَّ مُـعَـاوِدٍ مَـعَـانَـقَـةَ الـوِلْـدَانِ دُوْنَ الـوَلاَئِـدِ
وَرَاحُوا واعْلاَجُ المَجُوسِ رُؤُوسُهُمْ وَسائِدُهَا فِي الأرْضِ شَرُّ الوَسائِدِ

---

(١) ابن هتيمل، الديوان، ص ٤٨ - ٥١.

(٢) السَّاعِد، يطلق على الناحية التي فيها مدينة حرض، وقيل اسم قرية في تلك الناحية، أنظر: الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٥٦؛ الأكوع، البلدان اليمانية، ص ١٣٣؛ العقيلي، المعجم الجغرافي، ص ١١٦ - ١٨. ويفهم من هذا البيت:
وقد ظَنَّتِ الأتراكُ أن ليس مخرجًا إليـهـم وألا غَزْوَ من بعـدِ خـالـدِ
أن خالد بن علي الذروي، أخا القاسم، توفي قبل هذه الوقعة التي يظن أنها كانت بين سنة ٦٥١ هـ/ ١٢٥٣ م، وسنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م.

إذَا مَا رِمَاحُ الخطِّ لَمْ تُرْدِ هَارِبًا   إلى الدَّرْبِ أرْدَتْهُ رِمَاحُ المَكَائِدِ

* * *

أدَرْتَ عَلَيْهِمْ خَمْرَ مَوْتٍ مِزَاجُهَا   دِمَاءُ جَوارٍ مِنْ عَنِيْدٍ وَعَانِدِ

وَجِئْتُم بِهَا بَيْضَاءَ كالشَّهْدِ حُلْوَةً   إذَا ذُكِرتْ لَمْ تُخْزِكُمْ فِي المشَاهِدِ

أما ما ذهبنا إليه سابقًا عن كون هذه الأحداث التي وردت في هذه القصيدة، ربما وقعت قبل سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م، فيمكن استنتاجه من أحد أبياتها المتضمن الإشارة إلى شخصيتين معروفتين ومعاصرتين لهذه الأحداث، هما من يعني الشاعر بقوله[(١)]:

تَوهّمْتُ فِي حُبِّي لِمَنْ هُوَ خَالِصٌ   ألِلْقَاسِمِ الذُّرْوِيِّ أمْ لِلأحَامِدِ؟

ويفهم من كلمة «الأحامد» أن هاتين الشخصيتين التي حملهما الشاعر على محمل الجمع، هما: الإمام أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م، والأمير شمس الدين أحمد بن المنصور بالله الحمزي المتوفى بعد الأول بسنة أو بسنتين[(٢)]. وهما ممن أكثر الشاعر من مديحهما، ونال كرمهما في حياتهما[(٣)].

ومن الوقائع التي قامت بين عمال بني رسول والغوانم، بسبب السيطرة على حرض في أيام السلطان الملك المظفر، ما نعتقد بحدوثها بعد سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣ م، إذ ربما حاول الرسوليون بعد هذا التاريخ إسناد ولاية حرض إلى أحد رجالهم، أو إقطاعها له، فتصدى لهم السليمانيون بقيادة الأمير القاسم بن علي

---

(١) ابن هتيمل، الديوان، ص ٥١.

(٢) أنظر: العرشي، بلوغ المرام، ص ٤٩؛ الواسعي، تاريخ اليمن، ص ١٩٧. حَمْل المثنى على محمل الجمع جائز في اللغة العربية مثل قول الله تعالى: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) الآية، ٤، سورة التحريم، وقوله تعالى: (السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما)، الآية ٣٨، سورة المائدة، وانظر ملاحظة الشارح في الديوان، ص ٥١.

(٣) عن مدائح ابن هتيمل لهاتين الشخصيتين، أنظر: الديوان، ص ١١٠ - ١٥٧.

الذروي، وأجلوهم عنها. وفي ذلك يقول الشاعر ابن هتيمل[1]:

يَا قَاسِمَ بنْ عليّ دَامَ لَكَ الَّذِي ... يَكْوِي ويُنْضِجُ أكْبُدَ الحُسَّادِ
يَكْفِيْكَ عَنْ شَرَفِ الأوَائِلِ هِمَّةٌ ... شَهَرَتْكَ فِي الأغْوارِ والأنْجَادِ
ألْزَمْتَ نَفْسَكَ خِطَّةً لَمْ تَتَّكِلْ ... فِيْهَا على الآبَاءِ والأجْدَادِ

* * *

هَيْهَاتَ أنْ تَرِدَ الكَتَائِبُ جَهْلَتَيْ ... بَيْشٍ وأنْتَ لَهُنّ بِالمِرْصَادِ
إيَّاكَ تَرْبِيَةَ الأعاجِمِ مِثْلَمَا ... رَبَّى أبُو حَسَنٍ شَقِيَّ مُرادِ
أعْدَمْتَهُمْ حَرَضًا ومَا أجْلاَهُمُ ... المَهْدِيُّ عَنْ حَرَضٍ وآلُ الهَادِي
فَكأنَّهُم بَيْتٌ بِلا عَمَدٍ وهَلْ ... بَيْتٌ يَقُوْمُ لَهُمْ بِغَيْرِ عِمادِ؟!
ذَهَبُوا ومَاتَ الخَوْرُ في آثارِهِمْ ... فَكأنَّما كانُوا على مِيْعَادِ
ودَمَغْتَهُمْ بالخَيْلِ حتَّى يَلْحَقُوا ... بِحَدِيْدِ بأسِكُمُ ثمُودَ وعَادِ

* * *

أما ما ذهبنا إليه من احتمال أن هذه الوقعة الواردة في القصيدة المشار إليها، كانت بعد سنة ٦٦٢ هـ/ ١٢٦٣ م، فقد بُني هذا الاحتمال على الإشارة في بعض أبياتها إلى المهدي وآل الهادي. ويغلب على الظن أن المهدي هو الإمام المهدي لدين الله إبراهيم بن تاج الدين بن بدر الدين من آل الهادي، الذي قام بالإمامة في سنة ٦٦٢ هـ/ ١٢٦٣ م، ولبث جل عهده في صراع مع بني رسول حتى أسروه في سنة ٦٧٤ هـ/ ١٢٧٥ م، وأودعوه سجن تعز، فمكث فيه حتى وفاته في سنة ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م/ ١٢٨٤ - ٨٥ م[2].

وهكذا يعتقد أن تلك الوقعة بين عمال الملك المظفر وبني سليمان، والمعاصرة للإمام المهدي وعشيرته من آل الهادي، حدثت في الفترة ما بين سنة ٦٦٢ هـ/ ١٢٦٣ م إلى سنة ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٣ - ٧٤ م، أي قبل وقوع الإمام

---

(١) الديوان، ص ٥٤ - ٥٥.

(٢) العرشي، بلوغ المرام، ص ٤٩ - ٥٠؛ الواسعي، تاريخ اليمن، ص ١٩٨ - ١٩٩.

المهدي في الأسر بسنتين، لأن هذه السنة الأخيرة شهدت أحداثًا أخرى تتعلق بمدينة حرض خاصة، والمخلاف السليماني بصفة عامة. فقد كان أمير حرض من قبل السلطان المظفر، في هذه السنة، أي في سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣ - ٧٤م، هو الأمير عزيز الدين أَلْطِنْبُغَا، وهو أول أمير لحرض يرد ذكره في مصدر تاريخي منذ تعيين الأميني أميرًا عليها في سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وكانت بعض جهات حرض تخضع خضوعًا مباشرًا له، وبعضها الآخر له عليها جباية معلومة[(١)]. فحدث أن استدرجه أحد مشايخ تلك الجهات الأخيرة، وذلك بأن طلب إلى الأمير أَلْطِنْبُغَا أن يصحبه مجموعة من رجاله لتسليمهم ما ينبغي عليه دفعه للأمير. فلما خرجوا إلى موضعه، وكان عددهم أربعين فارسًا، ومثلهم راجلين، هاجمهم بالاشتراك مع قومه، فقتل أحد الفرسان، واستولى على خيل الباقين، وشتت جموعهم[(٢)]. فقرر الطنبغا الثأر لرجاله، فطلب من الأمير أبي سيفين، أمير باغتة، أن ينجده بمائة فارس من بني عمه السليمانيين والعلويين، بالإضافة إلى مائتي فارس، ومائة راجل من الغز. وعندما تقدموا إلى ديار المخالفين على أمير حرض، انهزم الغز شر هزيمة، وقتل منهم سبعون فارسًا وسبعون راجلاً. وكانت هذه الهزيمة بممالأة من أبي سيفين الذي كان بيده عَلَم العسكر الرسولي، فأظهر الهزيمة نكاية بالرسوليين، الأمر الذي أثار عليه حنق عزيز الدين الطنبغا[(٣)].

وعندما تشتت العسكر الرسولي لا يلوى على أحد، تمكن شريف آخر يدعى علي بن خالد من لم شتاته، وإرجاعه إلى حرض. فبالغ أميرها في إكرامه، وكافأه مكافأة سخية، ثم عاد إلى بلده، وفي أثناء عودته، عرج على باغتة، وقابل الأمير أبا سيفين بها، وأخبره بإكرام عزيز الدين الطنبغا له، فطلب منه أبو سيفين العودة معه إلى حرض، لينال بدوره شيئًا من إكرام أميرها. وعلى الرغم من امتناع الشريف علي بن خالد من العودة إلى حرض،

---

(١) ابن حاتم، السمط، ص ٤٣٢.

(٢) ابن حاتم، السمط، ص ٤٣٣.

(٣) ابن حاتم، السمط، ص ٤٣٤.

فإن أبا سيفين ألحّ عليه حتى وافق على صحبته. فذهب أبو سيفين، ومعه ابنه، وابن أخيه بصحبة الشريف علي بن خالد إلى حرض وما أحسّ أميرها إلاّ بوجودهم في داره، على الرغم مما بذله من أموال طائلة لمن يأتي له بأبي سيفين للموجدة التي وجدها عليه، بسبب خيانته لعسكره. فألقى القبض عليهم جميعًا، وأودعهم السجن[1].

ولما علمت زوجة أبي سيفين بسجن زوجها، وولدها استنجدت بالأعراب وبالأشراف، فهبت لنجدتها قبائل العرب من المخلاف والحجاز حتى بلغ مجموع هذه القبائل سبعين قبيلة غصّ بهم خبت الخموس الواقع بين جازان وباغتة. فشاع القلق والإرجاف في حرض، وخاف أميرها وعساكره من هذه الجموع المحتشدة، فطلبوا من أبي سيفين أن يبعث لهذه القبائل التي جاءت لنجدته، كتبًا يحثهم فيها على العودة من حيث أتوا. فكتب لهم بناءً على رغبة الأمير، وقال له: «قد كتبت امتثالاً، وأنا أعلم أنه لا يثمر ولا يجدي، ولو كتبت ألف كتاب بعده؛ لأن هذا جمع مختلف من كل جهة، ولو كنت في باغتة أيضًا ما استطعت إرجاعهم، فضلاً عن أكون في السجن»[2]. فأرسل الأمير من يوصل كتاب أبي سيفين إلى زعيم أولئك العرب حسن بن موسى، أمير حَلِيْ، من بني حرام[3]، فلما قرأ حسن الكتاب، قال لرسل أمير حرض: «ارجع إلى أميرك، وقل له: إن أحب أن يقف، أو أحب أن ينجو بنفسه، فليس

---

(١) ابن حاتم، السمط، ص ٤٣٦.

(٢) ابن حاتم، السمط، ص ٤٣٧.

(٣) أنظر: أحمد الزيلعي، بنو حرام، ص ١١٣. بنو حرام نسبة إلى حرام بن كنانة بن خزيمة بن مدركة، أسرة محلية حكمت حلي بن يعقوب في العصور الإسلامية الوسيطة، وكانت علاقاتها وثيقة بأمراء المخلاف السليماني، ثم ببني رسول، وأشراف مكة، ولبث بعض أفرادها في الحكم حتى العصور الحديثة. أنظر: ابن الأهدل، علماء اليمن، مخطوط، ورقة ٤ ب؛ الخزرجي، العقد الفاخر، مخطوط، ورقة ٨٤ أ؛ أحمد الزيلعي، المرجع نفسه، ص ١٠١ - ١٢٢؛
Al-Zaila^ci. "The Southern Area", PP. 479-482.

هو في الحساب ولا من معه، وإنما قصدنا زبيد وعدن»[١].

فلما عاد الرسل إلى حرض، وأخبروا أميرها برد هؤلاء الأعراب، اتخذ قرارًا لا رجعة فيه، وذلك بأن عمد إلى شنق أبي سيفين وابنه، وكحل ابن أخيه، وترك الشريف علي بن خالد مسجونًا[٢]. ثم أخذ في تحصين مدينته، ونصب الأشراك الخداعية حولها، وعمل على تغوير المياه والموارد، وتسميم ما بقي منها، وعيّن من يقوم بتخذيل هذه الجموع الحاشدة، وبث الفرقة والبغضاء بين فئاتها المختلفة، وشحن دور المدينة بالرماة، والنشّابين، والنّقّاطين، وغير ذلك من وسائل الدفاع التي لا يعرفها العرب، ولا يطيقون مقاومتها، في الوقت الذي أحاطت تلك الجموع بمدينة حرض إحاطة السوار بالمعصم، وفرضت عليها حصارًا شديدًا من كل جانب[٣].

وعلى الرغم من شدة الحصار المفروض على مدينة حرض، وكثرة تلك الجموع، ومجيء الأمير داود بن المنصور الزيدي (ت ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م) لنصرة زوجة أبي سيفين[٤]، فإن الأمير عزيز الدين الطنبغا ورجاله تمكنوا من تفريق الأعداء، وتشتيتهم بما استخدموه من وسائل دفاعية لا قِبَلَ للعرب بها، كدبابيس النفط، والأشواك المسمّمة، ونحو ذلك، مما أجبرهم على ترك حرض وشأنها، والعودة إلى أوطانهم بمن فيهم الأمير داود بن المنصور ورجاله[٥]. وقد امتدح ابن حاتم - مؤرخ هذه الفترة والوحيد من بين المؤرخين اليمنيين الذين وصلت أعمالهم إلى أيدينا، وانفرد بهذه الرواية -

---

(١) ابن حاتم، السمط، ص ٤٣٧.

(٢) ابن حاتم، السمط، ص ٤٣٨.

(٣) ابن حاتم، السمط، ص ٤٣٨.

(٤) جاء الأمير داود بن المنصور بالله بناء على رغبة زوجة أبي سيفين التي طلعت إليه وقالت: «إني طلبت نصرة العرب، فلم ينصروني، ولا بد أن تنصرني أنت وتأخذ البلاد، فكل شيء يكون للأمير، فهو لك، ولا أريد منك سوى الأمير وولده... فأجابها إلى ذلك وجمع الجموع» أنظر: ابن حاتم، السمط، ص ٤٤٠.

(٥) ابن حاتم، السمط، ص ٤٤٥.

شجاعة عزيز الدين، وحسن تصرفه، بقوله: «فلله درّ الأمير عزيز الدين في هذه القضية فلقد ثبت فيها، ولم يَسْتَخِفّ، وأعانه الله تعالى»[1].

غير أن ابن حاتم الذي ركّز على إبراز دور ألطنبغا، لم يوضح لنا من هو شيخ القبيلة الذي استدرج عسكر أمير حرض؟ وما هي بواعث عمله هذا؟ ومن هو أبو سيفين أمير باغتة؟ وكيف يثق به ألطنبغا، ويسلمه عَلَم عسكره، وهو يعلم ما بينهم وبين بني سليمان من عداوات؟ وهل بقي الأخير أميرًا على حرض بعد هذه الحادثة أم أنه تركها؟ وهل حدث رد فعل منظم من قِبَلِ أهل المخلاف ردًّا على كسرتهم تلك، وثأرًا لشنق أبي سيفين ونجله؟، كل هذه الأسئلة تفتقر إلى إجابات محدّدة يغفلها ابن حاتم، ويصعب على المرء في ظلِّ ضحالة المعلومات عن هذه الفترة، التوصل إلى إجابات محددة عنها. ولكن لا بأس من الاجتهاد في محاولة لتقديم بعض التفسيرات للأحداث المحيطة بهذه الوقعة.

ولعل أهم ما يمكن استنتاجه من هذه الحادثة هو كراهية أهل المخلاف السليماني للحكم المباشر لبني رسول على أيّ جزء من منطقتهم، ناهيك عنها كلها، وكراهيتهم أيضًا لعساكرهم من الغز، وما فعله شيخ القبيلة المذكور برجال أمير حرض، يعدّ نكاية تعبر عن تلك الكراهية، ناهيك عن عدم إخلاص أبي سيفين في المعركة التي كان طرفًا فيها إلى جانب الرسوليين، والاستجابة المنقطعة النظير من قِبَل قبائل العرب لاستغاثة زوجة أبي سيفين الرامية إلى إطلاق سراح زوجها وابنها من أسر ألطنبغا، والتي تَعَدَّت مهمتها تلك إلى التهديد بالوصول إلى زبيد وعدن، وإسقاط الدولة الرسولية طبقًا لإجابة أمير حلي، حسن بن موسى التي سبقت الإشارة إليها.

أما شيخ القبيلة الذي استدرج العساكر الرسولية إلى دياره، والتنكيل بهم، فإننا لا نعرف عنه، ولا عن قبيلته شيئًا؛ وإن كنا بحكم الإشارة في هذه الرواية إلى «كور الجماجم» يمكن تحديد موقع هذه القبيلة. فكور الجماجم

(١) ابن حاتم، السمط، ص ٤٤٥.

اسم لموقع غير معروف في المصادر الجغرافية المتاحة، وإن كان العقيلي يذكر في معجمه أن الكور أحد الأودية الواقعة في جنوبيّ منطقة جازان[1]، فإذا كان اسم هذا الموقع «كور الجماجم» جاء من اسم هذا الوادي لموقعه منه، فإن قبائله في ذلك الوقت هي من قبائل المخلاف السليماني المعروفة بكراهيتها، ومقاومتها لأيّ حكم أجنبي يأتيها من خارج حدودها. وهي لا تبعد كثيرًا عن مدينة حرض في اتجاه الشمال، وإن إقدامها على عملها المشار إليه تجاه ألطنبغا ما هو إلاّ تعبير عن عدم رضاها بالدخول في طاعة أمير عُيّن عليها مباشرة من قبل سلطان بني رسول الملك المظفر.

أما الأمير أبو سيفين المذكور في هذه الحادثة بكنيته فقط، فهو مجهول في المصادر المتاحة، وإن كان وصفه بأمير باغتة يعطي ذريعة للاجتهاد؛ فقد سبقت الإشارة إلى أن أمراء باغتة في ذلك الوقت، هم فرع من الغوانم يعرفون ببني وهّاس، واشتهر منهم في تلك الفترة إثنان هما: وهّاس بن سليمان بن منصور بن أحمد بن غانم بن يحيى بن حمزة، وابنه سليمان الكبير. وكان وهّاس قد اشترك في معارك تحرير حرض السابقة مع باقي أبناء عمه من الغوانم ضد عمّال بني رسول. وهو الذي قيل في مديحه، تقديرًا لما أبداه في إحدى تلك المعارك من شجاعة، هذه القصيدة التي جاء في بعض أبياتها[2]:

إلى ابْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ مَنْصُورَ أرْقَلَتْ ... بِنَا أرْحِبِيَّاتٌ مرافِقُهَا فَتْلُ
إذا بَلغتْ وهَّاسَ قِبْلَةَ قَصْدِهَا ... فَما بَعْدَهُ بَعْدٌ ولا قَبْلَهُ قَبْلُ

* * *

شَمَائِلُ وَهَّاسِيَّةٌ غَانِمِيَّةٌ ... هِي الْفَرْعُ مِنْ رُوحِ الإمارةِ والأصْلُ
أنَاسٌ كِرامٌ بالنُّفُوسِ لَدى القَنَا ... ولكنَّهُمْ فِيْهِمْ بأعْراضِهِمْ بُخْلُ
دَلَفْتَ لِحَربِ الخَالِعِيْنَ بِعَارِضٍ ... أحَمَّ الحَواشِي وذُقَّةُ الخَيْلُ والرَّجْلُ

---

(١) العقيلي، المعجم الجغرافي، ص ١٩٨؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٣٢ - ٣٣.

(٢) ابن هتيمل، الديوان، ص ٦٩ - ٧٠.

بِكُلِّ حمِيِّ الأنفِ يَهْدِرُ شِدْقُهُ — وتَزْبدُ لِحْيَاهُ كَمَا يَهْدِرُ الفحلُ
فَولَّى إيَاسٌ والرِّماحُ تَنُوشُهُ — كَأنَّ بهِ خَبْلٌ ولَيْسَ به خَبْلُ
تَراهُ لِخَوْفِ القتْلِ يرْعَشُ جِسْمُهُ — ومِنْ دُونِهِ البابُ المُضبَّبُ والقُفْلُ
وَلوْ كان ذا عقْلٍ جَرى قبل ما جَرى — عَلَيْهِ ولكِنْ مَا لِسائِمةٍ عَقْلُ
ولولاَ دُخُولُ الدَّرْبِ أصْبَحَ عَانِيًا — وَفِي رِجْلهِ قَيْدٌ وفي رِجْلهِ غُلُّ

ويعتقد أن اشتراكه في هذه الوقعة كان مبكرًا، لارتباطها بفخر الدين إياس الشّلاح، وهو من رجال الملك المنصور، ومماليكه، وكان واليًا على مكة من قِبَلِ الأخير في سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١ - ٤٢م، وبقي بها حتى سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م، عندما عزله عنها في تلك السّنة، وأقطعها لابن المسيّب[١]. ولم نجد له ذكرًا في الأحداث التي جرت بعد عزله عن إمارة مكة، ولا نعرف شيئًا عن تاريخ وفاته، وإن كان في حكم المؤكّد أنه كان من المماليك الذين استعملهم الرسوليون بعد ذلك، وربما عاش إلى أيام السلطان الملك المظفر، واشترك في معارك المخلاف السليماني مع الأميني السّالف الذكر بين سنة ٦٤٨ - ٦٥١هـ/ ١٢٥٠ - ١٢٥٣م، لكون هذه القصيدة مثل سابقتها التي ورد فيها اسم الأميني، مرتبطة في بعض أبياتها بالدّرب التي أوضحنا سابقًا، أن المقصود بها دَرْب النَّجَاء، أي مدينة جازان العليا، عاصمة المخلاف السليماني في هذه الفترة. يضاف إلى ذلك أن الأمير وهّاس كان وقت وقوع هذه المعركة في عمر الشّباب بدليل قول الشّاعر:

دَلَفْتَ لِحَرْب الخالِعيْنَ بِعَارِضٍ — أحمَّ الحَواشِي ودقُهُ الخيْلُ والرُّجُلُ

أما ولده سليمان بن وهّاس، فقد اشتهر في حياة والده بفضل موقفه من الدفاع عن الشّاعر القاسم بن هتيمل عند محاولة القبض عليه بناءً على أوامر من الملك المظفر، وقصّة القبض على ابن هتيمل مشهورة في كتب الأدب المحلِّي للمنطقة، ويتناقلها الأهالي ممن لهم اطّلاع على الأدب، جيلاً بعد جيل[٢].

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، جـ ٨، ص ١٦٠، ١٧٥.

(٢) خلاصة هذه القصّة، أن الأمير وهّاس كان في ضيافة الملك المظفر عندما بعث =

وذلك بفضل تلك القصيدة التي مدح بها ابن هتيمل الأمير وهّاس والتي حفظت لنا هذه القصّة على مر الأجيال. ومما جاء في هذه القصيدة السينية قوله[1]:

لاَ تَطْلُبِ الرِّزْقَ إنْ فاتَتْكَ عارِفَةٌ ... إنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ سُلَيْمَانَ بْنِ وهَّاس
القائِلِ الفاعِلِ الطَّلْقِ الغَضَنْفَرَةِ ... البَحْرِ الخِضَمِّ الأشمِّ الشَّامِخِ الرَّاسِي

* * *

فَخْرًا بني غَانِمٍ درَّتْ لكُم نَعَمُ الدُّنْـ ... ـيا انْثيالاً. بلا مسْحٍ وإبْساس
أيَّامُنَا بِكُمُ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ ... فَنَحْنُ فِي جُمَعٍ مِنْهَا وأعْراسِ
كَمْ مِنْ يدٍ لك عِنْدِي قَدْ بَدَدْتَ بهـ ... ـا وسْواسَ كُلِّ ذَمِيْمِ الخُلْقِ دَسَّاسِ
أخْرَجْتَنِي مِنْ لَهَاةِ اللَّيْثِ مُنْتقذًا ... حُوبَاي مِنْ بيْنِ أنْيَابٍ وأضْرَاسِ

* * *

= بسرية من الخيل إلى جازان لجلب الشاعر القاسم بن هتيمل لما علمه من الاتّصال بأمراء حلي، والتّعريض به عندهم بقوله:

إنَّ الملوكَ بني يعقوبَ قاطبةً ... طُرًّا وكلُّ ملوكٍ غيرهم سُوَقُ

فلما علم ابن هتيمل بوصول السّرية لأخذه، التجأ إلى بيت الأمير وهّاس، فمنعه منهم ابنه سليمان بن وهّاس، وكان صبيًّا لم يبلغ الاحتلام. فلما عادت السّرية أخبرت السّلطان أن سليمان تعرض لهم بخيل ورجال واستخلص الشّاعر منهم قسرًا. فلام السّلطان الأمير وهاس على ما فعله ابنه. فقال الأمير وهّاس: إن ابني صبي لم يدرك، ولا يعقل أن يقاومهم. فأمر السلطان بإحضاره، وأقر بأنه استخلص الشاعر بمفرده، وتحدى أفراد السرية لمبارزته، فعفا عنه السلطان، وأكرمه. ولما حضر الشاعر، وسأله السلطان عن البيت السابق المنسوب إليه، قال: أطال الله عمر السلطان إنما قلت: «وكل ملوك غيرهم سبقوا» فاستحسن السلطان تخلصه، وعفا عنه رعاية للأمير السليماني، فقال ابن هتيمل قصيدته السينية المذكورة في المتن. أنظر: النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ١٢١ - ١٢٢؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢١٨؛ وانظر: مقدّمة الشّارح في ديوان ابن هتيمل، ص ٢٧ - ٢٩.

(١) ابن هتيمل، الديوان، ص ٦٥ - ٦٧.

فلَوْ أطاعَكَ جِيْراني بِفِعْلِهِمُ　　في عجْزِهِمْ ضَرْبَ أخْماسٍ بأسْداسِ
مَا رُحْتُ في أسْرِ أجْنَادٍ سواسِيَةٍ　　مراحَ زَيْدَانَ فِي أسْرِ ابْنِ بُرْطاسِ
هَدِيَّةً يتَحظَّى بِي مُقَدِّمُها　　عِنْدَ المُظَفَّرِ أوْ عِنْد ابْن دَعَّاسِ

فهل أبو سيفين هذا هو الأمير وهّاس؟، وهل ابنه سليمان هو الذي قتل معه شنقًا على يد رجال عزيز الدّين ألطنبغا؟ والواقع أنه من الصعب الإجابة بشكل محدّد عن هذا السؤال. ولكن هناك بعض القرائن التي تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن أبا سيفين، وابنه المقتول معه، ما هو إلا وهّاس وابنه سليمان المذكورين أعلاه، بدليل أن المؤلف وصف الأول بأنه أمير باغته، وليس لباغته: أمير آخر في هذه الفترة غير وهّاس، أو أحد أبنائه. يضاف إلى ذلك، وهو الأهمّ، أن الملك الأشرف يقرر أن سليمان بن وهّاس الذي يصفه بسليمان الكبير توفي مع والده، دون أن يذكر أسباب الوفاة[1]، مما يغلب على الظن أنه توفي مع والده مقتولاً في الحادثة المذكورة، ولكن الملك الأشرف الذي غدا فيما بعد ولي عهد السلطان، وثاني رجل في الدولة، ربما تحاشى ذكر القتل الذي كان على يد أحد مماليكه، ورجال دولته، لأن الخوض في هذا الأمر من شأنه أن يثير مشاعر بني سليمان، ويثير بالتالي مشاعر سكان المخلاف السليماني، أو منطقة جازان الذين يدينون بولائهم التقليدي لأمرائهم السليمانيين.

أما كيف يثق عزيز الدين ألطنبغا بأبي سيفين، أو وهّاس، إن صح ما ذهبنا إليه، فربما يعود إلى بعض الروابط الشّخصية الجيّدة التي كانت ترتبط وهّاس بالملك المظفر، ثم ببعض مماليكه، ومنهم ألطنبغا نفسه، بدليل قيام وهاس بزيارة الملك المظفر غير مرة، ومنها تلك التي كانت في زبيد والتي تزامنت مع محاولة القبض على الشّاعر القاسم بن هتيمل، وهو ملتجئ ببيت وهّاس في أثناء غيبة الأخير في زبيد في زيارته تلك للملك المظفّر[2]. ويؤكّد

(١) طرفة الأصحاب، ص ١١٠.
(٢) العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢١٨.

هذه العلاقة الشّخصية بين السّلطان وأمير باغتة ما جاء في محاورة سليمان بن وهّاس مع الرجال الذين جاءوا للقبض على الشّاعر ابن هتيمل عندما قال لهم: «إن ابن هتيمل قد استجار بنا والسّلطان يحبّ رعايتنا، ووالدي في حضرته، فأرجو أن تتركوه وللسّلطان رأيه فينا وفيه»[1]، ويؤكّدها أيضًا قول الشّريف علي بن خالد الذي نزل ضيفًا على أبي سيفين في باغتة، عندما طلب منه الأخير العودة معه إلى حرض لينال جائزته من أميرها: «أنت أيها الشّريف عَلاَّم الدولة، وصاحب الأمير، ولو وصلت إليه لاستصغرت إليَّ عند إحسانه إليك»[2].

وهكذا نلاحظ أن العلاقة الشّخصية كانت جيّدة بين الأمير أبي سيفين من جهة، والسّلطان المظفّر والأمير عزيز الدّين ألطنبغا من جهة أخرى. ولكن حسن علاقة أبي سيفين الشّخصية بكل من السّلطان والأمير عزيز الدّين لم تخفّف مشاعر الكراهية والبغضاء تجاه استحواذهما على حرض، والرغبة في إلحاق الهزيمة بعساكر الغزّ، وإحراز النّصر عليها من قبل المعارضين لها من قبائل المخلاف السّليماني، ثم العمل على زعزعة موقفها، وتعريض وجودها في حرض للزّوال. غير أن الأمور سارت إلى غير ما يهوى أبو سيفين عندما راهن بحياته وحياة ابنه على هذا الموقف الذي عَدَّهُ الأمير ألطنبغا متخاذلاً.

أما عن وجود بني رسول في حرض، فلا نعرف عنه شيئًا على وجه التّحقيق، بعد ذلك الانتصار الذي حققه أميرها ألطنبغا على قبائل المخلاف، ومن لفّ لفّها من القبائل المجاورة لها من الشّمال، وهل كتب لهذا الوجود الاستمرار، أم أنه تعرّض مرة أخرى، لرفض أهل المخلاف السّليماني، ومقاومتهم التي لم تكد تنقطع طوال الفترات السّابقة؟ وكلّ ما نعرفه بعد تلك الحادثة ما يذكره ابن حاتم من أن داعي الشّر قد انقطع وأنه «لم يحدث حادث بعد ذلك»[3].

(١) العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢١٨.
(٢) ابن حاتم، السمط، ص ٤٣٥.
(٣) ابن حاتم، السمط، ص ٤٤٥.

غير أن الأمير عزيز الدّين نفسه لم يستمرّ طويلاً في إمارة حرض بعد هذه الحادثة، ذلك أنه كان في سنة ٦٧٣ هـ/ ١٢٧٤ م مع العسكر الرّسولي الذي سافر إلى شرقي اليمن لمحاربة الأشراف الزّيديّين[١]. ومع أن هذه الحرب انتهت بالصلح بين الرّسوليين والأشراف، فإن ابن حاتم لم يشر إلى عودة ألطنبغا إلى حرض، ولا حتى إلى مصيره بعد هذا الصلح. كما لم تشر المصادر التي بين أيدينا، غير كتاب ابن حاتم، إلى أيّ من ذلك، أو إلى أن سلاطين بني رسول عيّنوا أميرًا آخر على حرض خلفًا لأميرها السابق. ولم تشر أيضًا، لا شعرًا ولا نثرًا، إلى أن الأشراف الغوانم استردّوا حرضًا بعد مقتل أبي سيفين، وهزيمة الأعراب المشار إليها. ومن المحتمل أن سكوت المصادر اليمنيّة المعاصرة لتلك الفترة أو القريبة منها، والتي تركّز تركيزًا ملحوظًا على أمراء الإقطاعات بحكم أن بعض كتابها من رجال الدّولة وقادة العسكر[٢]، يعني أن حرضًا خرجت من أيديهم، وأن الغوانم تمكنوا من استردادها. كما أن شعر ابن هتيمل الذي نظم أصلاً لا لتسجيل الحوادث، وإنما لمديح بعض الشخصيات الذين لعبوا دورًا فيها، طمعًا في نيلهم، لم يسعفنا بما يعين على إزاحة السّتار عن تاريخ المنطقة التي أعقبت أحداث سنة ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٣ - ٧٤م. ويبدو أن الشخصيّات التي يمدحها ابن هتيمل اختفت عن المسرح السّياسي للمخلاف، فالقاسم بن علي الذّروي توفي مقتولاً في حلبة الميدان على يد شخص اسمه عاطف، لا نعرف شيئًا عن انتماءاته القبلية أو السياسية[٣]، وابنه محمد الصّيّاد

(١) ابن حاتم، السمط، ص ٤٥٣.

(٢) من أمثلة هؤلاء الكتاب بدر الدين بن حاتم، والملك الأشرف الأول بن المظفر، وعماد الدين إدريس الحمزي، وتاج الدين عبدالباقي بن عبدالمجيد، وكلهم من رجال الدولة.

(٣) يفهم من بعض المراثي التي قيلت في الأمير القاسم بن علي الذروي أنه قتل على يد شخص يدعى عاطفًا، من ذلك قول ابن هتيمل:

فإن يقتلْ عويطفُ وهو أدنى ... وأحقرُ من بواءٍ بالصَّوابِ

فقد قُتِلَ ابنُ مُلْجِمَ في عليّ ... وما يوفي ابنُ مُلْجِمَ في ذبابِ =

الذي خلفه في رئاسة عشيرته، ربما لم يبد نشاطًا قياديًا يحقّق له المكانة التي حقّقها والده. وجمال الدين هاشم بن وهّاس، أمير المخلاف في ذلك الوقت، لم يكن له ذكر في المصادر المتاحة، ناهيك عن اختفاء أمير باغتة، وابنه الكبير عن المسرح السّياسي بوفاتهما مقتولين في وقت واحد، كما تقدّم، ولا ندري من خلفهما من أهل بيتهما في زعامة عشيرتهما.

ومهما يكن من أمر، فإن وضع حرض التي غدت مثار نزاع بين السّليمانيّين والرّسوليين على مدى حوالي نصف قرن مضى، كان مجهولاً خلال الفترة التي أعقبت مقتل أبي سيفين وابنه. ويغلب على الظن أن مصيرها كان متأرجحًا طوال تلك الفترة، وإن كان يعتقد أنها كانت بيد الرّسوليّين عند وفاة الملك الأشرف سنة ٦٩٦ هـ/ ١٢٩٦ م، وتولي أخيه السّلطان الملك

= وقوله معزيًا ابنه محمد الصياد الذي خلفه في زعامة قومه:

محمدُ لا تجزعْ لمصرعِ قاسمٍ ... فما آفةُ الساداتِ غيرُ الزَّعَانِفِ
وهبْ في التأسِّي أن قاسمَ حمزةٌ ... فحربةُ وحشيٍّ كحربةِ عاطفِ

أنظر: الديوان، ص ٨٥، ٩٤. وكان القاسم قد وقع، أثناء حروب بني سليمان مع الرسوليين، في الأسر، وأودع السجن بتعز، ومكث فيه زمنًا إلى أن أطلق سراحه. ونسب إليه وهو في أسر الرسوليين قوله:

مَنْ لصبٍّ هاجَهُ نَشْرُ الصَّبَا ... لم يزدْهُ البينُ إلا نَصَبَا
وأسيرٍ كُلَّمَا لاحَ لَهُ ... بارقُ القبلةِ من صَبْيَا صَبَا
ولطرفٍ أرِقٍ إنسانُهُ ... دونَ من يشْتَاقُهُ قد حُجِبَا

وهي قصيدة طويلة، ومن غرر قصائد شعراء المخلاف، أنظر: الذروي، الديوان، ص ١٠؛ العصامي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٢٧٠ - ٢٧٣؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٣٥. ويذكر العصامي أن السلطان أحمد بن إسماعيل الرسولي بعث بتلك القصيدة إلى الشريف بركات بن حسن بن عجلان، أمير مكة المكرمة، مع رسالة يطلب فيها منه إفراغ دور مكة، وملاقاته في حلي بن يعقوب، فاعتبر الشريف ذلك بمثابة تهديد له، وبعث إليه بقصيدة مماثلة تتضمن كثيرًا من معاني التهديد، أنظر: المصدر نفسه، ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

المؤيّد مقاليد السّلطنة بعده[1]؛ لأن المصادر تذكر أن الملك المسعود، أخا السّلطان المؤيّد، كان مقطعًا على الأعمال السردديّة، وأنه أظهر الخلاف على المؤيّد في تلك السّنة، وتوجّه إلى الشّمال حيث أوقع الهزيمة بأهل المخَالِب، واستولى على حرض، وطلب العون من أشراف المخلاف السّليماني ضد أخيه المؤيّد، فأجابوا طلبه[2]. فربما كان استيلاؤه عليها من عمّال السّلطان المؤيّد وليس من الغوانم. وإلا لما طلب العون منهم، ولما وجد منهم استجابة، تلك الاستجابة التي ربما ترجع إلى وعود وعدهم بها تتعلق بتمكينهم من السّيطرة على حرض، إن هو انتصر على أخيه المؤيّد، ووصل إلى كرسيّ السّلطنة. ولم تقتصر استعانة الملك المسعود على أشراف المخلاف السّليماني، بل وصلته جموع كبيرة من الجوف والجبال، ومن أنحاء مختلفة من شمال اليمن[3]. فجهز السّلطان المؤيّد جيشًا لحرب الملك المسعود، جعل على رأسه أخاه الملك المنصور[4]. فلما التقى الجمعان في سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م بين المحالب وحرض، أدرك الملك المسعود ألاّ قِبَلَ له بقتال جيش السّلطان، فأذعن للصلح، وسلّم نفسه، ومعه ولده، أسد الإسلام، للعسكر السّلطاني الذي حمله إلى تعز[5]. غير أن مصير حرض، وموقف السلطان المؤيّد من بني سليمان لم يتضحا بعد هذه الحادثة، وإن كان يعتقد أنها عادت لبني رسول، خاصّة أن قوّات السّلطان وحشوده العسكريّة كانت كبيرة جدًّا، ولا قبل لبني سليمان بها، وأن حليفهم الملك المسعود هزم واقتيد أسيرًا إلى تعز[6]. وهكذا

---

(١) عن وفاة السلطان الأشرف الأول، وتولي أخيه المؤيد مقاليد السلطنة من بعده، أنظر: الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٢٧٩ - ٨١؛ محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ١٦٦ - ٦٧.

(٢) الديبع، قرة العيون، ج ٢، ص ٥٨؛ ابن الحسين، غاية الأماني، ج ١، ص ٤٧٩.

(٣) الديبع، قرة العيون، ج ٢، ص ٥٨؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ٩٣.

(٤) ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٥) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٢٨٥؛ الديبع، قرة العيون، ج ٢، ص ٥٨.

(٦) عماد الدين إدريس، كنز الأخيار، مخطوط، ورقة ١٩٣ أ؛ ابن عبدالمجيد، بهجة =

باءت محاولة بني سليمان تلك بالفشل، وأصبح واضحًا لهم، بدعمهم للملك المسعود ضد أخيه السّلطان المؤيّد، أنهم وضعوا رهانهم على حصان خاسر.

غير أن هذا الفشل لم يفتّ في عضد حكّام المخلاف السّليماني، حيث قاموا في سنة ٧٠١ هـ/ ١٣٠١ - ٢ م. بهجوم مباغت على الحامية الرسولية المرابطة في الرّاحة، وقتلوا مقدم الحامية خَطْلُبًا، وأخذوا أربعين فرسًا من رتبته[١]. وكان بنو رسول يحتفظون بحاميات صغيرة في بعض محطات طريق الحج إلى مكة المكرمة، لحماية القافلة السّلطانيّة، وإمدادها بما تحتاجه من المؤن والأقوات. ومن هذه المحطّات البِرْك، وحِلِيْ، والسِّرَّيْن، إلى جانب الراحة[٢]. وكانت تلك الحامية التي تتخذ من الرّاحة بوادي بَيْش مقرًّا لها، مكونة من مئة فارس، وقام بهذا الهجوم عليها فرع من الأشراف السّليمانيين المعروفين ببني علي، من ذروة الذين اشتهر منهم سابقًا القائدان خالد بن علي الذروي، وأخوه القاسم بن علي الذروي اللذان أخذا على عاتقهما الدفاع عن المخلاف ضد وجود بني رسول فيه. ولما علم السّلطان المؤيّد بأخبار الهجوم، أصدر أوامره إلى الشريف عماد الدين إدريس الذي كان إليه إقطاع القَحْمَة في ذلك الوقت، بالتوجه إلى منطقة جازان للثأر لحاميته من بني سليمان[٣]. وعزز

= الزمن، ص ١٠٧.

(١) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٢٩٤.

(٢) السِّرَّيْن: موقع إسلامي أثري على ساحل البحر الأحمر، بينه وبين مكة المكرمة حوالي ٢٤٠ كم، وحلي: واد وموقع يعرف بحلي بن يعقوب إلى الجنوب من السرين بحوالي مائة كيلومتر، والبرك: إلى الجنوب من حلي بحوالي خمسين كيلومترًا. حول تعاطف حكام هذه المواقع مع بني رسول في حروبهم ضد الأيوبيين، أنظر: أحمد الزيلعي، «المواقع الإسلامية المندثرة بوادي حلي»، ص ١١ - ٢٣؛ «بنو حرام»، ص ١٠٩ - ١٠٠؛ «راجح بن قتادة، حاكم السرين»، ص ٢٥ - ٢٨؛ "The Southern Area", PP. 94-171, 470-482.

(٣) عماد الدين إدريس، كنز الأخيار، مخطوط ورقة ١٩٤ أ؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٣٣٠.

القوة التي مع الشريف إدريس بعسكر من الحلقة المنصورة، بالإضافة إلى مشد زبيد، وأمير حرض التي كانت بيد الرسوليين في السنة المشار إليها آنفًا[1]. فسارت العساكر السلطانية إلى الراحة، وتمكنوا من دخولها في آخر السنة المذكورة، وطردوا عساكر بني سليمان، وتبعوهم إلى اللؤلؤة، الشُّقَيْق حاليًّا، وأجبروهم على طلب الصلح[2]، فتم لهم ذلك على أن يعيدوا الخيل التي أخذوها من الرتبة، ويسمحوا لبني رسول بالإبقاء على حامية رمزية لهم في الراحة، ولكن ليس تحت قيادة زعيم من الغزّ، وإنما بقيادة شريف من بني سليمان ينوب فيها عن السّلطان[3]. فعادت العساكر السلطانية بعد أن تسلم الراحة منهم الشريف علي بن سليمان بن علي نيابة عن السلطان الملك المؤيّد[4]. ومن المحتمل أن موقف بني سليمان من الحامية الرّسولية بالراحة ليس سببه وجود الحامية نفسها، بقدر ما هو وجود شخص غريب عنهم على رأسها، هو المقدم خطلبا، أما عندما قبل العسكر الرّسولي بوجود شريف منهم على رأسها نيابة عن السّلطان، فإن بني سليمان لم يجدوا غضاضة في ذلك «وتخلّوا عن الراحة» كما يقول عماد الدين إدريس قائد الحملة الرّسولية التي قدمت للثأر لمقتل المقدم خطلبا[5].

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الهزيمة التي مُني بها بنو سليمان في عقر دارهم على يد الرّسوليين، كانت من أولى الهزائم، وأكثرها وضوحًا في

---

(١) ابن عبدالمجيد، تاريخ اليمن، ص ١١٢ - ١٣؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٢٩٤؛ الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ٨٩.

(٢) عماد الدين إدريس، كنز الأخيار، مخطوط، ورقة ١٩٤ أ؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ ١، ص ٢٢١.

(٣) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ ١، ص ٣٣٠؛ الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ٨٩؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ ١، ص ٢٢١.

(٤) عماد الدين إدريس، كنز الأخيار، مخطوط، ورقة ١٩٤ أ؛ ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ١١٣؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ ١، ص ٣٣٠.

(٥) كنز الأخيار، مخطوط، ورقة ١٩٤ أ.

المصادر التاريخية الميسورة منذ خروج الأيوبيين من اليمن، ووصول بني رسول إلى السلطة في سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠ - ٣١ م. كما أنها فرضت أمرًا واقعًا، هو القبول بوجود حامية أجنبية ترابط على أرضهم، حتى ولو كان وجود هذه الحامية مشروطًا ببقائها تحت قيادة شريف منهم، وكانت مهمتها لا شأن لها بالوضع الداخلي لمنطقة جازان، وإنما لحفظ الأمن في طريق الحج والتّجارة بين مكة المكرمة واليمن، وكذلك تحسّبًا لأي غزو خارجي يأتي اليمن عن طريق الحجاز ولا سيّما من مصر التي كانت علاقة سلاطينها في تلك الفترة مع بني رسول على غير ما يرام[1].

وعلى الرغم من تلك الهزيمة التي حلّت ببني سليمان بعد قتلهم المقدم خطلبا، والصلح الذي تم بينهم وبين خصومهم الرّسوليين، فإن قبائل المنطقة لم يكفّوا عن التعرّض لبني رسول، ولرجالهم في حرض، وفي خارجها، ففي سنة ٧٠٤ هـ/ ١٣٠٤ - ٥ م، اعترضت قبيلة جُهَيْنَة - وهي من القبائل العربية المشهورة التي كانت بعض فخوذها تقطن سواحل منطقتي جازان والقنفدة وما زالت حتى اليوم[2] -، عساكر الرّسوليين المرافقة لموسى ابن أبي بكر بن علاء الدين أثناء عودته من مدينة البرك، بعد أن قام بتعمير أسوارها، إثر الإشاعات التي وصلت إلى اليمن في أواخر سنة ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٤ م، عن وصول عساكر مصرية ضخمة إلى مكة المكرمة، وخوف الرّسوليين من أن تكون هذه العساكر موجهة ضدهم[3]. وكان برفقة العساكر الرّسولية، الشريف طاهر بن أبي نميّ قاصدًا السلطان المؤيد[4]. فتمكنت هذه القبيلة من إلحاق الهزيمة بالعساكر

---

(١) عن علاقة المماليك ببني رسول في تلك الفترة، أنظر: محمد عبدالعال أحمد، إحياء الخلافة العباسية، ص ٦٦ والصفحات التي بعدها.

(٢) أنظر: البلادي، بين مكة واليمن، ص ١٧٢.

(٣) عماد الدين إدريس، كنز الأخيار، مخطوط، رقم ١٩٥ ب؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ ١، ص ٣٤٩.

(٤) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٣٠٥ - ٣٠٦؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٤٨٥.

السلطانية بالقرب من اللؤلؤة - الشقيق حاليًا - وقتل شريف طاهر، والاستيلاء على أثقالهم ودوابّهم(١). وقد مرّت هذه الحادثة دون أن يكون هناك أي ردّ فعل يذكر من جانب بني رسول، في حدود ما وصل إلى علمي. ولعل عدم وجود ردّ فعل رسولي على تلك الحادثة أو تأخّره، جرّأ قبيلة أخرى من قبائل المخلاف هي قبيلة النُّجُوْع على مهاجمة ناحية حرض في سنة ٧٠٧ هـ/ ١٣٠٧ - ٨ م، ولكن ردّ فعل بني رسول كان سريعًا هذه المرّة، حيث جرّد السلطان نحوًا من ثلاثمائة فارس من حلقة المنصورة، وبعثهم إلى حرض، فتمكنوا من الإغارة على النّجوع، وتشتيت شملهم(٢). وليس معروفًا في المصادر المتاحة إن كانت هذه الغارات موجهة من قبل أمراء منطقة جازان في ذلك الوقت، أم أنها كانت مغامرات قبلية غايتها السّلب والنّهب. كما أنه من غير المعروف إن كانت حرض بيد والٍ من قبل بني رسول في أثناء غزو النّجوع لها، أم أنها كانت في يد غيرهم؛ لأن عهدنا بآخر أمير عُيّن عليها من قبل بني رسول، ويدعى ابن بهرام، كان قبل غزو النّجوع لها بسنتين، أي في أوائل سنة ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م(٣)، وربما جاء ردًّا على ذلك التعيين.

---

(١) عماد الدين إدريس، كنز الأخيار، مخطوط، رقم ١٩٥ ب؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ ١، ص ٣٦٠.

(٢) عماد الدين إدريس، كنز الأخيار، مخطوط، رقم ١٩٦ أ؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٣١٠.

(٣) أنظر: عماد الدين إدريس، كنز الأخيار، مخطوط، رقم ١٩٥ ب. كان في حرض أمير من قبل بني رسول في سنة ٧٠٤ هـ/ ١٣٠٤ - ٥ م، ثم غادرها إلى صعدة مددا لأحد قادة بني رسول هناك. وفي سنة ٧٠٥ هـ/ ١٣٠٥ - ٦ م، كان فيها مقدم ورتبة من قبل بني رسول، ومع ذلك، دخلها الزيديون بقيادة آل شمس الدين في السنة نفسها، ونهبوها ثم رجعوا منها من فورهم، ولا ندري هل عين فيها الرسوليون من يدير شؤونها بعد ذلك، أن أنها بقيت بدون وال، مما أغرى بها أهل المخلاف السليماني على النحو الذي سبق شرحه. أنظر: الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٣٠٧؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ١، ص ٤٨٥.



خروج حرض مؤقتًا، واقتصار نفوذ الغوانم على منطقة جازان

لعل مما تجدر الإشارة إليه أن جميع المصادر التاريخية المتاحة، ومعظمها مصادر يمنية رسميّة، تغفل الإشارة إلى أسماء الأمراء السّليمانيين (الأمراء الغوانم) طوال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، كما تغفل الأحداث المتعلّقة بمنطقة جازان إلا في حدود ما يتّصل منها بسلاطين بني رسول. وهذه الأحداث على قلّتها، فإن هذه المصادر - وبالرغم من معاصرة بعض مؤلفيها لها - لا تشير في ثناياها إلى أمراء جازان بالاسم، وإنما بالإشارة فقط إلى مناصبهم كقولها: «أمير جازان» أو «صاحب جازان» أو إلى فئاتهم مثل: «الأشراف السليمانيين»، أو «أشراف المخلاف السليماني» أو «أهل المخلاف السليماني» وما يتفرع عن هذه الفئات الكبرى من فئات أصغر منها، كالإشارة إلى أسماء بعض القبائل، أو العشائر، سواء من الأشراف أو من غيرهم، مع أنه في حكم المؤكّد أن إمارة منطقة جازان ظلّت متّصلة في أسرة الغوانم[1]، يتوارثونها كابرًا عن كابر حتى أواخر ذلك القرن، حيث انتقلت منهم إلى أسرة آل قطب الدين، وهم أيضًا من الغوانم، ولكنهم اشتهروا بنسبتهم إلى جدهم الأقرب، الأمير خالد بن قطب الدين الذي سنأتي إلى ذكره فيما بعد[2].

---

(١) أنظر: عاكش، الديباج الخسرواني، مخطوط، ص ١٢ - ١٣؛ الذهب المسبوك، مخطوط، ص ١١ - ١٢؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٣٦، ١١٨.

(٢) تذكر المصادر التي عنيت بتاريخ المخلاف أن آخر الأمراء الغوانم هو الأمير المُقَلَّم، ومنه انتقلت الإمارة إلى فرع آخر من فروع الأشراف الغوانم، يعرف بآل =

والواقع أن عدم ذكر هؤلاء الأمراء بأسمائهم في الأحداث المتعلقة بمنطقة جازان، أو المخلاف السليماني، أو بتلك المتّصلة ببني رسول - تجعل الباحث يجد صعوبة في الجزم بأن الإمارة كانت، عند وقوع هذه الأحداث، في يد هذا الأمير أو ذاك، بالرغم من توافر أسماء أفراد هذه الأسرة من خلال سلسلة نسبهم الطويلة والثابتة في المصادر التي عنيت بأنساب الأشراف السّليمانيين والتي سبقت الإشارة إليها.

أما حرض التي كانت مثار نزاع وحروب بين الأشراف الغوانم، وسلاطين بني رسول حتى انسلاخ القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد، فإن وضعها في الفترة التالية مختلف عن ذي قبل، إذْ إنَّ القرن الثامن الهجري / الرابع عشر للميلاد شهد تتابعًا متقطعًا لولاتها من قبل بني رسول(١)، في الوقت الذي اختفت فيه محاولات الغوانم للاستيلاء عليها، أو على الأقل، لم تصل إلينا تلك المحاولات التي تمت من جانبهم، مما يعني أنها ربما خرجت من أيديهم، وأنهم قنعوا فقط بسيطرتهم على منطقة جازان. كما إن ازدياد عصيان القبائل القاطنة فيما يعرف باسم الجهات الشّاميّة، وهي

= قطب الدين، أو الأمراء آل قطبة. أنظر: النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٢٨؛ عاكش، الذهب المسبوك، مخطوط، ص ١١؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٣٢، ويذكر العقيلي أن المُقَلَّم هو وهاس بن سليمان، ونحن نعتقد أن هذا غير صحيح، لأن وهاس بن سليمان وفد على المظفر في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، والمقلم تسلم منه القطبيون حكم الإمارة في نهاية القرن الثامن، أو أوائل القرن التاسع الهجريين، وبينهما أكثر من قرن من الزمان، إلا أن يكون مقلمًا آخر، أو وهّاس بن سليمان غير وهاس الذي وفد على المظفر، أنظر: المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٠٨؛ وانظر أيضًا: النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ورقة ١٢١ - ١٢٢.

(١) عن بعض ولاة حرض من قبل بني رسول في القرن الثامن الهجري - الرابع عشر للميلاد، أنظر: الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٣٦١، ٣٧٨، ٣٨٨، ٤١٤؛ ابن الحسين، غاية الأماني، ج ٢، ص ٥١٨ - ٥١٩، ٥٢٣.

سَهَام، وسُرْدُد، ومَوْر، ورَحْبَان[1]، طوال الفترات التالية من عهد بني رسول ثم عهد بني طاهر من بعدهم، جعلت منطقة حرض مهدًا للخارجين على السلطنة والطامعين في ملك تهامة اليمن، ونقطة انطلاق للأئمة الزيدية في صراعهم ضد بني رسول[2]. وقد ساعد هذا الوضع أمراء منطقة جازان على الاحتفاظ باستقلالهم، بعيدًا عن تدخّلات سلاطين اليمن في شؤونهم الداخلية، بل إن هذا الوضع ربما وجد تشجيعًا من الأمراء الغوانم بدليل تقديمهم العون من حين إلى آخر إلى بعض الخارجين على سلطة زبيد وتعز، كما سيأتي. وهكذا، فإن الوضع الجديد في حرض ربما أصبح بالنسبة للغوانم يشكل حاجزًا بينهم وبين المناطق التي تقع فعلاً تحت سيطرة بني رسول من جهة، وبين المشكلات التي تثيرها قبائل الجهات الشّاميّة من جهة أخرى.

ولكون منطقة حرض خرجت في هذه الفترة من يد بني سليمان إلى حين، فإننا سنضرب صفحًا عن الأحداث التي دارت عليها إلا ما كان له علاقة بمنطقة جازان، وأهلها، وأمرائها الغوانم. وعلى أية حال، فإن الأشراف والغوانم، حكام منطقة جازان، الذين سكتت المصادر التاريخية عن ذكرهم حوالي عشرين عامًا، ما لبثوا أن ظهروا على مسرح الأحداث بعد وفاة الملك المؤيّد سنة ٧٢١ هـ/ ١٣٢١ م، وانتقال عرش السلطنة إلى ابنه الملك المجاهد، علي بن داود بن يوسف بن عمر بن رسول الذي لم تكن الأوضاع مستقرّة له باليمن في أوائل عهده -[3] حيث اشترك الأشراف السليمانيون، مع

---

(١) عن تلك الجهات وعصيان قبائلها أنظر: الخزرجي، العقد الفاخر، مخطوط، ورقة ١٧ب، ١٨أ، ١٤٨أ، وفي أماكن متعددة؛ العسجد المسبوك، ص ٣٤٩، ٣٦٢، ٣٧٧، ٣٩٥ - ٤٠٠، ٤٠٦، ٦١٣ - ٦١٤.

(٢) عن بعض محاولات الأئمة الزيدية تهديد المناطق الرسولية عن طريق حرض، أنظر: الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٣٧٠، ٤١٤، ٤٥٢، ٤٥٥ - ٤٥٩؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٣) عن انتقال السلطنة من الملك المؤيد إلى ابنه الملك المجاهد، وعدم استقرار الأوضاع للأخير في أول عهده، أنظر: الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ٦٥ - ٧٧؛ =

قوات أخرى مسترزقة من الأشراف الحمزيين، في قتال العساكر المناوئة للسلطان المجاهد، ومعظمهم من المماليك الذين كانوا يشكّلون القوة الضاربة في جيوش سلاطين بني رسول، والذين خرجوا هذه المرة على السلطان المجاهد مناصرين لابن عمه الملك الظافر لكراهيتهم للمجاهد، ولبغضهم لبعض رجاله الذين أساءوا التصرف مع المماليك(١).

وكان اشتراك الأشراف السليمانيين والحمزيين في هذه الأحداث التي وقعت في سنة ٧٢٤ هـ/ ١٣٢٤ م، بناء على طلب من أنصار السلطان الملك المجاهد، وفي مقدمتهم قائده الزعيم ابن الأفْتِخَار، واثنان من أبناء أخي السلطان نفسه، هما الملك المفضّل شمس الدين، والملك الفائز قطب الدين(٢). فالتقى الأشراف السليمانيون والحمزيون بالعساكر المملوكية في موقع اسمه جَاحِف بوادي سَهَام، في شهر ذي الحجة من السنة المذكورة، وتمكنوا من هزيمة المماليك، وقتل خيار قادتهم، وهدّدوا بالزّحف على مدينة زبيد نفسها(٣). غير أن فلول المماليك، عندما أحسّوا بانفلات الأمر من أيديهم، أخذوا من جديد يعيدون جمع شتاتهم، وتعزّز موقفهم بوصول مماليك آخرين قدموا إليهم من تعز، ثم التقوا بالأشراف قرب مدينة بيت الفقيه، فأبرم الفريقان بينهما صلحًا يدفع المماليك بمقتضاه مبلغ عشرين ألف دينار للأشراف، مقابل تركهم وشأنهم(٤).

= بامخرمة، تاريخ ثغر عدن، ص ١٣٩ وما بعدها؛ محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ١٨٥ - ٩٩.

(١) أنظر: ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ١٤٠؛ بامخرمة، تاريخ ثغر عدن، ص ١٤٠؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٢٢ - ٢٤.

(٢) ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ١٤٥؛ ابن الأهدل، علماء اليمن، مخطوط، ورقة ٣٠١أ؛ الديبع، قرة العيون، ج ١، ص ٧٢ - ٧٣.

(٣) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج ٢، ص ٢٢؛ ابن الأهدل، علماء اليمن، مخطوط، ورقة ٣٠١أ؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٢٣.

(٤) ابن الأهدل، علماء اليمن، مخطوط، ٣٠١أ؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، =

ولا نعرف شيئًا عن الموقف بعد هذا الصلح بين العساكر الرسولية من جهة وقوات الأشراف السليمانيين والحمزيين من جهة أخرى، ففي حين أخذ الأخيرون يهددون الوجود الرسولي في حرض والمهجم، وحتى في زبيد نفسها[1]، استكان الأشراف الغوانم، ولم نسمع عنهم إلا في ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م، عندما اعترض أمير جازان حجاج اليمن، وهم في طريقهم إلى مكة المكرمة، وطالبهم أن يدفعوا فوق ما اعتادوا على دفعه من المكس، وبالغ في طلبه، فلم يسعهم إلا الرّجوع دون تأدية الحج[2]. فلما علم السّلطان المجاهد بما أقدم عليه أمير جازان تجاه الحاج اليمني، سار إليه في عساكره. ولما وجد أمير جازان ألاّ قِبَلَ له بمواجهة العساكر السلطانية تحاشى تلك المواجهة، وهرب من جازان، فخرّب السّلطان بلاده، وقطع موارده، وعاد أدراجه إلى اليمن[3].

ويتضح من هذه الحادثة أن أمراء جازان كانوا يحصلون على ضرائب من الحجاج اليمنيين لقاء مرورهم ببلادهم، وربما خفارتهم، وتوفير الأمن لهم حتى يخرجوا من مناطق نفوذهم في رحلتي الذّهاب والعودة؛ كما يتضح منها أن أمراء جازان يصعب إخضاعهم لسيطرة بني رسول، أو وقوعهم في أيديهم، وذلك لقدرتهم على الهروب من بلادهم عندما تداهمهم الأخطار، ولم يكن في مقدورهم مواجهتها والتّغلب عليها، وعادة ما يكون هروبهم إلى الجبال الشّرقية القريبة منهم أو إلى أطراف الحجاز حيث تقع تلك الجهات الخاضعة لسيطرة بني عمّهم أشراف الحجاز من آل قتادة[4]. ثم سرعان ما يعودون إلى

= ص ٢٢٣ - ٢٤.

(١) أنظر: ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٢) الخزرجي، العقد الفاخر، مخطوط، ورقة ١٦ب؛ الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ٨٤.

(٣) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٣٧٦ - ٣٧٧؛ الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ٨٤.

(٤) ملك آل قتادة الحجاز منذ سنة ٥٩٨ هـ/ ١٢٠٢ م عندما تمكن قتادة بن إدريس الحسني من طرد الشريف مُكْثِر، آخر الأمراء الهواشم من مكة المكرمة، وأسس لأسرته حكمًا وراثيًا بها. أنظر: الفاسي، شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٣١٥ والصفحات =

إمارتهم عندما ينسحب الأعداء وتنجلي الأخطار عن بلادهم. وهذا بطبيعة الحال يبرِّر قدرتهم على البقاء في إمارة منطقة جازان، أو المخلاف السليماني قبل ذلك، دون أن يقضى عليهم رغم التغيّرات السياسية التي كانت تجري قريبًا منهم على الساحة اليمنية، طوال القرون الماضية.

ومهما يكن من أمر، فإن السنوات التالية من هذا القرن شهدت عدم استقرار سياسي في المناطق المعروفة بالجهات الشامية، وهي سردد، وسهام، ومور، وحتى رحبان، وغيرها من تلك الجهات التي تمتد من حرض شمالاً إلى مدينة زبيد جنوبًا، وذلك بسبب ثورات قبائل المَعَازِيَة والقرشيين المناوئة لبني رسول حتى فقد الأخيرون السيطرة على هذه المنطقة التي أصبحت كلها خرابًا فيما عدا زبيد وحرض[1]. ونتج عن عدم الاستقرار في تلك المناطق خروج بعض الطامعين في الملك على سلطة بني رسول، فضلاً عن تجرُّؤ بعض الأئمة الزيديين على غزو مناطق نفوذ بني رسول في تلك الجهات، متّخذين من حرض محطة للوصول إليها كما أسلفنا. ووجد بنو سليمان أنفسهم متورّطين في هذه الأحداث، حينما قدموا في سنة ٧٦١ هـ/ ١٣٦٠ م، عونًا للشريف علي بن محمد المعروف بابن الجارية الذي قدم إلى تهامة متظاهرًا بتقديم العون للسلطان المجاهد في إخماد الثورات والفتن المناوئة له في تلك المناطق[2]. فعسكر بالمحالب، وهجم على مقدّم الغزّ بها، وقتله، ونهب ما في داره، ثم تقدم إلى المهجم، فاستعان أميرها بالأمير وهّاس بن أحمد (ت٧٦١هـ/ ١٣٦٠م)، وكان يومئذ مسؤولاً عن حَازَة وادي مور، فتقدم وهّاس لمساعدة أمير المهجم ضد علي بن محمد بن الجارية في مائتين وأربعين فارسًا

= التي بعدها؛ ابن فهد، إتحاف الورى، ج ٢، ص ٥٦٦ - ٦٧؛ العصامي، سمط النجوم العوالي، ج ٤، ص ٢٠٨، والصفحات التي بعدها؛ ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية، ص ٣٦ والصفحات التي بعدها.

(١) أنظر: الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج ٢، ص ١١٤ والصفحات التي بعدها؛ محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ٢٠٦.

(٢) العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٢٨.

من رجاله، ولكن ابن الجارية قتل الأمير وهّاس، وهزم من معه من الفرسان[١]. وظهر جليًّا عجز العساكر الرسولية عن صدّ ابن الجارية ومن معه من الأشراف الحمزيين، وأهل المخلاف السليماني، لولا أن قبائل المعازبة والقُحَرة والمقَاصِرة والزّيديّين، وقفوا في وجه الشريف علي بن محمد بن الجارية، ومن معه، وأجبروهم على الانسحاب من المهجم والعودة إلى المخلاف السليماني، حيث انتهبت هذه القبائل المتحالفة ضدّ ابن الجارية، وأهل المخلاف، مدينة المَهْجَم وأحرقتها[٢]. وهكذا نجحت هذه القبائل التي تعارضت مصالحها في الثورة على بني رسول مع مصالح الشريف علي بن الجارية، ومن لفّ لفّه من أهل المخلاف، في القضاء على مطامع الأخيرين في السيطرة على الجهات الشامية، والتقدّم إلى مدينة زبيد.

ولكن هذه الأحداث، وعدم الاستقرار السياسي في الجهات الشّاميّة، مهدت السبيل لثورة أمير حرض من قبل الرسوليين، الشريف نور الدين محمد بن ميكائيل على السلطان الرسولي الملك المجاهد في سنة ٧٦١ هـ/ ١٣٦٠ م، حيث تمكن الثائر الجديد من مدّ سيطرته على الجهات الشامية من تهامة، وأعلن نفسه سلطانًا بها، وضرب السكة باسمه[٣]. ولم يتمكن بنو رسول من القضاء على ثورة ابن ميكائيل إلا بعد وفاة السلطان الملك المجاهد في جمادي الأولى سنة ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٣ م، وانتقال السلطنة إلى ابنه عباس الملقب بالملك الأفضل[٤]. وكان لزامًا على السلطان الجديد، الملك الأفضل، الذي خلف

---

(١) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٤٠٢.

(٢) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج ٢، ص ١١٣؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٢٨.

(٣) الخزرجي، العقد الفاخر، مخطوط، ورقة ١٤٨أ؛ الديبع، قرة العيون، ج ٢، ص ٩٠.

(٤) عن وفاة السلطان الملك المجاهد وانتقال السلطنة إلى ابنه عباس الأفضل، أنظر: ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج ٢، ص ٦٠٦ - ٦٠٧؛ محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

والده المجاهد في السلطنة، والذي تهدد الثورات ملكه من مختلف الجهات، فضلاً عن تمرّد إخوانه عليه - أن ينهض للقضاء على تلك الثورات، وفي مقدمتها ثورة ابن ميكائيل التي خضعت لها جميع الجهات الشامية، وأصبحت تشكل خطرًا يهدد مدينة زبيد، العاصمة الثانية لبني رسول[1]. فأخذ السلطان يجرّد الحملة تلو الأخرى على ابن ميكائيل، حتى تمكنت آخر تلك الحملات بقيادة فخر الدين زياد بن أحمد الكاملي من إنزال الهزيمة بابن ميكائيل بمدينة القَحْمَة اليمنية، الواقعة بين مدينتي بيت الفقيه والمنصورية، وذلك في جمادى الأولى سنة ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٤ م، واستولت القوات الرسولية على الجهات الشامية وحرض التي فر منها ابن ميكائيل إلى صعدة محتميًا بالإمام الزيدي، الناصر لدين الله صلاح الدين بن علي بن محمد (ت ٧٩٣ هـ/ ١٣٩١ م)[2].

ويبدو أن الأشراف الغوانم دعموا ثورة ابن ميكائيل المذكورة ضدّ بني رسول، بدليل اختلافهم مع أمير حرض المعين من قبل السلطان الملك الأفضل، واسمه بهاء الدين الظفاري، حيث بلغ هذا الخلاف ذروته سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩ م، مما أعطى الذرائع لإمام الزيدية لإرسال جيش من قبله بقيادة الأمير إبراهيم بن يحيى المهدي، وبصحبته الأمير محمد بن ميكائيل، فتمكن هذا من احتلال حرض، وطرد واليها من قبل بني رسول[3]. ثم تابع الأشراف زحفهم نحو الجنوب فاستولوا على مدينة المهجم والكَدْرَاء والقَحْمَة، وفرضوا حصارًا شديدًا على مدينة زبيد[4].

ولكن قوة تحصينات المدينة، واستبسال المدافعين عنها، أجبرت

---

(١) الخزرجي، العقد الفاخر، مخطوط، ورقة ١٤٨ أ.

(٢) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٤١١ - ٤١٣؛ محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ٢١.

(٣) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ ٢، ص ١١٠ - ٤١؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ٩٩؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ ١، ص ٢٣٠.

(٤) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٤١٨ - ٤٢٣؛ محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ٢١٤.

القوات الغازية على رفع الحصار عنها، والعودة إلى حرض، وبصحبتها في الأسر الأمير فخر الدين زياد بن أحمد الكاملي، الذي أشرنا، في موضع سابق، إلى هزيمته لابن ميكائيل في القَحْمَة سنة ٧٦٥ هـ/ ١٣٦٤ م. وحينما وصل الأشراف إلى مدينة حرض، أطلق قائدهم سراح الأمير فخر الدين لنراه مرة أخرى على مسرح الأحداث التي سيرد ذكرها أدناه[١].

ففي سنة ٧٧٣ هـ/ ١٣٧١ - ٢ م، كانت حرض بيد السلطان الملك الأفضل، وكان يليها من قبله الأمير فخر الدين زياد بن أحمد الكاملي المار ذكره، فتجدد الخلاف، مرة أخرى، بين الأخير والأشراف، حيث نزل الأمير نور الدين محمد بن إدريس الحمزي في جماعة من الأشراف الزيديين إلى حرض، وبصحبتهم نور الدين محمد بن ميكائيل، خصم بني رسول السابق، فتمكن هؤلاء من طرد الأمير فخر الدين الكاملي الذي فر إلى السلطان الأفضل مستنجدًا به ضد القوى الغازية، فأمده السلطان بعساكر كثيرة، وتوجه بهم إلى المهجم، حيث التقى بالأشراف، وتمكن من هزيمتهم، وقتل زعيمهم الأمير محمد بن إدريس، ومائة من رجاله، ثم سار إلى حرض ليتولى إمارتها من جديد[٢]. وما كاد يستقر بها حتى تعرض لمضايقات أمراء جازان، وانضم إليهم في ذلك أهل المخلاف السليماني الذين أظهروا معارضتهم للأمير فخر الدين الكاملي[٣]. فما كان منه إلا أن توجه على رأس عساكره إلى جازان لمحاربة أهلها، فوصلها في شوال من السنة المذكورة، وتمكن من التغلب عليهم، وقتل جماعة من رجالهم، وأجبرهم على طلب الصلح، فتم له ذلك، وعاد الأمير الكاملي أدراجه إلى مدينة حرض[٤].

---

(١) ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ٢، ص ٥٢٠ - ٢٣؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٠٠.

(٢) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٤٢٥؛ الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ١٠١؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ٢، ص ٥٢٣.

(٣) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ ٢، ص ١٥٠؛ الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ١٠١.

(٤) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٤٢٦؛ الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ١٠١.

وتجدر الملاحظة أن معظم حملات بني رسول التي شنت على منطقة جازان، وضد أمرائها من الغوانم، كانت تنتهي بالصلح، وعودة قادة تلك الحملات بعساكرهم إلى اليمن، مما يدعو إلى الاعتقاد أن غايتها فقط الحدّ من محاولات أمراء جازان المتكررة للسيطرة على منطقة حرض، أو الثأر منهم لتعدِّياتهم على مناطق النفوذ الرسولي في الجهات الشامية، ومساعدتهم لأعدائهم، والخارجين على سلطتهم، أو ما يقع منهم من التّعرّض للحجاج اليمنيين، وهم في طريقهم إلى مكة المكرمة، ولم تكن غايتها السيطرة على منطقة جازان، وإقصاء حكامها الشرعيين من الغوانم، وإلاّ لفعلوا ذلك منذ عهد السلاطين الأقوياء أمثال: السلطان الملك المنصور، وابنه السلطان المظفر يوسف بن عمر، وحتى السلطان المؤيد، وغيرهم من السلاطين الأقوياء الذين ربما كانوا يبنون اعترافهم باستقلال تلك الإمارة على الواقع التاريخي والجغرافي الذي جعلها تحافظ على استقلالها طوال القرون، على الرغم من تبدُّل الأوضاع السياسية، وتغيرها على الساحة اليمنية المجاورة لها. ويعتقد أن الصلح بين الفريقين كان يتمّ في كل مرة بناء على ضمانات يقدمها السليمانيون لبني رسول بعدم العودة إلى أيّ من الأمور التي أوجبت غزو الرسوليين للمخلاف، أو لمنطقة جازان، فما يكاد ينجلي الخطر، وتعود العافية حتى يعاود أهالي المخلاف، وأمراؤهم تحرُّشاتهم بالمناطق التي كانت تحت النفوذ الرسولي. ومما له دلالته في هذا الشأن، أنه لم تكد تمضي خمس سنوات على حركة الأشراف السابقة حتى خرج الشريف محمد بن سليمان ابن مُدْرك بنواحي حرض في جمادي الأولى سنة ٧٧٨ هـ/ ١٣٧٦ م، وليس من المؤكد عما إذا كان ابن مدرك هذا من الأشراف السليمانيين، أو من غيرهم، ولكنه حظي بدعم كبير من جماعة من الأشراف الذين ربما كان من بينهم بعض السليمانيين، حيث عملوا على طرد أميرها من قبل الرسوليين، الأمير ركن الدين عبدالرحمن بن الهمام[١]. فرد زعماء بني رسول على ذلك بإرسال قوات

---

(١) الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ١٠٣؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ٢، ص ٥٢٦.

من جانبهم، تهدف إلى وضع حدّ لحركة الأشراف، وإلى منعهم من تهديد نفوذ السلطنة داخل اليمن. فحصلت المواجهة بينهم وبين العساكر الرسولية في وادي رحبان بالقرب من مدينة حرض، حيث قتل محمد بن سليمان بن مدرك، وقتل معه جماعة من الأشراف الذين قطعت رؤوسهم وحملت إلى زبيد، ومن ثم إلى تعز[1]. وعلى الرغم من أن الأشراف نصبوا زعيمًا جديدًا عليهم هو سيف الدين يوسف بن يوسف، فإنه من غير المحتمل أن هذا الزعيم الجديد قد واصل الثورة، وذلك بسبب الفشل الذريع الذي مُنِيت به في بدايتها، والذي تمخض عن قتل قائدها مع صفوة من رجاله، كما أنه من غير المحتمل أن بني رسول توغلوا ناحية الشمال في اتجاه جازان بسبب وفاة الملك الأفضل بعد ذلك بحوالي شهرين في شوال من السنة نفسها، وانشغال ابنه وخليفته عبّاس، الملقب بالأشرف الثاني (ت ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ م)، بشنّ حملاته على الثائرين عليه من قبائل المعازبة في الجهات الشامية، تلك القبائل التي كانت جهاتهم تشكل مناطق عازلة بين المراكز التابعة لبني رسول، وبين منطقة جازان[2]. ويغلب على الظن أن علاقات السلطان الرسولي، الملك الأشرف الثاني، بأمير جازان، ربما كانت حسنة، بدليل أن الأخير أرسل، على سبيل الإهداء، ستة رؤوس من الخيل إلى الملك الأشرف الثاني عندما كان مقيمًا في المحالب سنة ٧٩٦ هـ/ ١٣٩٤ م، في أثناء جولاته المتكررة في الجهات الشامية[3]، وذلك على عكس ما كانت عليه بعد ذلك في عهد ولده السلطان الناصر أحمد بن الأشرف الثاني (ت ٨٢٧ هـ/ ١٤٢٤ م) الذي تولى

---

(١) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٤٣٠؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ٢، ص ٥٢٦.

(٢) عن تمرد هذه القبائل ضد سلطات بني رسول في عهد السلطان الملك الأفضل، وابنه وخليفته الملك الأشرف، أنظر: محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ٢١٧ - ٢١٩.

(٣) أنظر: الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٤٨١؛ العقود اللؤلؤية، جـ ٢، ص ٢٥٩.

السلطنة بعد وفاة والده في ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ م[١]، حيث أقدم أمير جازان على شن حملة على مدينة حرض، وانتزعها من الرسوليين سنة ٨٠٦ هـ/ ١٤٠٣ - ٤ م[٢]. وبذلك تدخل حرض مرة أخرى تحت نفوذ الأشراف السليمانيين وتعود إلى المخلاف السليماني وحدته التي افتقدها منذ أن انسلخت عنه حرض قبل حوالي قرن من الزمان.

يتضح مما تقدم أن حكم الأشراف السليمانيين للمخلاف السليماني كان قائمًا عند وصول سلاطين بني رسول إلى الحكم، وأن وجود الأشراف بالمخلاف، وحكمهم له، لم يقض عليه نهائيًا في آخر عهد الأيوبيين باليمن، كما يحلو لبعض المؤرخين والباحثين المحدثين ترديده. وأن أودية المخلاف، ومدنه المشهورة كانت تقع تحت سيطرة عدد من أسر الأشراف السليمانيين الذين كانوا يديرونها على شكل إقطاعات صغيرة ويكوّنون، في الوقت نفسه، زعامات عشائرية محلية تأتمر بأمر أسرة الغوانم التي كانت لأمرائها الزعامة الشاملة على المخلاف بكامل حدوده. وكانت تلك الأسرة تتخذ من مدينة جازان التاريخية، في أعلى الوادي المسمى باسمها، موطنًا لهم، ومقرًّا للحكم والإدارة بالمخلاف. وكانت علاقات الأشراف السليمانيين بصفة عامة، والغوانم بصفة خاصة مع بني رسول، تقوم على الاعتراف المتبادل، فالسليمانيون يستمدون شرعيتهم من الارتباط التاريخي العميق لوجودهم في المنطقة، ومن الميراث السياسي المتمثل في حكمهم للمخلاف منذ مدة طويلة، والرسوليون، وهم حكام غرباء ووافدون على المنطقة، يستمدون شرعيتهم التقليدية في تهامة اليمن، من الخلافة العباسية تلك الشرعية التي

---

(١) عن وفاة السلطان الملك الأشرف الثاني، وتولي ابنه الملك الناصر أحمد مقاليد السلطنة في اليمن، أنظر: ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ ٢، ص ٦٠٧؛ المنهل الصافي، جـ ١، ص ٢٢٧؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ ١، ص ٢٤٠؛ الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ١١٩ - ١٢٠؛ محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ٢٢٦ - ٢٧.

(٢) ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ٢، ص ٥٦٠ - ٥٦١.

تمسكوا بها، ضمانًا لبقائهم، واستقرار حكمهم، ووحدة الأراضي التي تحت أيديهم، حتى بعد زوال الخلافة العباسية على يد المغول في سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م. ولا بد أن الأشراف الغوانم الذين يدينون أصلاً بوجودهم في تلك المنطقة للعباسيين منذ عهد بعيد[1]، أن يقبلوا بالاعتراف بسلاطين بني رسول باعتبارهم نوابًا للخلافة العباسية، وأن يحافظوا في الوقت نفسه، على استقلالهم بعيدًا عن التدخل المباشر من قبل الرسوليين، وأن يحترم الأخيرون ذلك التقليد الذي ورثوه عن الحكومات التي سبقتهم، والذي يعطي السليمانيين حق الاستقلال بمنطقة المخلاف. وهذا ما حدث بالفعل عند قيام الدولة الرسولية، إذ لم يعثر في المصادر على ما يشير إلى أي احتكاك وقع بين الأشراف والغوانم، وبين الدولة الجديدة في عهد مؤسسها السلطان الملك المنصور عمر بن علي بن رسول. ولكن هذا الأمر لم يستمر طويلاً، إذ إن طبيعة النظام الرسولي القائم على الإقطاع، وكثرة القادة المماليك، وأفراد الطبقة الحاكمة الذين يتطلّعون إلى الفوز بإقطاعات مغرية لهم، وخصوبة وادي حرض وخيراته، وقربه جغرافيًّا من مناطق النفوذ الرسولي - أغرت سلاطين بني رسول بإقطاع ذلك الوادي لبعض رجالاتهم. فتعارض ذلك الإجراء مع حرص الأشراف الغوانم على الاحتفاظ بكامل تراب المخلاف السليماني مستقلاً. فقامت لذلك حروب طويلة بين بني رسول والأشراف الغوانم استمرت طوال عهد السلطان المظفر، وشطرًا من عهد خلفائه. وظلت هذه الحروب سجالاً بين الطرفين على الرغم من قوة الدولة الرسولية، وبصورة خاصة في عهد السلطان الملك المظفر الذي مكث في الحكم طويلاً. ولا نعتقد أن ذلك السِّجال في حروب الخصمين يعود إلى امتلاك الأشراف الغوانم من القوة والقدرات المادية ما يعارض قوة خصومهم وقدراتهم. ولكنهم ربما كانوا يلجأون إلى الغارات السريعة، والهجوم المباغت، أو إلى ما يعرف في عصرنا الحاضر بحرب العصابات. وكانت تساعدهم في غاراتهم

---

(١) أنظر على سبيل المثال: تاريخ المستبصر، ص ٥٧؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ١٤٨.

تلك الطبيعة الجبلية والصحراوية للمناطق الشرقية والشمالية التي يلجأون إليها كلما داهمتهم الأخطار، ويساعدهم كذلك الدعم الكبير الذي يحصلون عليه من عرب تهامة، في المخلاف، والحجاز وحتى في اليمن نفسها منذ عهد أجدادهم الأول[١]، فضلاً عن سيطرتهم على طريق الحج والتجارة، والمنافذ الحيوية لبني رسول، الأمر الذي مكنهم من المحافظة على وجودهم، وبقائهم في الحكم، واستقلال بلادهم، ذلك الاستقلال الذي لبث مستتبًا، طوال تلك الفترة في المناطق التي تتكون منها منطقة جازان الحالية، بعد أن خرجت حرض من أيديهم إلى حين. ولكنهم تمكنوا في وقت لاحق من استردادها من أيدي خصومهم، ومن إعادة توحيد المخلاف السليماني واستقلاله، مرة أخرى، تحت حكمهم.

---

(١) سبق أن أشرنا إلى أنه لما استعان الوزير مفلح، وزير بني نجاح، بالشريف غانم بن يحيى، جد الأسرة موضوع هذه الدراسة، ضد القائد سرور، قدم لإعانة مفلح في عساكر عظيمة، ومعه قبائل تهامية من المخلاف واليمن بمن في ذلك قبيلة بني حرام، أهل حلي بن يعقوب. ورأينا في ثنايا هذا البحث قدوم قبائل العرب لإعانة زوجة أبي سيفين ضد القائد عزيز الدين ألطنبغاء، حاكم حرض من قبل بني رسول. أنظر: عمارة، المفيد، ص ١٨١؛ ابن حاتم، السمط، ص ٤٣٦؛ أحمد الزيلعي، بنو حرام، ص ١١٣.

الفصل الثالث

الأسرة القطبية

خالد بن قطب الدين، وقيام الأسرة القطبية.

دريب بن خالد، والسيطرة النهائية على ناحية حرض.

أبو الغوائر، وموقفه من أمير مكة، وسلطان اليمن.

محمد بن المهدي، والتعاون مع المماليك.

عز الدين بن أحمد بين المطرقة والسندان.

محمد بن يحيى، ومنافسة ابن العم.

أحمد بن المهدي، وبداية ضعف الأسرة القطبية.

عامر بن يوسف العزيز، وسقوط الأسرة القطبية.

خالد بن قطب الدين، وقيام الأسرة القطبية

شهدت أوائل القرن التاسع الهجري / الخامس عشر للميلاد قيام الأسرة القطبية في منطقة جازان. وهي تنسب إلى الشريف قطب الدين، والد مؤسسها، خالد بن قطب الدين، أحد أحفاد الأشراف السليمانيين الأوائل، المعروفين بآل أبي الطيب داود الذين اشرنا سابقًا إلى أنهم استوطنوا المخلاف السليماني منذ عهد مبكر، ثم حكموه منذ أواخر القرن الرابع الهجري / أوائل القرن الحادي عشر للميلاد(١). وكان خالد بن قطب الدين هذا أول من حكم منطقة جازان من أفراد أسرته التي تعاقبت بعده على حكم المنطقة حتى قضي عليها نهائيًّا على يد الشريف أبي نمي محمد بن بركات، أمير مكة المكرمة، في سنة ٩٤٣ هـ/ ١٥٣٦ - ٧ م، كما سيأتي. وكانت إمارة منطقة جازان أو المخلاف السليماني، قبل خالد بن قطب الدين في أسرة الأشراف الغوانم المعروفين بالشُّطُوط، الذين سبق الحديث عنهم في الفصل الثاني من هذا الكتاب، إلى أن انتقلت من آخرهم، ويدعى المقلم، إلى أسرة الأمير خالد المذكور(٢).

غير أن المصادر المتاحة التي تورد هذه المعلومات، لم تفصل لنا في

(١) أنظر: النعيمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٦١؛ عاكش، الديباج الخسرواني، مخطوط، ص ٤؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ ١، ص ٢٠٢.

(٢) أنظر: النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٨٢؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٣٢؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٦٢ - ١٦٣؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ ١، ص ٢٠٨.

معرفة انتماء أسرة خالد بن قطب الدين، وهل هي غير أسرة الغوانم المذكورة آنفًا؟ كما لم تحدّد تاريخ انتقال الحكم إلى هذه الأسرة، ولا متى وصل خالد إلى منصب الإمارة؟ ويغلب على الظن أن أسرة الأمير خالد بن قطب الدين هي فرع أدنى من أسرة الغوانم نفسها التي حكم أجدادها المخلاف منذ قيامهم في أواخر القرن الرابع الهجري / آخر القرن العاشر وأول القرن الحادي عشر للميلاد حتى وصول الأمير خالد إلى الحكم. وإذا كان هناك انتقال في الحكم من أسرة الغوانم إلى أسرة قطب الدين كما يعتقده مؤرخو المخلاف، وعليه بنوا رأيهم، فربما يكون قريبًا جدًّا ومحصورًا بين أبناء الشريف قطب الدين والأمير المقلم، آخر الأمراء الغوانم؛ لأن هؤلاء المؤرخين أنفسهم يوردون نسب الأمير خالد بن قطب الدين متصلاً اتصالاً وثيقًا بسلسلة نسب الأشراف الغوانم، فهم يذكرون أن خالدًا هو «خالد بن قطب الدين بن محمد بن هاشم (جمال الدين) بن محمد بن هاشم (قاسم) بن غانم بن يحيى بن حمزة»[١]. وهذه السلسلة من النسب هي سلسلة نسب الأمراء الغوانم الذين حكموا المخلاف السليماني أو منطقة جازان طوال القرون الأربعة الماضية التي أعقبت وفاة جدّهم الأكبر غانم بن يحيى بن حمزة، مما لا يوحي بأن أسرة قطب الدين تختلف عن أسرة الغوانم السابقة لها[٢]. إذن، فما هو الفرق بين

(١) عاكش، الديباج الخسرواني، مخطوط، ص ٧؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٢٢؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٧٣. تمام سلسلة أنسابهم هو: حمزة بن وهاس بن الطيب داود بن عبدالرحمن بن عبدالله (أبو الفاتك) بن داود بن سليمان بن عبدالله الشيخ الصالح بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب. أنظر: ابن عنبة، عمدة الطالب، ص ٩٩ - ١٠٢.

(٢) أنظر: عاكش، الذهب المسبوك، مخطوط، ص ١٣؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٢٢. ويبدو أن غانم هو الأصل، وقطب الدين هو الفرع القريب، وإليه انتسب أبناؤه؛ لأن القصائد التي تضمنت مديح بعض الأمراء تقرر هذه الحقيقة، ومن أمثلة ذلك ما قيل في الأمير المهدي الذي سيأتي ذكره فيما بعد: =

الأسرتين؟ وكيف أصبحت أسرة الأمير خالد تسمى بالأسرة القطبية، وليس باسم الغوانم؟ والواقع أن الفرق ربما يكمن - كما تقدم - في انتقال الحكم من المقلم إلى ابن عمه خالد وليس إلى أبنائه، إن كان له أبناء؛ إذ من المحتمل أن المقلم هو أخو قطب الدين، أو ابن عمه، أو حتى ابن عم الأمير خالد بن قطب الدين، وهو الأقرب إلى الصحة، لقصر الفترة بين قطب الدين وجده جمال الدين هاشم بن محمد، أمير جازان في عهد السلطان الملك الأشرف الرسولي (ت ٦٩٦ هـ/ ١٢٩٦ م)، وتباعد الفترات التاريخية بين كل أمير وآخر في هذه السلسلة، إلاّ إذا أخذنا في الاعتبار أن بضعة أفراد ممن سبق ذكرهم من أجداد هذه الأسرة كانوا من المعمّرين، وربما يشيع طول العمر بالوراثة بين بعض أحفادهم[1]. وهكذا يعتقد أن منصب الإمارة انتقل من الأمير المقلم إلى الأمير خالد، لاحتمال أن الأول لم يخلّف أولادًا ذكورًا، أو أنهم كانوا دون سن الرشد عند وفاته، وأن خالدًا كان مؤهلاً للإمارة أفضل من غيره من أفراد أسرتهما، ناهيك عن أنه زوج ابنة المقلم الأمير السابق[2]، ومن أفضل بني سليمان في عهده جودًا وكرمًا[3]. أما كيف سميت هذه الأسرة باسم

= القطبي الخالدي الغانمي الحيدري الأزهري الفاطمي
القرشي الحسني الهاشمي حديث كل الناس في المواسم
ونقطة البيكار من معد

وقيل فيه من قصيدة أخرى:

فآل غانم يا مولى بني حسن قواعد الأمر إن غابوا وإن حضروا

وقيل فيه أيضًا:

وملمومة قطبية غانمية جلبت على أرض العدو المحارب

الجراح بن شاجر، الديوان، ص ٧٧، ٨١، ٩٢.

(١) عُمِّر إلى ما بعد المائة سنة عدد من الأجداد البعيدين لهذه الأسرة، أشرنا إليهم سابقًا في الفصل الأول من هذا الكتاب.

(٢) البهكلي، العقد المفصل، ص ٥٤؛ عاكش، الذهب المسبوك، مخطوط، ص ١١؛ وانظر أيضًا: الجراح بن شاجر، الديوان، ص ١٠٠، هامش ٢.

(٣) أنظر: النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٢٨.

الأسرة القطبية، أو آل قطب الدين، ولم تسمَّ بأسرة الغوانم، كما كان عليه الحال قبل الأمير خالد، فربما يعود ذلك إلى أن جميع الأمراء الذين تعاقبوا على حكم منطقة جازان بعد خالد بن قطب الدين، كانوا من أبنائه وأحفاده، هذا إلى جانب انتسابهم إلى جدهم الأقرب قطب الدين، وشيوع هذه النسبة لدى المؤرخين الذين تناولوا تاريخ هذه الأسرة والذين لا ينقصهم وجود شواهد كثيرة مماثلة من تاريخ الأشراف الحسنيين حول انتساب بعض أسرهم الحاكمة إلى جد قريب على الرغم من التقائهم مع الأسر التي سبقتهم في الحكم، في جد واحد بعيد نسبيًّا[1].

أما متى بدأ حكم الأسرة القطبية لمنطقة جازان على يد مؤسسها خالد بن قطب الدين، فهذا ما لا نعرفه على وجه التّحديد، ولم تتحه لنا المصادر الميسورة، ولكن هناك إشارة مفيدة في هذه المصادر تتعلق بمدّة حكم تلك الأسرة التي تقدر بنحو مائة وأربعين سنة[2]. وقد تقدّم أن الأسرة القطبية سقطت نهائيًّا على يد الشريف أبي نمي محمد بن بركات في سنة ٩٤٣ هـ/ ١٥٣٦ - ٧ م، فإذا طرحت هذه المدة من تاريخ سقوط الأسرة القطبية، فإن بداية تأسيسها ربما تم في سنة ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ - ١٤٠١ م، وهو تاريخ وصول

---

(١) الأمثلة على انتساب أسر الأشراف الحاكمة إلى جدّ أقرب بالرغم من التقائهم مع من سواهم في جد أبعد، كثيرة ومتعدّدة؛ من ذلك أشراف مكة مثلاً الذين برز منهم الموسويون، والسليمانيون، والهواشم، والقتاديون، وجميعهم يلتقون في موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب. أنظر: الفاسي، شفاء الغرام، جـ ٢، ص ٣٠٦ - ٣١٥ والصفحات التي بعدهما؛ دحلان، أمراء البلد الحرام، ص ٢٨ - ٣٦ والصفحات التي بعدها؛ أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص ٣٩ - ٧٨؛ ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية، ص ١٣ - ٣٥، ٢٣٩ - ٢٤٢.

(٢) أنظر: النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٨١؛ عاكش، الديباج الخسرواني، مخطوط، ص ١٢؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ١٣١؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٦٢.

مؤسّسها الأمير خالد بن قطب الدين إلى الحكم، وربما وفاة ابن عمه الأمير المقلَّم، آخر من يسميهم مؤرخو المخلاف السليماني بالأمراء الغوانم، المعروفين بالشُّطوط[1].

ومما يؤسف له أن جميع المصادر المحليّة، وغالبيتها غير معاصرة لهذه الأسرة، موضوع الدراسة، تكتفي فقط بإيراد أسماء الأمراء القطبيين وأنسابهم، دون الإشارة إلى الأحداث التي لعبوا دورًا فيها، وإلى علاقاتهم بغيرهم، كما أن المصادر اليمنية والمكية المعاصرة لتلك الفترة ضربت صفحًا عن ذكر الأمراء القطبيين، وعن أحداث منطقة جازان، وإن تفضلت بعض المصادر اليمنية - على الأقل قبل القرن العاشر الهجري / السادس عشر للميلاد - بالإشارة إلى بعض أحداث هذه المنطقة، وخاصة المتّصلة منها بسلاطين اليمن، وملوكها، أو بأهلها، فإنها لا تشير في معظم الحالات إلى أمراء جازان بأسمائهم، وإنما تكتفي فقط بالإشارة إلى أمير جازان، أو صاحب جازان المتّصل بهذا الحدث، أو ذاك.

ومهما يكن الحال، فإن الأسرة القطبية وصلت إلى الحكم والأوضاع السائدة في المنطقة على غير ما يرام؛ فالرسوليون، الذين شهد القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي صراعًا مريرًا بينهم وبين الأشراف الغوانم، أجداد آل قطب الدين، حول حرض وناحيتها، تمكنوا منذ سنين طويلة من انتزاعها من الغوانم، وبسط سيادتهم عليها[2]. وأشراف مكة، منذ عهد حسن بن عجلان (ت ٨٢٩ هـ/ ١٤٢٦ م) أخذوا يتطلعون إلى المناطق الواقعة إلى الجنوب من إمارة مكة المكرمة، بهدف ضمها إلى الحجاز بعد أن نجحوا في

---

(١) ترد هذه النسبة، أو التسمية عند معظم مؤرخي المخلاف السليماني دون أن يوضّحوا كيف جاءت؟ وما هو أصلها؟ أنظر على سبيل المثال: عاكش، الديباج الخسرواني، مخطوط، ص ١٢؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص ٣٦.

(٢) عن صراع بني سليمان مع الرسوليين حول مدينة حرض وناحيتها، أنظر: ابن هتيمل، الديوان، ص ٤٨ - ٥١، ٥٤ - ٥٥، ٦٠ - ٦١، ٦٥، ٦٩ - ٧٠؛ وانظر أيضًا: الفصل الأول من هذا الكتاب.

بسط سيادتهم على المدينة المنورة[1]. وأمراء حَلِيْ بن يعقوب الذين أصبحوا - فيما بعد - يستمدّون دعمهم من أشراف مكة المكرمة، لم يخفوا أطماعهم في شمال منطقة جازان، بل وفي جازان نفسها، كما سيتضح ذلك في فترات لاحقة. وكان على أمراء الأسرة القطبية مراعاة هؤلاء الجيران من أجل بقائهم، والاحتفاظ باستقلال إمارتهم الذي حافظ عليه أجدادهم من قبلهم طوال القرون الماضية.

غير أن من حسن حظ الأمراء القطبيين، أن بني رسول الذين انتزعوا منطقة حرض من أجدادهم، الأشراف الغوانم، كانوا حينذاك يمرّون بأشدّ الفترات العصيبة التي شهدها تاريخهم الطويل، بسبب ما تعرضت له السلطنة من ثورات قبائل المناطق الشمالية من تهامة اليمن[2]، وبسبب تهديد الإمام الزيدي الناصر صلاح الدين (ت ٧٩٣ هـ/ ١٣٩١ م) لهم باستلاب بلدان كثيرة في الجبال، وفي تهامة، كانت تحت سيطرة بني رسول[3]. وبالرغم من تمكن الرسوليين في أواخر حكم السلطان الملك الأشرف الثاني إسماعيل

---

(١) بعد أن دخلت المدينة المنورة تحت سيطرة الشريف حسن بن عجلان (ت ٨٢٩ هـ/ ١٤٢٦ م)، منحه السلطان فرج بن برقوق، سلطان المماليك بمصر، لقب نائب السلطنة في الأقطار الحجازية، أنظر: الفاسي، العقد الثمين، جـ ٤، ص ١٠٥؛ المقريزي، السلوك، جـ ٤، ص ٧٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ١٥، ١٣٥.

(٢) عُرفت المناطق الشمالية من تهامة اليمن في ذلك الوقت باسم تهامة الشام، وتمتد من جنوبي حرض إلى مدينة زبيد، ومن أهم أعمالها: مَوْر، ورَحْبَان، وسُرْدُد، وسَهَام، كما تقدم، وأشهر قبائلها: القرشيون، والواعظات والزيديون، نسبة إلى مدينة الزيدية، وهم سُنَّة، وبنو حفيص، والمعازبة: أنظر، على سبيل المثال: ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص ٥٦؛ ابن الأهدل، علماء اليمن، مخطوط، ورقة ٣١٣ ب - ٣١٦ أ وما بعدها؛ الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ١٠٢ والصفحات التي بعدها في أماكن متفرقة.

(٣) عن تهديدات قبائل شمال تهامة اليمن، والإمام الزيدي للمناطق الرسولية، أنظر: محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ٢١٧ - ٢٢٤.

(ت ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م)، وأوائل عهد ابنه السلطان الملك الناصر أحمد بن إسماعيل الأشرف (ت ٨٢٧ هـ/ ١٤٢٤ م)، من استعادة بعض ما فقدوه، فإن الأسرة القطبية انتهزت فترة الضّعف تلك، وشنّت هجومًا على مدينة حرض في سنة ٨٠٦ هـ/ ١٤٠٣ - ١٤٠٤ م، حيث تمكنت من امتلاكها، مستغلّة في تحقيق أهدافها الرامية إلى الإستيلاء على حرض، انشغال بني رسول بثورة قامت بها قبائل المعازية في نواحي زبيد[١]. ويبدو أن هذه المحاولة التي قام بها زعيم الأسرة القطبية، الأمير خالد بن قطب الدين، كانت تهدف إلى الرّفع من شأنه في نظر قومه من الأشراف السليمانيين عامة، وإلى إشعارهم بأنه لن يتخلى عن مطالبهم التاريخية في حرض، كما ترمي من ناحية أخرى، إلى تثبيت أقدامه في حكم المنطقة، وفي زعامة قومه.

غير أن محاولة الأمير خالد في استرداد حرض، جوبهت برد فعل غاضب من سلطان بني رسول، الملك الناصر أحمد، إذ لم تمض ثلاث سنوات على هذه الحادثة، حتى أقدم الأخير على غزو المخلاف السليماني، ولم يقف عند استرداد حرض، بل توغل إلى جازان نفسها التي غادرها أميرها مفسحًا الطريق أمام سلطان بني رسول، فوجدها خالية من أي أحد[٢]. وبعد أن وصلها السلطان الناصر، طلب منه أمير جازان الذّمام، فأعطاها السلطان الرسولي له، ثم قابله الأمير، وأنعم عليه، ولكنه اعتقله، وبعث به أسيرًا إلى زبيد، صحبة الأمير محمد بن زياد الكاملي، ابن أمير حرض السابق من قبل بني رسول[٣] ثم توجّه السلطان الرسولي إلى حلي في مهمة مماثلة، ولكن أميرها التقاه في البرك، مصحوبًا بالهدايا والتحف الثمينة، وطلب إليه العودة قبل أن يصل إلى حلي، لعدم قدرتها على وطأة الجيش الرسولي، وإمداد أفراده بالمِيْرَة التي يحتاجونها. فعاد السلطان إلى جازان، حيث أمَّر عليها أحد

---

(١) ابن الحسين، غاية الأماني، ج ٢، ص ٥٦٠ - ٥٦١.

(٢) الديبع، بغية المستفيد، ص ١٠٢.

(٣) الديبع، قرة العيون، ج ٢، ص ١٢١.

أقارب أميرها الأسير[١]. وهذه أول إشارة تصادفنا عن تدخل مباشر من قبل سلاطين بني رسول في تنصيب أحد الأمراء على منطقة جازان، ولم يجد بنو سليمان، أمام وطأة الهزيمة، وحجم القوة المصاحبة للسلطان الناصر، مَفَرًّا من القبول بالأمر الواقع، وربما تمّ هذا الأمر باختيارهم وموافقتهم على الشخص الذي عُيِّن خلفًا للأمير الأسير، مما ينفي عنهم وصمة التدخل الرسولي المباشر، خاصة وأن الأمير الجديد من ذوي قرابة أمير جازان السابق. وربما اعتبر الأشراف السليمانيون هذا التعيين إجراءً وقتيًّا، الغاية منه جلاء السلطان وقواته عن ديارهم، فلما تحقق لهم ما أرادوا، وعاد السلطان إلى زبيد، سعى علماؤها لديه في فكاك أمير جازان لكونه محبوبًا عند الناس لكرمه، فاستجاب السلطان لسعي العلماء، وشفاعتهم فيه، وأطلق سراحه، وخلع عليه، وأعطاه عشرين ألف دينار، وخمسين مملوك، وأعاده إلى بلده وإمارته مكرمًا معززًا، وأمر جماعة من الأمراء بتشييعه إلى بيت الفقيه[٢].

ومهما يكن من أمر، فإن المصادر الميسورة لم تتحدث عن وصول أمير جازان إلى بلده، وعن كيفية استعادته للحكم، ومصير أميرها المعيَّن أثناء أسره، ولا عن علاقات أسرته ببني رسول بعد إطلاق سراحه. ويكاد يكون في حكم المؤكد أنه استعاد حكم منطقة جازان بعد هذه الحادثة، وأنه استمر في السلطة زمنًا غير قصير دون أيّ منازع، حتى أن صاحب العقيق اليماني يطلق عليه لقب «ملك جازان»[٣]، بدلاً من أمير جازان، وهو اللقب الذي أطلق على معظم الأمراء الذين تقلّبوا على حكمها قبل الأمير خالد. أما عن علاقاته،

---

(١) الديبع، بغية المستفيد، ص ١٠٢ - ١٠٣؛ ابن الحسين، غاية الأماني، ج ٢، ص ٥٦٢ - ٥٦٣.

(٢) الدبيع، قرة العيون، ج ٢، ص ١٢١؛ ابن الحسين، غاية الأماني، ج ٢، ص ٥٦٣.

(٣) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٢٨. ورد هذا اللقب مرة واحدة متبوعًا باسم الشريف غانم بن يحيى بن حمزة من الأشراف السليمانيين الأوائل، أنظر: الفصل الأول من هذا الكتاب.

وعلاقات أسرته ببني رسول، فإننا لا نعرف عنها شيئًا على وجه التحديد، طوال حكمه الذي استمر إلى سنة ٨٤٢ هـ/ ١٤٣٨ م[١]. وإن كنا نعتقد أنه عاود الكرَّة فيما يتّصل بغزو حرض، ومحاولة استعادتها من أيدي سلاطين بني رسول، وضمّها إلى منطقة جازان، في محاولة منه لإعادة توحيد المخلاف مرة أخرى تحت سيادته. ويؤيد هذا الاحتمال انحسار نفوذ سلاطين بني رسول عن حرض سنوات عديدة، خاصة بعد وفاة السلطان الناصر أحمد بن اسماعيل في جمادى الأولى سنة ٨٢٧ هـ/ ١٤٢٤ م، حيث يذكر ابن الأهدل أن ولاة بني رسول لم يستطيعوا الوصول إلى حرض، أو الاستقرار فيها عدة سنوات، وأن الناحية والمدينة كانتا معًا في أيد غير أيدي بني رسول[٢]؛ مما يعني أن مدينة حرض وناحيتها ربما كانت في أيدي الأسرة القطبية. كما أن علاقة بني رسول بأمير جازان ربما كانت غير حسنة، والاتصالات بين الزعيمين الرسولي والقطبي ربما كانت مقطوعة، بدليل أن الكرماني المتصوف والمتهم بممالأة الملك العباس بن الأشرف، في خروجه على أخيه السلطان الظاهر سنة ٨٣٨ هـ/ ١٤٣٤ م[٣] - هرب إلى جازان في السنة نفسها، عندما شعر بالخوف من القبض عليه من قبل السلطان الظاهر، ولجأ إلى أميرها خالد بن قطب الدين، ومكث في جازان حتى وفاته في سنة ٨٤١ هـ/ ١٤٣٧ - ٣٨ م. ولم يستطع السلطان الظاهر، نتيجة لتلك العلاقات غير الحسنة والمقطوعة، المطالبة به، أو ملاحقته في ملجئه، على الرغم من هزيمته لأخيه العباس، والقضاء على ثورته في سنة ٨٣٩ هـ/ ١٤٣٥ م[٤].

ولم يصل إلى علمنا أيّ نشاط يذكر للأمير خالد، على المستوى المحلِّي، سوى ما يذكره العقيلي من أن عهده شهد خراب مدينة المَنَارَة

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٧٣.

(٢) علماء اليمن، مخطوط، ورقة ١١٣ ب، ١١٤ أ - ب؛ محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٣) الديبع، قرة العيون، ج ٢، ص ١٣٢.

(٤) الديبع، قرة العيون، ج ٢، ص ١٣٢ - ١٣٣.

لخروج أهلها عن طاعته فأغار عليهم، وخرب مدينتهم، وأجبرهم على النزوح إلى قرية ضَمَد، الواقعة إلى الشمال من مدينة جازان العليا[1]. ولم يورد العقيلي تاريخًا لخروج أهل مدينة المنارة عن طاعة الأمير خالد، ولا تحديدًا لموقع هذه المدينة[2]، وإن كان من المعتقد أن أهلها ربما خرجوا في بداية حكمه، وكان لزامًا عليه أن يكون رد فعله قويًّا وحاسمًا حتى يمنع الخارجين عليه من معاودة الخروج، وحتى يكون عمله هذا عبرة للآخرين ممن تسوِّل لهم أنفسهم السّير في ذلك الاتجاه. ويبدو أن سياسته تلك كانت حاسمة، إذ لم تذكر المصادر المتاحة أي محاولة للخروج عن طاعته لا من قِبَلِ عشيرته، ولا من قبائل المنطقة عامة، حتى وفاته في سنة ٨٤٢ هـ/ ١٤٣٨ - ٣٩ م[3].

(١) المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٧٣.

(٢) يورد العقيلي مدينة المنارة في معجمه، ويذكر بأنها مدينة أثرية لا يزال موقعها معروفًا جنوب غرب قرية الكواملة على مسيل وادي جازان. أنظر: المعجم الجغرافي، ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٣) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٢٨.

دريب بن خالد والسيطرة النهائية على ناحية حرض

كان نصيب الأمير دُرَيْب من الشهرة في بعض المصادر التاريخية غير المحلية، أكثر من شهرة والده، حيث ترجم له السخاوي بقوله: «دريب بن خلد (كذا) بن الأمير قطب الدين الحسني، صاحب جازان. كان نبيلاً جليلاً ذا مكارم ومحاسن محبًّا في الشعر ممدحًا، مقصودًا بذلك، وبالهدايا والتحف... فاجتمع عنده من ذلك ما يفوق الوصف»(١).

تولى دريب إمارة منطقة جازان في السنة التي توفي فيها والده(٢)، ويبدو أنه سار في الطريق نفسها التي سار فيها والده، من حيث حرصه على استرداد ناحية حرض، وإعادة توحيد المخلاف السليماني تحت سيادة الأسرة القطبية كما كان عليه الحال في عهد أجداده، وساعدته الظروف المحيطة بالسلطان الرسولي الملك الأشرف الرابع إسماعيل الذي كان توليه السَّلطنة متزامنًا مع وصول الأمير دريب إلى كرسي الإمارة، في سنة ٨٤٢ هـ/ ١٤٣٨ - ٣٩ م(٣)، ولم يستطع التغلب على العرب الثائرين عليه في مختلف الجهات الشامية، ولم تتمهد له الطريق في السيطرة عليهم حتى وفاته في رمضان سنة ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م(٤). فاستغل الأمير دريب بن خالد تلك الظروف التي هيأت له الفرصة

---

(١) أنظر: السخاوي، الضوء اللامع، جـ ٣، ص ٢١٨.

(٢) البهكلي، العقد المفصل، ص ٥٤؛ النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٢٨.

(٣) أنظر ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ ٢، ص ٦٠٧؛ محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ١٣٥.

(٤) ابن الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ١٣٨؛ محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ٢٣٥ - ٢٣٧.

لتحقيق مبتغاه في الاستيلاء على حرض، على حساب عدم الاستقرار في شمال اليمن، لذلك استطاع أن يشنّ عددًا من الحملات على جنوبي المخلاف ونواحي حرض، فتمكن من إخضاع بني موسى، رؤساء الشَّرْجَة بساحل حرض، وبني سَبَأ، مشايخ حرض نفسها، وغيرهم من مشايخ تلك الناحية، وضمهم إلى منطقة إمارة جازان بالقوَّة، بعد أن أقرهم على ما تحت أيديهم مقابل إتاوات يدفعونها إليه، وضمانات أخرى ضمنوها له[١]. وبذلك دخلت حرض وناحيتها ضمن نفوذ الأمراء القطبيين بزعامة الأمير دريب؛ ولم يعثر في المصادر المتاحة على أي رد فعل عسكري، أو خلافه من جانب سلاطين بني رسول حتى انقراض دولتهم في سنة ٨٥٨ هـ/ ١٤٥٤ م، وقيام دولة بني طاهر على أنقاضها[٢].

ويبدو أن قيام دولة بني طاهر لم يغيّر شيئًا من الوضع الذي كان قائمًا في حرض وجنوبي المخلاف منذ أواخر عهد أسلافهم، بني رسول، حيث بقيت تلك المناطق في قبضة الأمير دريب وعشيرته، بدليل أن دولة بني طاهر كانت تقف، في عهد مؤسّسها السّلطان الملك المجاهد علي بن طاهر بن معوضة (ت٨٨٣ هـ/ ١٤٧٨م)، عند حدود منطقة حرض الجنوبية، ولم تتعد ذلك إلى الشمال كما نصّ على ذلك اقتسام المملكة بين السلطان علي بن طاهر بن معوضة، وأخيه الملك الظّاهر، حيث أخذ الأول تهامة: من حدود ما ذكرنا شمالاً إلى حَيْس جنوبًا، وكان نصيب الثاني من حيس شمالاً إلى عدن جنوبًا، بما في ذلك تعز، وإبّ وجبْلة، وذمَار، وبعض الحصون الجبلية[٣].

(١) ابن الأهدل، علماء اليمن، مخطوط، ورقة ٥ ب.

(٢) أنظر: ابن الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ١٤٣ - ١٤٨؛ أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص ٢٣١؛ محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ٢٤٢ - ٢٥٧. يجعل ابن تغري بردي، زوال الدولة الرسولية وقيام الدولة الطاهرية في سنة ٨٦٠ هـ/ ١٤٥٦ م، بدلاً من التاريخ المشار إليه في المتن، وهو ٨٥٨ هـ/ ١٤٥٤ م. أنظر: حوادث الدهور، جـ ٢، ص ٦٠٤، ٦٠٧.

(٣) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٣١ - ٣٢. انفرد عامر في أول الأمر =

وكان الأمير دريب بن خالد بعيد النظر في سياسته تجاه جيرانه الجدد، فلم يتورط في الأحداث الدائرة بالقرب من حدود إمارته الجنوبية، ولم يبد جفاءً لبني طاهر، أو يتحرش بهم، وهم في غمرة انتصارهم، ونشوة حماسهم للسلطة والملك. بل عمل على مهادنتهم، ومداهنتهم، ومهاداتهم في بداية أمرهم، حيث يقول صاحب العقيق اليماني: «وداهنهم ملك جازان، وكان يهدي لهم كل عام مقدار ألف دينار هديَّة قهر أو رهبة لا محبَّة ورغبة»(١). وقد أثمرت هذه السياسة في وقوف بني طاهر عند حدود حرض، ولم يتعدوها إلى الشمال طوال حكم الأمير دريب. كما أتاحت للأمير دريب التمسك بالأراضي التي دخلت تحت حكمه في فترة ضعف الدولة في أواخر أيامها.

غير أن علاقة الأمير دريب ببني طاهر، يبدو أنها تبدلت وشابها الفتور، بعد أن رأى أن الأوضاع غير مستقرّة للأخيرين في الجهات الشامية العازلة بين إمارته، وبين زبيد، معقل الطاهريين في تهامة اليمن، وأن سلطتهم في تلك الجهات غير مستتبّة(٢). وأن الشّكوك حامت من قِبَلهم حول تورط أمير جازان في القلاقل المستفحلة ضدّهم في الجهات الشامية؛ فربما أخذ بنو طاهر على الأمير دريب تحريكه لبعض الفئات المعارضة لسلطتهم في تلك الجهات. ومما له دلالته على ذلك المأخذ، أن السلطان الملك المجاهد علي بن طاهر قبض على الشيخ إسماعيل الجبرتي في زبيد، وصادر أملاكه في سنة

= بالخطبة والسكة دون أخيه، على الرغم من كونه الأصغر، أنظر: الديبع، بغية المستفيد، ص ١٢٤؛ بامخرمة، قلادة النحر، ج ٣، ص ١١٢١؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٢١؛ محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ٢٥٨.

(١) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٣١.

(٢) كانت قبائل الجهات الشامية، الممتدة إلى الشمال من زبيد إلى حدود حرض، لا تهدأ ثورتها منذ عهد بني رسول، وكان من أكثر هذه القبائل ثورة على السلطات الحاكمة في زبيد قبائل المعازية والقرشيين والزيديين وبني حفيص. أنظر: محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول، ص ٢٦٠.

٨٦٥هـ/ ١٤٦١م، بتهمة أنه كاتب أمير جازان وأطمعه في البلاد[١]، ومع أن الشيخ الجبرتي نفى هذه التهمة، وبرأه كثيرون منها، وأن السلطان عطف عليه فيما بعد، ورد بعض أملاكه[٢]، فإنها لا تخفي حقيقة أن العلاقات بين الزعيمين، الطاهري والقطبي، كانت غير حسنة، وأن أمير جازان كانت له أطماع في تهامة اليمن، أو على الأقل إثارة المشاكل في وجه جيرانه بني طاهر. كما أن هناك دليلاً آخر يشير بأصابع الاتهام إلى ضلوع الأمير دريب في احتضان المعارضين لبني طاهر في الشمال، أو على الأقل عدم التعاون مع الأخيرين ضد خصومهم، ففي سنة ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م قامت قوات بني طاهر بقيادة ابن سفيان بالإغارة على بلاد الزيديين، فكانت بينهم وبين بني حفيظ، أهل الزيدية وقعة قتل فيها أبو الغيث بن محمد بن حفيظ، وجماعة من أهله، بالإضافة إلى ما لا يزيد على ثلاثمائة من رجاله[٣]. فتوجه ابن المقتول أحمد بن أبي الغيث إلى جازان، وعاد ابن سفيان إلى زبيد بعد أن عمّر قرية الشُّرَيْج بالقرب من الزيدية، وترك بها الأمير سليمان بن جياش السنبلي[٤] فما كاد يصل ابن سفيان إلى زبيد، ويستقر بها حتى رجع أحمد بن أبي الغيث من جازان، فجمع الجموع، وضرب حصارًا على قرية الشري؛ فلما رأى الأمير سليمان السنبلي ألاّ قِبَلَ له بمقاتلة هذه الجموع لكثرتهم، فرّ هاربًا بفرسانه بين صفوف الزيديين، فنجا ببعض من معه، بعد أن قتل الزيديون جماعة من فرسانه[٥]. ولا نعرف عما إذا كان أحمد بن أبي الغيث ذهب إلى جازان

---

(١) الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ١٥٣.

(٢) الديبع، بغية المستفيد، ص ١٣١.

(٣) الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ١٥٩؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ٢، ص ٦٠٤؛ في بغية المستفيد، للمؤلف نفسه ص ١٣٣ «بنو حفيص»، ويتفق الدكتور محمد عبدالعال أحمد في كتابه بنو رسول وبنو طاهر، ص ٢٦٠، مع هذه التسمية الأخيرة.

(٤) الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ١٥٩؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ ٢، ص ٦٠٤.

(٥) الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ١٥٩ – ١٦٠.

ملتمسًا العون من صاحبها الأمير دريب، أو أن الأمير دريب استجاب لطلبه؛ كما لم يصل إلى علمنا أيّ ردّ فعل من جانب بني طاهر، فيما يتعلق بتلك الاتصالات المشكوك فيها، بين أحمد بن أبي الغيث، والأمير دريب بن خالد، طوال السنتين التاليتين لتلك الأحداث حتى توفي الأمير دريب في سنة ٨٧٦ هـ/ ١٤٧١ - ٧٢ م[١]، وبقيت الجهات الشامية منتفضة كعادتها على بني طاهر، وظل بنو طاهر يواصلون جهودهم لإخماد انتفاضتها[٢].

(١) السخاوي، الضوء اللامع، جـ ١، ص ٢٩٩.

(٢) الديبع، قرة العيون، جـ ٢، ص ١٦٠ - ٦٢.

أبو الغوائر، وموقفه من أمير مكة، وسلطان اليمن

تولى الأمير أحمد بن دريب، المعروف بأبي الغوائر، مقاليد الإمارة في منطقة جازان، أو المخلاف السليماني، بعد وفاة والده الأمير دريب بن خالد في السنة نفسها. وليس للأمير أحمد بن دريب ترجمة في المصادر التي وصلت إلى أيدينا، والتي عنيت بتراجم أهل زمانه، سوى السخاوي الذي يكتفي فقط بذكر اسمه، وسلسلة نسبه، وبأنه صاحب جازان، وابن صاحبها[1]. ولكنه، من ناحية أخرى، لا يذكر شيئًا عن حياته وعن الأحداث التي لعب دورًا فيها، وإن كان يشير إشارة مقتضبة إلى حصار الشريف محمد بن بركات (ت ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م)، أمير مكة المكرمة، لجازان بقوله: «حاصره السيد محمد بن بركات في سنة اثنتين وثمانين (وثمانمائة)، كما في الحوادث»[2]. وبالرغم من أن هذه الحادثة زعزعت مكانة الشريف أبي الغوائر، وهدّدت ملكه في منطقة جازان بالزّوال، وكادت - في حينها - تقضي على مستقبله السّياسي، فإنها من ناحية أخرى، كانت سببًا في شهرته في المصادر التي تناولت سيرة الشريف محمد بن بركات، وكانت البداية الحقيقية والملموسة في علاقات أشراف المخلاف السليماني ببني عمهم أشراف مكة المكرمة. وكانت العلاقات بين أشراف الإمارتين تحكمهما، فيما سبق، روابط النّسب والقربى، والجوار؛ إلاّ أنها دخلت في عهد الشريف أحمد أبي الغوائر منعطفًا خطيرًا أثار حفيظة الشريف محمد بن بركات على ابن عمه شريف جازان، وعكّر صفو ما بينهما

(١) الضوء اللامع، ج ١، ص ٢٢٩.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

من الصّلات الوثيقة، ذلك أن أمير جازان أقدم على إيواء الشريف علي بن بركات، أخي الشريف محمد بن بركات، ومنافسه على إمارة مكة المكرمة، عندما قدم عليه في جازان مغاضبًا لأخيه(١). ولم يكتف أبو الغوائر باستقبال الشريف علي وإكرامه، بل سهّل أمر سفره إلى مصر عن طريق سَوَاكِن لمقابلة السلطان المملوكي قايتباي (ت ٩٠١ هـ/ ١٤٩٦ م)، وطلب مساعدته ضد أخيه(٢). كما أقدم أمير جازان على إيواء القادة العُمَرَة، وغيرهم ممن نفاهم أمير مكة منها والذين كانوا لا يزالون عنده، ويحظون برعايته، على الرغم من كونهم يشكّلون خطرًا على الشريف محمد بن بركات نفسه(٣). ويضيف العقيلي أمرًا آخرًا هو رغبة أمير مكة المكرمة في ضمِّ منطقة جازان إلى مناطق نفوذه(٤)؛ وإن كنا نستبعد ذلك، بدليل أنه لم يحدث شيء من هذا القبيل بعد احتلاله لها، كما سيأتي أدناه. ومهما يكن من أمر، فإن هذه المشاكل العالقة بين الأميرين، أغاظت الشريف محمد بن بركات، وحملته على اتخاذ قراره بغزو جازان، ووضع حد لما اعتبره تحدّيًا له من جانب أميرها، فجمع شريف مكة عسكرًا كثيرًا جدًّا، واحتفل به احتفالاً زائدًا قبل خروجه من مكة المكرمة(٥). ويقال إنه اصطحب في غزوته تلك زوجاته وسراريه، وجميع أهله، وخرج من مكة في ربيع الأول سنة ٨٨٢ هـ/ ١٤٧٧ م(٦). فلما وصل إلى مدينة جازان، فرض عليها حصارًا استمر أيامًا(٧). وتردّدت الرسل بين محمد بن بركات وأحمد بن دريب، فلم ينتظم بينهما صلح، ووقعت بينهما وقعة عظيمة، انهزم فيها صاحب جازان، وقتل من أصحابه جمع غفير، وولى

---

(١) ابن فهد، اتحاف الورى، جـ٤، ص٦١٣.

(٢) ابن فهد، الدر الكمين، مخوط، ورقة ١٩ب.

(٣) ابن فهد، اتحاف الورى، جـ٤، ص٦١٣.

(٤) المخلاف السليماني، جـ٢، ص٢٧٤.

(٥) ابن فهد، اتحاف الورى، جـ٤، ص٦١٣؛ البهكلي، العقد المفصل، ص٥٣.

(٦) الديبع، بغية المستفيد، ص١٥٥؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص٢٧٤.

(٧) ابن فهد، اتحاف الورى، جـ٤، ص٦١٣؛ البهكلي، العقد المفصل، ص٥٣.

هاربًا[1]. ويصف الديبع الشيباني هذه الكارثة التي حلت بجازان وبأهلها بعد هروب أميرها بقوله: «وانتهكت الحرمات، وانكشفت العورات، وجرى على نساء صاحب جازان من الذل والإهانة، وكشف الحجاب ما لم يكن لأحد في حساب، وانتهبت خزائنه، وفيها من الكتب النفيسة شيء كثير، وأخذ من السلاح ما جمعه أبوه وجده، ونهبت جازان، وأحرقت داره، وهدمت دار الخلافة، وسور البلد، وأصبحت جازان خاوية على عروشها»[2]. أما مؤرخ مكة نجم الدين بن فهد، فيذكر أيضًا بشاعة هذه الكارثة التي حلّت بجازان، وأنها كانت نازلة شنيعة عاد وبالها على مكة لما أصابها من قحط في السّنين التي تلت هذه الحادثة[3]. ولكنه يعطي معلومات مختلفة عما سبق ذكره حول الملابسات التي سبقت المعركة، وحول حريق المدينة، حيث يقول: «فلما وصل جازان حاصرها أيامًا يسيرة، وجاءه المشايخ، ودخلوا عليه بالصلح، فقال السيد محمد بن بركات: بعد أن جئت إلى هنا، فلا بد أن أدخل من باب، وأخرج من الثاني، ولا أحدث شيئًا. فامتنع صاحب جازان السيد أبو الغوائر، وقال: لا يمكن ذلك أبدًا، وبرز للقتال، وصف عسكره للقتال، فعزم السيد محمد بن بركات على ملاقاتهم، فعندما أراد أن يركب، وإذا بأوائل عسكره تلاقوا مع عساكر صاحب جازان، ورمى بعض العسكر نارًا في بيوتهم، وغالبها عشش - الداخل من البلاد والخارج - فأرسل الله ريحًا قوية حملت الشرر إلى داخل البلد، فأحرقها، فلما رأى ذلك عسكر صاحب جازان هربوا من الباب الثاني، ثم هرب هو وعسكره. وخلت البلد منهم، فحينئذ دخلها عسكر الشريف محمد بن بركات ونهبوها جميعها»[4]. وعلى خلاف الديبع، وابن فهد، فإن العصامي، كعادته، أثنى على الشريف محمد بن

---

(١) ابن فهد، الدر الكمين، مخطوط، ورقة ١٩ب؛ الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص١٦٥.

(٢) بغية المستفيد، ص١٥٥.

(٣) اتحاف الورى، جـ٤، ص٦١٤.

(٤) ابن فهد، اتحاف الورى، جـ٤، ٦١٣-٦١٤.

بركات على غزوه مدينة جازان وإحراقها، وعدَّ ذلك كما يقول: «فتحًا مبينًا أوجب جلالة مولانا الشريف محمد، ورجحانه على من سلف من (حكام) هذا البيت المبارك، وخافته القبائل، وامتلأت من مهابته الصّدور»[١]. وعلى الرغم من فداحة هذه الهزيمة التي مُنِي بها الأمير أحمد بن دريب، واستسلام بلده للشريف محمد بن بركات، فإن الأخير قنع بهذا الانتصار، وعاد إلى بلده بعد شهر واحد من غزوه لجازان، دون أن يفكر في امتلاكها وضمها إلى إمارته، مما ينفي أن يكون من بين أسباب غزوه لجازان، رغبته في ضم هذه الإمارة إلى مكة المكرمة، ويعزز في الوقت نفسه الرأي القائل بالأسباب الرامية إلى تأديب الأمير أحمد بن دريب لإيوائه معارضي الشريف محمد بن بركات، ومنافسيه في المطالبة بإمارة مكة المكرمة، ومع ذلك، فقد فاز الأخير بتعهد من الأمير أحمد بن دريب يدفع بمقتضاه لشريف مكة مبلغًا من المال كل سنة[٢].

أما الأمير أحمد بن دريب، فيبدو أنه عاد إلى عاصمته فور جلاء الشريف محمد بن بركات عنها، بدليل أنه أوفد ابنه بعد هذه الحادثة مباشرة إلى زبيد، حيث قابل الشيخ يوسف بن عامر الطاهري، فأكرمه بما يليق به، ثم جهّزه إلى عمه السلطان المجاهد بعدن، فأكرمه أيضًا، وأعاده إلى بلده مكرمًا معززًا[٣]. ويعتقد العقيلي أن هذه الوفادة تحمل رسالة عتب للطاهريين لتخلِّيهم عن نصرة الأمير أحمد بن دريب خلال محنته القاسية التي تعرض لها على يد الشريف محمد بن بركات، ويعتقد أيضًا أن هذه الوفادة لم تحقّق أيّة نتائج، مما حمل والده إلى القيام بنفسه بزيارة لسلطان بني طاهر الملك المنصور (ت ٨٩٤ هـ/ ١٤٨٩ م) في زبيد، كما سيأتي[٤]. فإذا صحّ ما يعتقده العقيلي، فمن الطبيعي

---

(١) سمط النجوم العوالي، جـ٤، ص٢٧٧.

(٢) ابن فهد، اتحاف الورى، جـ٤، ص٦١٤؛ الدر الكمين، مخطوط، ورقة ١٩ب؛ ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية، ص١٥٧.

(٣) الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص١٦٥.

(٤) المخلاف السليماني، جـ١، ص٢٧٥.

ألا يستجيب زعيم بني طاهر لأيّ عمل يطلبه أمير جازان في ذلك الوقت، لما سبق أن أشرنا إليه، من احتمال تبني والده الأمير دريب بن خالد، وربما الأمير أحمد للمعارضة ضد بني طاهر. كما أن هذه الوفادة ربما لا تتعلق بقضايا معلّقة بين بني طاهر وأمير جازان؛ لأن ناحية حرض التي كانت مثار نزاع بين أمراء بني رسول، وأمراء المخلاف السليماني، يبدو أنها بقيت تحت سيطرة أمراء جازان منذ أن استردها الأمير دريب بن خالد في أواخر عهد الدولة الرسولية، وأنهم حافظوا عليها حتى بعد أن اهتز وضعهم السياسي نتيجة هزيمتهم على يد شريف مكة، بدليل ما يذكره الديبع الشيباني من أن الشيخ يوسف بن عامر الطاهري خرج من زبيد في شعبان سنة ٨٨٢ هـ/ ١٤٧٧ م، أي بعد غزو أمير مكة لجازان بأربعة أشهر فقط، إلى البلاد الشامية، ونزل بقرية القَرَار، ووفدت إليه قبائل العرب، وأجازهم بجوائز سنية «ثم قبض خراج البلد من الزيدية إلى قريب حرض»[1]. فكون الديبع، وهو مؤرخ يمني ومعاصر لهذه الفترة، يجعل حدّ خراجهم إلى قريب حرض، فإن ذلك يعني أن خراج حرض ليس من نصيب الطاهريين، وإنما من نصيب أمراء جازان، وبالتالي فإن هذه المدينة وناحيتها ليست تحت سيادة بني طاهر، وإنما تحت سيادة أصحابها الأصليين، أشراف منطقة جازان، أو المخلاف السليماني.

أما الزيارة التي قام بها أمير جازان الشريف أحمد بن دريب للملك المنصور بن عبدالوهاب بن داود بن طاهر في ذي القعدة سنة ٨٨٦ هـ/ ١٤٨٢ م، عندما كان بمدينة زبيد[2]؛ فلا شكّ أن لها علاقة بتحسين العلاقة بين بلديهما، وإزالة أسباب الجفوة المترتبة على ما شاب علاقات البلدين بسبب ما قدّمنا من التجاء بعض المعارضين لبني طاهر إلى جازان، يضاف إلى ذلك أن أبا الغوائر أحمد بن دريب ربما عزم من قبل هذه الزيارة، على عدم تكرار الأخطاء نفسها التي عرضت بلده لغزو أمير مكة، من حيث إيواؤه للمعارضين

(١) بغية المستفيد، ص١٥٦.ذ

(٢) الديبع، قرة العيون، ج٢، ص١٧٣.

لجيرانه. وأردف هذه العزيمة بالفعل ومن باب إبداء حسن النية تجاه جيرانه، عندما نزل عليه الشيخ يوسف بن عامر الذي خرج على طاعة ابن عمه الملك المنصور عبدالوهاب، وذهب إلى مكة المكرمة ثم إلى جازان في سنة ٨٨٣ هـ/ ١٤٧٨ م، حيث استقبله أميرها وأكرمه لما سبق منه من الإحسان على ولده عندما نزل عليه في زبيد في السنة التي قبلها[١]. ولكن يظهر أنه لم يسمح له بالبقاء في جازان، ولم يقدم له أي مساعدة ضدّ ابن عمه سلطان بني طاهر، فاضطر إلى الذهاب إلى بلاد بني حفيص والنزول ضيفًا على خصم السلطان الملك المنصور، أحمد بن أبي الغيث بن حفيظ الذي سمح له بالإقامة بينهم، وزوجه ابنته[٢]. وهكذا لم تحن هذه الزيارة إلا وقد سبقتها بوادر حسن النية من قبل أمير جازان، تجاه جيرانه من الجنوب، سلاطين بني طاهر. أما كون تلك الزيارة كانت تهدف إلى طلب العون من بني طاهر ضد أمير مكة طبقًا لبعض الآراء السالفة الذكر، فإننا نستبعد ذلك؛ لأن أشراف جازان لم يقوموا بأي عمل مضاد تجاه أمير مكة طوال عهد أبي الغوائر أحمد ومن جاء بعده من أمراء الأسرة القطبية؛ ولأن بني طاهر أنفسهم درجوا حتى ذلك الحين على سياسة العزلة والالتفات فقط إلى شؤون التجارة والأحوال الداخلية لليمن، وتحاشي التّورط في قضايا خارج حدود بلادهم[٣]؛ وإن كان ليس من المستبعد أن أمير جازان طلب من السلطان الملك المنصور عبدالوهاب، القيام بالوساطة لدى السلطان المملوكي قايتباي طالبًا منه التدخل لدى أمير مكة، الشريف محمد بن بركات، لكفّ يده عن التّعدّي على إمارة جازان، وهذا ما حدث بالفعل، حيث بعث ملك بني طاهر برسالة وديّة إلى السلطان قايتباي يشفع فيها للشريف أبي الغوائر أحمد بن دريب، ويطلب منه أن يمنع شريف مكة من العودة إلى التعرض لبلاده، وشفع تلك الرسالة بهدية قيّمة للسلطان

---

(١) الديبع، بغية المستفيد، ص١٦٣.

(٢) الديبع، قرة العيون، ج٢، ص١٧٠؛ بغية المستفيد، ص١٦٣.

(٣) انظر: محمد عبد العال أحمد، بنو رسول، ص٤٦٣.

قايتباي[1]. فاستجاب السلطان المملوكي لشفاعة سلطان بني طاهر، وبعث إلى الشريف محمد بن بركات برسالة يأمره فيها بعدم العودة إلى الإغارة على جازان، ويقول له فيها: «إن جازان بلدنا، وإنا تصدّقنا (بها) على الشريف أحمد بن دريب، فلا لك إليه اعتراض بعد هذا»[2].

ومهما يكن من أمر، فإن السّلطان الملك المنصور استعد استعدادًا كبيرًا لضيفه أبي الغوائر، حيث بعث في استحضار الآلات الموسيقية والتحف، وغير ذلك مما يلزم لإظهار أبهة ملكه أمام ضيفه ملك جازان، على حدّ ما تطلقه بعض المصادر على أمراء جازان[3]. ولما بلغه وصول الضيف في عسكر كثيف من الخيل والرجال إلى ظاهر مدينة زبيد في يوم الاثنين العاشر من ذي القعدة من السنة المذكورة، خرج السلطان المنصور لاستقباله في موكب ترفرف عليه الأعلام، وتحوطه الفرسان، وسائر الجيوش[4]. ويصف الديبع ذلك اللقاء، وما أعد لضيافة أبي الغوائر بقوله: «ولما واجهه نزل عن فرسه، وترجّل له، فكان هو السابق بذلك تواضعًا منه، وإكرامًا لضيفه، ثم نزل، واعتنقه، وحيَّاه، ثم ركبا معًا، وتماشيا ساعة، وتفرقا، فدخل الملك المنصور من باب سَهَام الذي خرج للقائه منه، وأرسل مع الشريف طائفة من جنده، وأمرائه إلى بستان حائط لبيق، وقال الشريف هنالك إلى العصر، ثم دخل من باب الشبارق دخولاً معظماً، ولعبت الخيل برحبة الدار الكبير الناصري، ودخل الشريف على الملك المنصور في الدار المذكور، فأكرمه، وعظمه، وأعلا منزلته، وطلب القضاة، والعلماء، والأمراء لحضور الضيافة، فحضروا جميعًا، وكان يومًا معظمًا، أظهر فيه الملك المنصور التواضع والبر لذرية رسول الله ﷺ. والقيام

---

(١) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول، ص٤٦٧.

(٢) بامخرمة، قلادة النحر، جا، ص١١٤١؛ وانظر أيضاً: محمد عبد العال أحمد، بنو رسول، ص٤٦٧.

(٣) انظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص٨٣؛ النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٢٨.

(٤) الديبع، قرة العيون، ج٢، ص٧٣؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ج٢، ص٢٧٥.

بواجب حقّهم، جزاه الله خيرًا، ثم أنزله بدار المعاصر، وأعطاه مالاً جزيلاً، وحبًّا جميلاً، ولم يزل عنده مجللاً محترمًا إلى أن طلع الملك المنصور إلى مدينة تعز يوم الاثنين السابع عشر من الشهر المذكور، وخرج الشريف المذكور لوداعه»[١].

وبعد خروج الملك المنصور إلى تعز، مكث الشريف أبو الغوائر أيامًا بقرية النُّوَيْدَزة، خارج مدينة زبيد، ثم توجه عائدًا إلى بلده في فجر يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر ذي القعدة من السنة نفسها[٢]. وهكذا نلاحظ أن هذه الزيارة ربما لم تتطرق إلى أي موضوعات تتعلق بالعلاقات بين الدولتين، خلاف ما ذكر من الاتصال بالسلطان قايتباي، وإن كانت، على أية حال، عملت على تحسُّنها لما أظهره الملك المنصور لضيفه أبي الغوائر أحمد من حسن الاستقبال، وكرم الضيافة، وجزيل العطاء، كما أنها فتحت الباب أمام أشراف جازان لإجراء اتصالات مباشرة مع سلاطين المماليك سنأتي إلى ذكرها في حينها. وكان لتلك الزيارة أيضًا والطريقة التي استقبل بها أمير جازان أبعد الأثر ليس في تحسّن العلاقات بين الزعيمين الطاهري، والقطبي فقط، بل وفي تطوّرها. ولعل من أهم بوادر هذا التطوّر أن الشيخ أحمد بن أبي الغيث بن حفيظ، عدوّ ملوك بني طاهر، وخصمهم اللدود، أُلْقِيَ القبض عليه بعد تلك الزيارة بحوالي سنة في شوال سنة ٧٨٧ هـ/ ١٤٨٢ م، بعد أن وجد متخفّيًا في الزيدية[٣].

وكان قبل ذلك قد فرّ إلى جازان، والتجأ إلى قرية أبي عريش، بالقرب من مدينة جازان العليا، عاصمة الأشراف آل قطب الدين[٤]. فهل يمكن الربط بين تلك الزيارة، وإلقاء القبض على ابن أبي الغيث الذي يأتي بعد أقل من سنة

---

(١) الديبع، بغية المستفيد، ص١٦٨.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) ابن الديبع، بغية المستفيد، ص١٧٠؛ قرة العيون، ج٢، ص١٧٤.

(٤) الديبع، بغية المستفيد، ص١٧٠.

فقط من زيارة أبي الغوائر لزبيد؟ قد يكون ذلك ممكنًا لاحتمال أن أمير جازان طلب من الشيخ أحمد بن أبي الغيث مغادرة أبي عريش، لأنه شخص غير مرغوب في بقائه فيها. فلم يكن أمامه إلاَّ العودة إلى بلده والبقاء فيها متخفيًا حتى تمّ القبض عليه، كما أسلفنا، ومن دلائل هذا التطور استمرار المهاداة والمكاتبات بين أمراء منطقة جازان، وملوك بني طاهر؛ من ذلك إرسال القاضي الصّدّيق بن علي الخيّاط، وزير أمير جازان، أبي الغوائر أحمد بن دريب، إلى السلطان الملك الظافر عامر الثاني (ت ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م) في جمادى الأولى سنة ٨٩٩ هـ/ ١٤٩٤ م، ومعه هديّة من الشريف أبي الغوائر إلى الملك الظافر، قوامها ست رؤوس من الخيول الجيدة[١]. ولكن الوزير مات في الطريق بين بيت الفقيه وزبيد، وقبل وصوله إلى الأخيرة لمقابلة الملك الظافر الثاني المقيم بها. فلما علم الظافر الثاني بموته أسف عليه كثيرًا، لأن الكتب التي كان يحررها على لسان الشريف أبي الغوائر إلى سلاطين بني طاهر، كانت كافية لتحسين العلاقات بين البلدين. وبعد ذلك، قبض الملك الهدية، وأثاب مرسلها الشريف أحمد أبا الغوائر عليها ثوابًا جميلاً[٢]. ثم تواصلت الهدايا والمراسلات بين سلاطين بني طاهر، وأمير المخلاف السليماني الذي ربما استمر أيضًا في دفع الإتاوة السّنوية التي التزم بها سابقًا لأمير مكة المكرمة. وبذلك حقق بحسن علاقاته مع سلاطين بني طاهر، والوفاء بالتزاماته مع أشراف مكة، وضمان حماية سلاطين المماليك له - الهدوء والاستقرار في إمارته حتى وفاته في سنة ٩١١ هـ/ ١٥٠٦ م[٣].

غير أن صاحب العقيق اليماني يورد تاريخًا مغايرًا لما يورده الديبع حول وفاة أبي الغوائر، إذ يرى أنها كانت في سنة ٩١٧ هـ/ ١٥١١ - ١٢ م، وأنه توفي مقتولاً على يد العَطَاوية، وقتل معه أخوه خالد بن الحَطِيْم[٤]. وتبنّى

(١) الديبع، بغية المستفيد، ص٢٠٥.
(٢) الديبع، بغية المستفيد، ص٢٠٥-٢٠٦.
(٣) الديبع، الفضل المزيد، ص١٩١-١٩٢؛ قرة العيون، ج٢، ص٢١٠.
(٤) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٤٩-١٥٠.

العقيلي هذه الرواية التي يظهر أنه ينقلها عن صاحب العقيق اليماني[١]. ويغلب على الظن أن الرواية الأولى هي أقرب إلى الصحة، لأن صاحبها الديبع الشيباني معاصر للشريف أبي الغوائر، وروايته دقيقة من حيث إيراد الليلة التي توفي فيها، وشهر الوفاة وسنتها[٢]. يضاف إلى ذلك أن صاحب العقيق يغفل العزيز بن أحمد بن دريب الذي تولى الإمارة بعد والده، ويستبعده من قائمة أمراء منطقة جازان[٣]؛ على حين يذكر الديبع أن العزيز خلف والده، في منصب الإمارة، ويقول: «وفي يوم الأحد، ثاني عشر من الشهر المذكور (جمادى الآخرة سنة ٩١٢) قدم الشريف المهدي بن أحمد بن دريب، أخو صاحب جازان، الشريف العزيز بن أحمد بن دريب إلى مدينة زبيد من عند أخيه، متوجهًا إلى مولانا السلطان بهدية من أخيه، من جملتها أسد صغير، وتسعة رؤوس من الخيل النفيسة، فأقام بمدينة زبيد خمسة أيام، ثم توجه إلى السلطان عشية السبت الثامن والعشرين من الشهر المذكور»[٤]. وكما إن وجود يوسف العزيز وتقلده لمنصب الإمارة ثابت عند المؤرخ عبدالرحمن بن علي الديبع الشيباني، وهو معاصر له، وربما يعرفه حق المعرفة، ولعله التقى به في زيارته، المشار إليها آنفًا، إلى مدينة زبيد، موطن المؤرخ المذكور[٥]،

---

(١) المخلاف السليماني، ج٢، ص٢٧٥. يذكر العقيلي أنه توفي قبل سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩-١٥٠٠م، وفي ذلك مناقضة واضحة لروايته المشار إليها. انظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص٥١ (من مقدمة الشارح).

(٢) يذكر الديبع أن الشريف أحمد أبا الغوائر توفي في ليلة السبت العاشر من شهر شوال سنة ٩١١هـ. أنظر: الفضل المزيد، ص١٩١؛ وانظر أيضاً: بامخرمة، قلادة لانحر، مخطوط، ج٢، ص١١٩٢.

(٣) انظر: النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٢٨، ١٨١، ٨٢.

(٤) الديبع، الفضل المزيد، ص١٩٨؛ وانظر أيضاً للمؤلف نفسه؛ قرة العيون، ج٢، ص٢١٠-٢١١.

(٥) المؤرخ عبد الرحمن بن علي الديبع الشيباني من أهالي مدينة زبيد، ولد بها في أول سنة ٨٦٦هـ/١٤٦١م، وتوفي فيها سنة ٩٤٤هـ/١٥٣٧م، انظر: العيدروسي، النور السافر، ص٢١٢-٢٢١.

فإن وجوده ثابت كذلك في شعر الجراح بن شاجر الذروي، وهو شاعر معاصر أيضًا ليوسف العزيز، وممن أوقف شعره الذي وصل إلى أيدينا، على مدح أخيه المهدي محمد بن أحمد بن دريب الذي تولى الحكم بعد وفاة الأول في سنة ٩١٢ هـ/ ١٥٠٧ م[١]. ويبدو أن له أفضالاً على الشاعر المذكور حتى أنه يقول مخاطبًا أخاه المهدي من قصيدة مدح الأخير بها[٢]:

وَقُمْ بحَالِيْ كما قامَ العزيزُ بِهَا   فإنَّني لك يا مَهْديُّ مُنتظِرُ

غير أن العزيز الذي أراد أن يسير على نهج أبيه في إقامة علاقات متميزة مع من بني طاهر، يسودها الوئام، وتقوم على الاحترام وحسن الجوار - لم يعمر طويلاً في حكم جازان، إذ توفي، فيما قيل، شهيدًا بالسُّم بعد حوالي سنة من توليه الحكم، في يوم السبت التاسع والعشرين من شهر شوال سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٧ م، وتولى إمارة جازان بعده أخوه المهدي بن أحمد بن دريب بعهد من العزيز نفسه[٣].

---

(١) الديبع، الفضل المزيد، ص٢٠٤.

(٢) انظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص٩، ٨١. ويورد هذا الشاعر الأمير يوسف العزيز في مواقع أخرى من ديوانه، من ذلك قوله:

رحـمَ اللهُ أحـمـدَ بـن دَريـبِ   وسقى صيبُ الغمامِ ضريحَه
الـذي يـوم دفـنـهِ دُفِـنَ الـجـودُ   وحلَّتْ بالمجدِ والفضلِ صيحَة
وحـذا حـذوه الـعـزيـزُ ولـكـن   عـوقـتـه الـمـقـادرُ الـمـستـبـيـحَـة
ثـم قـال الـمـهـديُّ أيـده الله   فـأحـيـا الـنـدا وكـان مـسـيـحَـة

وقوله أيضاً:

وأن مـولانـا الـعـزيـزَ يـوسـفَـا   فـارق وهـو الـعـلـمُ الـفـريـدُ
وعـم أهـلَ الـخـافـقـيـن رَزْؤه   وكـادت الأرضُ بـنـا تـمـيـدُ

انظر: الديوان، ص٨٧، ١٠٠.

(٣) الديبع، الفضل المزيد، ص٢٠٤. يذكر العقيلي في شرحه لديوان الجراح بن شاجر، ص٥١ أن العزيز توفي في سنة ٩٠٥هـ/١٤٩٩-١٥٠٠م، أو سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠-١٥٠١م، وهذا يناقض ما يذكره أعلاه عن تاريخ وفاة والده في سنة ٩١٧هـ/١٥١١-١٢م حيث أعادنا إلى الوراء حوالي أحد عشر سنة.

محمد المهدي، والتعاون مع المماليك

يُعَدُّ الشريف محمد بن أحمد بن دريب، الملقب بالمهدي، من أشهر أمراء منطقة جازان لارتباط اسمه بديوان الشاعر الجراح بن شَاجِر الذي وضع معظمه في مدح هذا الأمير[1]، ولاتصالاته بالمماليك، ودوره في حملة القائد المملوكي الأمير حسين الكردي (ت ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م) على اليمن التي قضت على دولة بني طاهر في ربيع الآخر سنة ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م، كما سيأتي بعد. وهو واسطة العقد في أمراء الأسرة القطبية، وممن أشاد بجوده وكرمه غير واحد من الذين تناولوا سيرته شعرًا ونثرًا؛ فالشاعر الجراح بن شاجر يقول عنه في مقدمة ديوانه المذكور: «إن الذي مُدِحَ به من هزّت به الممالك الجازانية أعطافها، وأرضعته أخلافها، وطبقت مكارمه البقاع، ونطقت بمحامده الأفواه، وامتلأت بشعره الأسماع، وانعقدت على سيادته الإجماع، جمال الدين المهدي بن أحمد بن دريب»[2].

ويقول فيه شعرًا:[3]

أيَّـامُـنَـا بـكَ يـا عـزَّ الـهُـدَى غُـرَرُ وعـيـشُـنَـا بـكَ صَـفْـوٌ مـالـه كَـدَرُ

وصَـدْعُـنَـا بك يا مـهـديُّ مُنشعِبٌ وكـسـرُنـا بـك يـا مـهـديُّ مُـنْـجـبِـرُ

---

(١) انظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص٧٩ والصفحات التي بعدها.

(٢) لم أجد مقدمة للديوان من وضع الشاعر نفسه، وما ذكر نقلاً عن العقيلي من كتابه المخلاف السليماني، جـ١، ص٢٧٦؛ وانظر أيضاً: النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص٣٦.

(٣) الجراح بن شاجر، الديوان، ص٨٠.

وحـالُـنـا بـك يـا مـهـدي حـالـيـة وحالُ أعدائِنا يا ابنَ الصَّفِي صَبِرُ

* * *

حياضُ جودِك للعافيـنَ مُتْرعَةٌ وبحرُ فضلِك عذبٌ سَلْسَلٌ خَضِرُ
تقري الضَّيوفَ كما تُعطِي الألوفَ وما تزالُ تُتْلفُ ما تحوي وتعتذِرُ

* * *

لا عيبَ فيك سوى تفريقُ ما ملكتْ يمناك للوفد إن قلُّوا وإن كَثُرُوا
وافخرْ فإنك بدرٌ مالهُ فلكٌ إلاَّ العِتَاقُ المذاكِي السُّبَّقُ الضُّمُرُ

ويقول[1]:

إلى الملك المهديِّ راحتْ وبكَّرتْ قِلاصُ الدُّجَى تَهْوي إلى الملكِ المهدِي
إلى الخضْرمِ الطامِي عُبابًا إلى الحيا إلى الروضةِ الغنَّا إلى المنهلِ الشَّهْدِ
إلى الواهبِ المالَ الجزيلَ سماحةً إلى من يعيدُ المكرماتِ كما يُبْدِي
فتى تشخصُ الأبصارُ يومَ ركوبِهِ إلى بدرِ تمّ حلّ في طالع السَّعْد
وتبرزُ رَبَّاتُ الخدورِ لتجتلِي أسرةَ وجهٍ طالعِ النورِ من بُعْدِ
أقلُّ عطاياهُ النُّضارُ مواهِبًا وقَوْدُ العَناجِيْجِ المطهَّمَةِ الجُرْدِ

وقيل فيه على لسان الملك عامر بن عبد الوهاب الظافر الثاني، سلطان اليمن الطاهري:[2]

أقسمتُ بالسحرِ من حسنِ البيانِ وما في الشعر من حكمةٍ من حكم لُقْمَانا
لا بِعْتُ جِدِّي في هزلِ النَّسِيْبِ ولا صرفتُ نظمِيَ في التَّشْبِيبِ مَجَّانَا
بل في قوافٍ توافي في تجاوُزِهَا بيدَ الفيافِي عميدَ المصر جَازَانَا
خرقٌ مكارمُهُ في الخلقِ ظاهرةٌ كالشَّمسِ في الأفق لا تحتاجُ بُرْهَانا

---

(١) الجراح بن شاجر، الديوان، ص٨٣.

(٢) الجراح بن شاجر، الديوان، ص١٠٧؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص١٤٧-١٥٠.

المفردُ العلمُ المهديُّ من شَهِدتْ لـه الأنـامُ بـصـدقِ الـعـزم إعْـلانَـا
حَازَ الـمَعالِي بحَزْمٍ مثل صارمِهِ وهـمَّـةٍ علَـتِ الـشَّـعْـرى وكـيْـوانـا
لأنتَ قطبُ بني القطبِ الأولى رَجَحتْ وزنًا وعزًّا فبزُّوا الخصْمَ سُلْطَانَا

وعلى لسان الشريف بركات بن محمد أمير مكة المكرمة:(1)

يـا راحـلاً عـلـى قَـلُـوصٍ ضـامـرٍ تطوى الفَلا بالهَجْلِ بعد الهجْلِ
إن جـئـتَ جـازانَ ووادي حـرضٍ عَـرِّجْ عـلـى مـالِـكِـهَـا الأجَـلِّ
أميرِهـا الـمـهـديِّ من نجل أحمد خـيـرِ إمـامٍ وأجَـلِّ نـجْـلِ
ضَيْغَم حربٍ في المجالِ إنْ يَجُلْ وإن يَـقُـلْ قـال بـقـول فَـصْـلِ
نائي المدَى مُرْدِي العِدا بحرِ النَّدَى عـمَّ الـبـرايـا بـالـنَّـوالِ الـجـزْلِ

ومدحه من شعراء اليمن غير واحد، منهم الشاعر محمد الهبي الصعدي الذي كان يأتيه من صعدة مادحًا، وله فيه القصائد الطنانة، أشهرها مخمسته التي شاع تداولها بين مؤرخي المخلاف السليماني(2).

---

(1) الجراح بن شاجر، الديوان، ص١١١-١٢؛ النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص١٥٥-١٥٩.

(2) ومما جاء في تلك المخمسة ما يلي:

لـم أنـسَ أيـامَ أبـي عَـرِيْـشِ حيث رياشِي قد نَمَا وريشِيْ
حيث انتهت خَلاعَتِيْ وطيْشِيْ ما لَذَّ لي نومِيْ وطاب ريشِيْ
إلا بـإنـعـامِ الإمـامِ الـمـهـدي
القُـطْـبِيّ الـخَـالـدِيّ الـغَـانـمِـيّ الـحـيـدَرِيّ الأزهَـرِيّ الـفَـاطِـمِيّ
القُـرشِـيّ الـحَـسـنِيّ الـهـاشـمـيّ حديثِ كلِّ النَّاس في المواسِمِ
ونـقـطـةِ الـبـيـكـارِ مـن مَـعَـد
غـضـنـفـر الـهـيـجـاءِ طعَّان الـثـغـر فارس عدنان إذا النقعُ انْتَشَر
الـقـمـر الـتـمّ لـنـا وابـن الـقَـمَـرْ الواهب الخيل الصَّحيحَاتِ الغُرَرَ
الـمـقـربـاتِ الـصـافـنـاتِ الـجُـرْدْ
سـنـانُـهُ يـهـوى الـنُّـحـورَ والـكُـلا وسيـفـهُ يـهـوى الـرؤوسَ والـطـلا =

وعلى الرغم من ذلك المديح والإطناب من قبل الشعراء في الشريف المهدي، فإن المؤرخين يحجمون عن تقديم ترجمة وافية لحياته، ولإنجازاته على المستوى المحلي والخارجي، أو حتى إفراده بباب أو جزئيّة يتحدثون فيها عنه أو عن أسرته في سياق تاريخي منظم. وكلّ ما هو متاح عنه، فيما بين أيدينا من التاريخ المحلي، لا يتجاوز إيراد اسمه ضمن أمراء منطقة جازان من أفراد أسرته على سبيل العدّ فقط، دون ذكر مدد حكم هؤلاء الأمراء، أو تواريخ وفياتهم، أو الأحداث التي خاضوها أو لعبوا دورًا فيها، وإن كان بعضهم يتوقف قليلاً للإشادة بكرم الأمير المهديّ في سطر أو سطرين؛ نذكر من ذلك صاحب العقيق اليماني الذي توقف بعد ذكر اسم والده مجردًا، ليقول: «ثم بعدهم الأمير المهدي أحمد، وهو الغرة فيهم الذي يضرب بجوده المثل»[1].

ويقول: في مكان آخر: «ثم ابنه المهدي بن أحمد، وكان مشهورًا بالكرم الذي فاق به أهل زمانه، وكان أديبًا فصيحًا أيضًا، مدحه أكثر الشعراء»[2]. ويقول صاحب الذهب المسبوك: «ثم يوسف العزيز ثم أخوه المهدي بن أحمد، وهو ممدوح الجراح بن شاجر الذروي، وكان ذا شجاعة وعلم وكرم»[3]. وعلى هذا النحو يمر ذكره عند غيرهما من المؤرخين

= مـن آل قـطـبِ أربـابِ الـعُـلا   دعْ غـيـرَهـم فـإنـهـم أهـلُ الـمـلا
أهـلُ الـمـعـالـي ورجـال الـمَـجْـد
لا زال خـفّـاقـاً عـلـيـك الـعـلـمُ   سيفُك ماضٍ في الوَرى والقَلَمُ
فـأنـت فـي الـنـاس جـمـيـعـاً حَـكَـمُ   يـا حـامـي الـمـجـدِ ويـا غَـشـمْـشَـمُ
لـؤلـؤةٌ فـوق جـبـاهِ الأسـدِ

انظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص٧٧؛ النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٨١؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جا، ص٢٨٩-٢٩٠.

(١) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٤٨.
(٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٨١.
(٣) عاكش، الذهب المسبوك، مخطوط، ص١١؛ وانظر أيضاً: الجراح بن شاجر، الديوان، ص١١، هامش ٢.

المحليين[1]. وهذا بطبيعة الحال يشكل صعوبة على الباحثين في تاريخ هذه المنطقة بصورة عامّة سواء في عهد المهديّ، أو أي من عهود أمرائها السابقين منهم واللاحقين. وتبقى معظم المعلومات عن المهدي مستقاة من القصائد التي قيلت فيه، وهي غير دقيقة لإغفال عنصر الزمان، أو من تلك التي كانت لمكة، واليمن، ومصر علاقة بها، ناهيك عن كونها قليلة، وتغفل الجانب المحلي من حياة زعيم الأسرة القطبية.

وعلى أية حال، فإن المهدي جاء إلى السلطة بعد حكم أخيه يوسف العزيز الذي لم يدم - كما أسلفنا - إلا حوالي سنة واحدة. ولا نعرف كيف كان وضع المنطقة في أول عهده، وهل بقيت موحّدة كما كان عليه الحال في عهد جده دُرَيْب، ووالده أبي الغوائر أحمد بن دريب؟ أم أن بعض أجزائها انفصل عنها، وبصورة خاصة ناحية حرض التي كانت دائمًا مثار نزاع بين سلاطين اليمن من جهة، وأمراء منطقة جازان من جهة أخرى؟ ويفهم من بعض القصائد التي قيلت في المهدي، أن المنطقة بكاملها كانت تقع تحت سيطرته في بداية حكمه، فالشاعر يذكر إلى جانب حرض، حَيْران، ورَحْبَان، والرَّدْحَة، وكلها مواقع بناحية حرض[2].

غير أن الأمور ربما تبدّلت بعد ذلك، ويبدو أنه قام عصيان مدني بمنطقة حرض قاده بنو سبأ، شيوخ المنطقة، الذين خرجوا على طاعة الأمير المهدي؛ فشنّ الأخير عليهم حروبًا كثيرة أدت في النهاية إلى سيطرة الأمير المهدي عليها، وأجبرت أهلها على دفع ما كانوا يدفعونه من إتاوات في عهد أبيه وجده، وطرد الرؤوس التي كانت تحرك الفتنة فيها، ومنهم شيوخ بني سبأ أنفسهم. ويغلب على الظن أن هذه الفتنة كانت محلية فقط، ولا دخل لبني طاهر فيها، بل على العكس، فإن الأمير القطبي تلقى من الملك الظافر الثاني،

---

(١) انظر على سبيل المثال: النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص٣١-٣٢؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جا، ص٢٧٦-٢٨١.

(٢) الجراح بن شاجر، الديوان، ص٣٧، ٨٤، ٨٥، ٨٦.

عامر بن عبدالوهاب، تطمينات بوقوفه على الحياد، وأنه لم ولن يستمع إلى أي وشاية من خصومه ضدّه، وأنه يؤيّده في الإجراءات التي اتخذها ضد قبائل العرب في ناحية حرض، وغير ذلك مما سنأتي إلى ذكره بعد. وإذا كانت هناك أيد خارجية تحركها، فإنها ربما كانت غير أيدي بني طاهر، أو أشراف مكة، أو حتى الزيديين الذين يجاورون حرض من الشرق، والجنوب الشرقي[1].

ومهما يكن الأمر، فإن هذا العصيان والمواقف المتصلة به يسجلها الشاعر الجراح بن شاجر تسجيلاً دقيقاً في قصائد كثيرة من ديوانه؛ ويسجل كذلك الأماكن التي اندلع فيها، ونجاح المهدي في القضاء عليه، واستعادة سيطرته التامّة على المنطقة بأسرها. ومما جاء في هذه القصائد:[2]

وتَوهَّمَ الخُبَثَا وتلك جهالةٌ ... منهم بأنَّ جموعَهُم تَلْقَاهُ

فهناكَ تمَّ بهم وأمضى فيهمُ ... عزْمًا يطيحُ بلملمٍ وصفاهُ

وغزاهُمُ بجحافلٍ وصواهلٍ ... ومناصلٍ سفكتْ دماءَ عِدَاهُ

* * *

لما التقى الجمْعَانِ في حومِ الوغا ... قلَّ الكلامُ وكلّتْ الأفواهُ

وتبادرُوا هربًا وفرَّعن ابنِهِ ... ذو الغدرِ وهو يصيحُ يا أبتَاهُ

وجَرَتْ كما جرتِ السيولُ دماؤُهُم ... فوقَ البقاعِ كأنَّهَا الأمْواهُ

* * *

ولقد غَدَتْ أموالُهُم ونفوسُهُم ... نهبًا برغمِ أنوفِهِم ورِضَاهُ

وتشتَّتُوا من بعدِ ذاك وأحْرِقتْ ... حَيْرانُهُم وبِداحُهم وقُرَاهُ[3]

---

(١) يظن لبعض فئات المماليك الذين بدأت طلائعهم تصل إلى المنطقة، دوراً في أحداث حرض، أو على الأقل ساعدوا على استفحالها، كما سيأتي.

(٢) الجراح بن شاجر، الديوان، ص٩٠.

(٣) حيرانهم وبداحهم: حَيْران والبِدَاح، الأول وادٍ، والثاني موقع بناحية حرض، انظر: إبراهيم المقحفي، معجم البلدان اليمنية، ص٢١١؛ العقيلي، المعجم الجغرافي، ص٥٧.

ثم انثنَى من بعدِ ما نالَ المنى　　منهم إلى حرضٍ وحلَّ رُبَاهُ
وبنَى بِرحْبَان الخصيبِ خيامَهُ　　فعلى الثُّريَّا والسِّمَاكِ بنَاهُ
وأتى البشيرُ إليه من حرضٍ بمن　　صافاهُ وهو سليلُه وحكاهُ

وله أيضًا في هزيمة الخبثاء، وإجلائهم عن ديارهم قوله:(١)

وأجلوا عن منازلهم جهارًا　　غداةَ السَّبْتِ يا لك من صَبَاحِ
وَفَى بمقالِهِ قَمَرُ المعالِي　　وسارَ على الوعيدِ إلى البِدَاحِ
وأخربَ دارَ شيخِ السُّوء عمدًا　　فراحَ مشرَّدًا أردَى مَرَاحِ
ونَالَ مرادَهُ فيهمْ ونادَى　　منادِي النَّصْرِ حيَّ على الفَلاَحِ
ولم تَقْبلَ - فَدتْك نُفُوسُنَا - في　　بني سبأٍ وأحمدَ أيَّ لاحِ
وألقيتَ الدَّعايِثَ في عذابٍ　　مهينٍ بعد ذاك الاسْتِرَاحِ
وَشرَّدْتَ الخبِيْثَ الطَّبْعَ حتى　　غدا من سَكْرِ ذاك الكبرِ صَاحِي
يَعُضُّ بنانَهُ ندمًا وغَبْنًا　　ويَعْرُكُ حَسْرةً راحًا براحِ
وأخربتَ البِدَاحَ وكان كلٌّ　　يرى ألا سبيلَ إلى البدَاحِ
وحَيْرانَ الخصيبَ ضربتَ فيهِ　　خيامَك والعساكرَ في انْشِرَاحِ
وفي الذَّرْمَاءِ قد نزلُوا فضاقتْ　　بهم من بعدِ أوديةٍ فسَاحِ(٢)
أميرَ الناسِ فلتهنَأْ بنصْرٍ　　إلى الأمصارِ راحَ مع الرِّيَاحِ

ويقول فيهم أيضًا:(٣)

ولما التقى الجمعانِ منَّا ومنهمُ　　وحان لبيضِ الهنْدِ في القممِ الوَرْدُ
تداعَوا كما طارَ الجرادُ وأدبرُوا　　وقالوا ألا غَوْرٌ يقينَا ولا نجدُ
وفرَّ وخلاًّ قومَه ضدَّ إسمِهِ　　كما فرَّ من ليثٍ غضنفرةٍ قِرْدُ

---

(١) الجراح بن شاجر، الديوان، ص٩١.
(٢) الذرماء، يفهم من السياق أن موقعها بناحية حرض.
(٣) الجراح بن شاجر، الديوان، ص٩٢.

وأقبلَ يَنْعَى في البداحِ قتيلَهُ ووجهُ عدوِّ اللهِ كالقارِ مُسْوَدُّ

* * *

وحاقتْ بحَيْرانَ الخبيثِ وأهلِهِ خيانتُهُم إذ لم يتمَّ لهُم عَهْدُ
وفي الصُّبْحِ إحراقُ البداحِ وخوْرِهِ ويكفيهما من جندِ عزِّ الهُدَى عَدُّ(1)
لقد جالدَ الخبثاءَ حتى أبادَهُم وكانوا عن الدينِ الحنيفِ قد ارتدُّوا

وأخيرًا قوله:(2)

وبكرتَ من رحبانَ تزجي كتائِبًا إلى العُصَبِ الباغينَ إثرَ كتائبِ
ولما التقى الجمعانِ مِنَّا ومنهُم وقالَ كثيرٌ لا نجاةَ لهاربِ
وسُلَّ لضربٍ كلُّ أبيضَ قاطعٍ وهُزَّ لطعنٍ كلُّ أسمرَ راغبِ
تَوَلَّوا كما طارَ الجرادُ فأدبرُوا أمامَك أمثال النعام الهَوارِبِ
وراحُوا وعيسى شيخُهُم ورئيسُهُم ينادي بأعلى الصَّوْتِ أين أقارِبي
غدا رأسُهُ المقطوعُ للخلقِ لعبةً وجثتُهُ للحائماتِ النَّواعِبِ
وأخليتَ أرضَ الجابليَّةِ منهُمُ وحلَّت بهم منهم دَواهِي المصَائب

* * *

وأعطيتَ حيرانَ الأمانَ وأهلَهُ وقد بذلُوا أموالَهُم بذلَ راغِبِ
فيا ويلَ من أمْسى الأميرُ مُغَاضِبًا عليه، ويا سَعْدَ المُطِيْعِ المُصَاحِبِ
هو الغيثُ إلا أنَّهُ غير مقلعٍ إذا أقلعت يومًا غِزارُ السَّحائِبِ

نستنتج من هذه الأبيات المجتزأة من قصائد طويلة قيلت في الأمير المهدي، بمناسبة انتصاراته في حروبه على القبائل المناوئة له في منطقة

(1) الخور: يفهم من السياق أنه بناحية حرض، ويفهم من المعنى أنه قريب من البحر، أي ربما يكون بساحل حرض. وانظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص٩٢، هامش ٢.

(2) الجراح بن شاجر، الديوان، ص٩٥-٩٦.

حرض، وما جاورها - أن الأمير المهدي خاض معركة أو أكثر ضدّ خصومه من تلك القبائل الذين حفظت لنا هذه القصائد أسماء بعضهم مثل الخُبَثَاء، وبني سبأ، والدَّعَايث، وحتى أسماء بعض من قتل في تلك المعارك مثل الشيخ عيسى. كما حفظت أسماء المواقع التي دارت فوقها تلك المعارك مثل حَرَض، وحَيْران، والبِدَاح، ورَحْبَان، والخَوْر، والذَّرْمَاء، والجَابِلِيَّة. ومعظم تلك القبائل والمواقع معروفة بأسمائها حتى اليوم في اليمن الحديث(١).

كما يفهم من بعض القصائد الواردة في الديوان أن أحد مشايخ تلك القبائل هرب إلى اليمن، وأن الأمير المهدي كان يخشى من عودته إلى حرض، وإثارة مشاكل جديدة للسلطة، مما اضطر الأخير إلى الإقامة زمنًا برحبان يترصّد عودته، ومن معه، مما جعل شاعره يحثه على العودة إلى عاصمته، ومقر ملكه في مدينة جازان العليا المعروفة بالدَّرْب، ويهون عليه أمر ذلك الشيخ الفار بقوله:(٢)

أتَدْرِي بما لاقتْهُ تلك الملاعِبُ ... وما كابدَتْ أبطالُها والخَراعِبُ
وما نالَ جازانَ الخصيبَ وأهلَهُ ... لفقدِك يا منْ في الإقامةِ راغِب

* * *

لقلتَ ألا شدُّوا الركابَ بسرعةٍ ... فقد قُضِيَتْ مما أردنا المطالِبُ
وربعكَ في أصْلِ الجمَالِ وفرعهِ ... يقول، متى تحدو إليَّ الركائِبُ
وللسَّاحلِ المحروسِ والجيرةِ الأولى ... به لوعةٌ والطَّودُ والحصنُ ذائِبُ

* * *

فعطفًا فإنَّ الدَّرْبَ أصبحَ مُغْضَبًا ... وكادَ لِرحْبَانَ عليهِ يُحَارِبُ
أتَهْجُرُ كرسيَّ الإمارةِ والذي بهِ ... آلُكَ الغرُّ الكِرامُ الأطايِبُ

---

(١) يعرف العقيلي بالمواقع والقبائل المذكورة في حواشي ديوان الجراح بن شاجر، انظر: ص٨٤-٨٦، ٨٨، ٩٠-٩٥.

(٢) الجراح بن شاجر، الديوان، ص٨٨-٨٩.

وقد نِلتَ ما أمَّلتَهُ يا ابنَ أحمدٍ   وحلَّتْ بأهلِ البغْيِ منكَ المصَائِبُ

* * *

وأنتَ بحمدِ اللهِ أذكَى بصيرَةً   ورأيك في تدبيرِ أمرِك صائِبُ

فقد ذابتِ الأعرابُ خوفًا ورهبةً   ولم يبقَ إلا كلبُ سوءٍ مُجَانبُ

ومرجعُهُ حتمًا إليك لو أنَّهُ   أجارتْهُ في الأفقِ النُّجُومُ الثَّواقِبُ

وعلى الرغم من هذا التفصيل الواضح في وصف المعارك، وذكر المشاركين فيها بمن فيهم أولئك الذين كانوا إلى جانب الأمير المهدي والذين كانت تتكون منهم معظم عساكره وجيوشه[1]. وكذلك ذكر المواقع التي دارت عليها، وما أحرق منها وما لم يحرق، والدور التي هدمت، وحتى أسماء بعض الأيام التي دارت فيها تلك المعارك - فإن هذه الأحداث تخلو من التأريخ الذي هو مادتنا في الكتابة، وهو روح البحث في علم التاريخ، وبدونه لا نعرف في أي وقت وقعت تلك الأحداث، غير كونها في أيام الأمير المهدي من سنة ٩١٢ - ٩٢٥هـ/ ١٥٠٧ - ١٥١٩م. ولكن فترة المهدي وعلاقاته الخارجية مرت بأطوار تحتم علينا معرفة الطّور الذي حدثت فيه تلك المعارك، وهل كان لعلاقاته بجيرانه دور في نجاحه ضد خصومه؟.

ويصعب على المرء إيجاد تاريخ محدد ودقيق لتلك المعارك، وإن كنا ألمحنا سابقًا إلى أن حرضًا وناحيتها كانت تحت سلطة المهدي في بداية توليه الحكم سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٧م، وربما استمرّت كذلك سنة، أو أكثر قبل انتفاضة قبائلها عليه. كما ألمحنا أن أحد شيوخها فرَّ من المعارك، والتجأ إلى اليمن، ربما طلبًا للنجدة والعون، ثم معاودة إثارة الفتنة مرة أخرى. ومن المحتمل أن هذا الشيخ هو منَّاع بن سبأ الذي ينعته الديبع بصاحب حرض، ويذكر أنه قدم إلى زبيد في الثاني عشر من رمضان ٩١٥هـ/ ١٥١٠م، عائدًا من الأبواب

(١) من هذه القبائل، آل هضام، وكعب، وآل ذروة، وبنو معافا، والحوازم، والبكارية، وبنو شبيل، وغيرهم. انظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص٩٣-٩٥.

السلطانية، ثم توفي يوم قدومه غريبًا شهيدا[١]. ولعله هو الذي عناه الشاعر بقوله:

فقد ذابت الأعرابُ خوفًا ورَهْبَةً ... ولم يبقَ إلا كلبُ سوءٍ مُجَانِبُ
ومرجِعُهُ حتمًا إليك لو أنَّهُ ... أجارَتْهُ في الأفقِ النُّجُومُ الثَّواقِبُ

فربما ذهب مناع بن سبأ إلى الأبواب السلطانية لاستعدائها على الأمير المهدي، أو لطلب مدِّ يد العون والمساعدة له ضد أمير جازان، ولما لم تجد مساعيه تلك فتيلا، ولم يجد وجهًا عند السلطان، عاد إلى زبيد حيث وافته منيته بها[٢]. فإذا صحّ هذا الافتراض، فإن تلك المعارك حدثت قبل سنة ٩١٥هـ/ ١٥١٠م؛ فماذا عن بدايتها؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال يحسن بنا أن نتدبر هذا البيت من الشعر، من قصيدة قيلت على لسان الأمير المهدي إلى السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري:[٣]

---

(١) الفضل المزيد، ص٢٢٦. من المحتمل أن هذه الوفادة التي قام بها صاحب حرض هي الأخيرة، لأن السلطان الطاهري يبدو أنه سعى بالوساطة بين بني سبأ والأمير المهدي، وأن هذه الوساطة توصلت إلى حل يتولى بمقتضاه الأمير عز الدين، أخو المهدي، حكم حرض، وأن يكون الشيخ مناع مساعداً له. ولكن الأمير المهدي ربما لم يقبل بهذا الحل. انظر: الديبع، الفضل المزيد، ص٢٢٦.

(٢) يبدو مما جاء في ديوان الشاعر الجراح بن شاجر، أن الأمير المهدي ربما كان يتوجس خيفة من أن هناك من يسعى في الكيد له عند السلطان الملك عبد الوهاب بن عامر، ومن المحتمل أن أحدهم كان مناع بن سبأ المذكور، وأن أمير جازان كان يخشى أن تجد تلك السعاية أذناً صاغية من السلطان عامر، يتضح ذلك من القصيدة التي كتبها للأخير، ومنها:

فكُنْ على الحالِ يا مَنْ لا نظيرَ لهُ ... ولا تطعْ كلَّ واشٍ ثم إمعانَا

فنفى السلطان أن يكون ممن يصدق نميمة، أو وشاية بأمير جازان، وطيب خاطره، وطمأنه بالبيت التالي:

فما استمعْنَا لمن قد نمَّ أو مَانَا ... أو التفَتْنَا لمن قد قالَ بهتَانَا

انظر: ص١٠٥، ١٠٨.

(٣) انظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص١٠٤.

ولـم أدَعْ أهـلَ حَـيْـرانٍ بـلا تَـعَـبٍ		إذْ أدْخَلُـوا الـقُـوَّةَ الـحَـمْـراءَ حَـيْـرَانَـا

ويغلب على الظن أن القوة الحمراء هم فئات المماليك الذين وصلت أولى طلائعهم إلى المنطقة في أوائل سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م، واتخذوا من جزيرة كَمَران، المقابلة لبعض تلك الجهات الشامية، مقرًّا مؤقتًا لهم[١].

وليس من المؤكد أن أهل حرض استعانوا بفئات المماليك تلك في ثورتهم ضد أمير منطقة جازان، أو أن الأخيرين أعانوهم بصفة رسميّة ومعلنة؛ وإن كان لا يستبعد أن بعض عناصرهم عملوا مع الثوار على سبيل الاسترزاق. فإذا صحّ هذا الافتراض مع الافتراض السابق، فإن تلك الأحداث ربما وقعت بين سنة ٩١٣ هـ/ ١٥٠٧ م، وهو تاريخ أول قدوم لفئات المماليك إلى المنطقة في تلك الفترة، ومن سنة ٩١٥هـ/ ١٥١٠م، وهو تاريخ لجوء الشيخ منّاع بن سبأ، حاكم حرض المحلي، إلى اليمن، ووفاته بزبيد، كما أسلفنا.

أما في مجال العلاقات الخارجية، فإن أمير منطقة جازان، استمر في اتصالاته، ومراسلاته مع جيرانه في اليمن ومكة المكرمة؛ ففي آخر سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٩م، وصل رسول من قِبَلِهِ هو أحمد بن الصّدّيق الخيّاط إلى سلطان بني طاهر، ومعه هديّة قيّمة للسلطان، فقبلها السلطان، وأثاب مرسلها، أمير جازان، عليها ثوابًا جزيلاً تنيف قيمته على ألف أشْرَفِي ذهبًا، وأعطى رسوله ابن الخيّاط مائة أشرفي، بالإضافة إلى كسوات عظيمة فاخرة، ثم عاد إلى بلده مارًّا بزبيد في أوائل السنة التالية[٢]. وتضمنت مراسلات الأمير المهدي لجيرانه في اليمن ومكة المكرمة، إرسال قصائد نظمت على لسانه إلى كل من الملك عامر بن عبدالوهاب الطاهري، سلطان اليمن، والشريف بركات بن محمد بن بركات (ت ٩٣١هـ/ ١٥٢٤م)، أمير مكة المكرمة يخبرهما فيها بانتصاراته على قبائل العرب المناوئة له في حرض[٣]. وردّ عليه الزعيمان بقصائد مماثلة قيلت أيضًا على لسانيهما، يهنئانه فيها بتلك الانتصارات،

(١) الديبع، الفضل المزيد، ص٢٠٧.

(٢) الديبع، الفضل المزيد، ص٢٢٠.

(٣) انظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص٩٨-١٠٥، ١٠٩-١١٠.

ويؤيدانه في الإجراءات التي اتخذها ضد هؤلاء العصاة الخارجين عن طاعته[١].

غير أن مراسلات الأمير المهدي مع الزعيمين الجارين، ما لبثت أن توقفت بعد سنة ٩١٥ هـ/ ١٥١٠ م، أو على الأقل لم تصل إلى علمنا بعد هذا التاريخ، إذ لم يعثر في المصادر المتاحة على ما يفيد بأنه بعث رسولاً، أو أجرى اتصالاً مع كل من سلطان اليمن أو أمير مكة المكرمة، في الوقت الذي أخذ يمدّ اتصالاته إلى خارج حدود الجزيرة العربية؛ ففي أوائل العقد الثالث من القرن العاشر الهجري / العقد الثاني من القرن السادس عشر للميلاد، بعث الأمير المهدي إلى السلطان المملوكي قانصوه الغوري برسالة يحثه فيها على الاستيلاء على اليمن، والقضاء على أسرة بني طاهر بها[٢]؛ وذلك في ثاني محاولة يقوم بها الأشراف السليمانيون للاتصال بمصر بعد الأمير قاسم بن غانم بن يحيى الذي مهد للوجود الأيوبي باليمن في النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد[٣]. ولا نعرف الأسباب التي جعلت

---

(١) انظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص١٠٦-١٠٨، ١١١-١١٤. تباينت ردود الزعيمين اليمني والمكي. ففي حين يطالب سلطان بني طاهر بإشراكه في بعض ما غنمه المهدي من أهل حرض، يعرض أمير مكة خدماته بإرسال عساكر من قبله لمساعدة أمير جازان ضد خصومه. أظر: الصدر نفسه، ص١٠٨، ١١٣.

(٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٥٢.

(٣) عندما قتل عبد النبي بن مهدي (ت٥٦٩/ ١١٧٤م) الأمير وهّاس بن غانم، أمير المخلاف السليماني في سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٦م، واحتل بلاده، وانتهك حرماته، استنجد أخوه قاسم بن غانم (ت٥٦٩/ ١١٧٤م) بالخليفة العباسي أو بالسلطان صلاح الدين الأيوبي، مما كان سبباً في غزو بني أيوب لليمن في سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، واحتلالها، والبقاء في حكمها حتى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، عندما توفي آخر ملوكها من بني أيوب وهو الملك المسعود، وانتقال الحكم منهم إلى سلاطين بني رسول على يد مؤسس الدولة الرسولية السلطان الملك المنصور عمر بن علي بن رسول. وقد عرضنا لذلك مبسوطاً في الفصل الأول من هذا الكتاب. وانظر أيضاً: الخزرجي، العسجد المسبوك، ص١٤٧-١٤٨، ١٨٩؛ الديبع، قرة العيون، جـ١، =

أمير جازان يستعدي سلطان المماليك ضد جاره ملك بني طاهر، وهو - كما يقول الديبع - كان «عند السّلطان الملك الظافر (الثاني) في أعلا منزلة، وأحسن مكان، وله عنده من الصنائع والإحسان ما شهد به الإنس والجان، فلم يرع له حرمة، ولا راقب فيه إلاً ولا ذمّة»[1].

ويغلب على الظن أن من أهمّ أسباب اتصالات أمير جازان بالسلطان المملوكي، وتوثيق علاقته به، والاستعانة به ضد السلطان الملك الظافر الثاني، على الرغم مما كان بينهما من علاقة وطيدة، هو تخوف الأمير المهدي من زعيم بني طاهر نتيجة لازدياد ضغط الطاهريين على الجهات الشاميّة المتاخمة لحدود إمارته من الجنوب خلال السنوات الخمس الأخيرة التي أعقبت انتصارات الأمير المهدي على العرب في حرض وما والاها، حتى وصلت بعض طلائع القوات الطاهريّة إلى مَوْر التي يعتقد أنها كانت في ذلك الوقت من أعمال منطقة جازان[2]. ويتّصل بهذا الشعور بالضّغط، أن السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري، اتصل به بعض خاصة بني سبأ، خصوم الأمير المهدي، في شوال سنة ٩١٨ هـ/ ١٥١٣ م، وسمح لهم بالتّوجّه إلى بلادهم، بعد أن طلب منهم رهائن[3]. وهذا يعني أنه ضمن ولاءهم، وفي المقابل، ربما ضمنوا بدورهم تأييده لهم ضد خصمهم، أمير منطقة جازان.

أما عن تاريخ اتصال أمير جازان بسلطان مصر، فهو غير معروف في المصادر الميسورة، وإن كان من المحتمل أنه تم بعد سنة ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤ م، أو في آخرها؛ لأن هذه السنة شهدت آخر سفارة مصرية من جانب سلاطين المماليك، تصل إلى بلاط بني طاهر، حيث وصل وفد من السلطان

= ص٢٧٦، جـ٢، ص٣؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ١، ص٣٢٢، ص٤١٨-٤٩.

(١) الديبع، الفضل المزيد، ص٢٨٠؛ وانظر أيضاً: النهروالي، البرق اليماني، ص٣١.

(٢) لمعرفة ضغط القوات الطاهرية على الجهات الشامية من تهامة، إلى الجنوب من منطقة حرض، انظر: الديبع، قرة العيون، ص١٩٦-٢٢١.

(٣) الديبع، الفضل المزيد، ص١٥٩.

المملوكي، الأشرف قانصوه الغوري، إلى زبيد في شعبان من السنة نفسها، ومعه هدايا نفيسة للسلطان عامر بن عبدالوهاب، وبعد ثلاثة أيام من إقامة الوفد في زبيد، توجه لمقابلة سلطان بني طاهر في صنعاء، حيث أكرم الأخير الوفد المصري، وأحسن معاملته[١].

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الاتصالات تعززت بين سلاطين المماليك، وأمير منطقة جازان، عندما أنجب الأخير ابنًا سماه قانصوه، على اسم السلطان قانصوه الغوري، وطبع قدم المولود على ورقة، وبعثها إلى سلطان المماليك مع هدايا وكتب تتضمن طلب المبادرة إلى إرسال قوات مصرية للاستيلاء على اليمن، واعدًا إياه بتقديم المساعدات والتسهيلات للجيش المصري، إن هو قدم إلى اليمن، ولم يطلب في المقابل من السلطان المملوكي إلا الإبقاء عليه أميرًا على منطقة جازان[٢].

استجاب السلطان الأشرف قانصوه الغوري لطلب أمير جازان، وبعث إليه قوة بحرية بقيادة الأمير حسين الكردي في أواخر سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م[٣]. فلما وصلت تلك القوة إلى جازان، بعث الأمير المهدي معها مجموعة من عساكره بقيادة أخيه عز الدين بن أحمد الذي عُيِّن سردارًا للقوات المهاجمة[٤]. ثم ما لبث أن اتسع نطاق التأييد للقوات المملوكية ضد بني طاهر، بانضمام الفقيه أبي بكر بن المَقْبُول العقيلي الزيلعي، صاحب اللُّحَيَّة، وقبائل المعازية والزيديين، بالإضافة إلى تأييد الإمام الزيدي شرف الدين يحيى بن شمس الدين (ت ٩٦٥هـ/ ١٥٥٨م)، ومباركته لذلك التّحالف الذي قام ضد

(١) الديبع، الفضل المزيد، ص٢٦٩.

(٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٥٢؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جا، ص٢٨٢.

(٣) النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص١٥٣؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص١٣٣؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جا، ص٢٨٣.

(٤) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٥٢.

خصومه، بني طاهر[1].

ومهما يكن من أمر هذا التأييد، فإن أولى المعارك وقعت بين الطرفين في جمادى الأولى سنة ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م، بموقع يعرف بالمَزْحَف، بوادي مور، حيث كانت تتمركز العساكر الطاهرية بقيادة الشيخ عبدالملك ابن الملك المنصور الطاهري[2]. وكانت القوات المهاجمة بقيادة الأمير عزّ الدين بن أحمد، أخي أمير جازان المهدي، وبصحبته جموع القبائل المتحالفة مع المماليك، بالإضافة إلى ألف من الأخيرين، معظمهم من رماة البنادق، الذين كان لسلاحهم الجديد على المنطقة، الأثر الأكبر في هزيمة القوات الطاهرية[3]. ثم واصل المهاجمون زحفهم حتى دخلوا مدينة زبيد في جمادى الآخرة من السنة نفسها، وغادرتها فلول القوات الطاهرية إلى تعز[4].

وبعد أن صفت زبيد للقوات المملوكية وحلفائها، وألقت زمامها في أيدي القوات الغازية، عيّن حسين الكردي مملوكًا يعرف باسم برسباي، حاكمًا لمدينة زبيد، وجعل الشريف عزّ الدين بن أحمد بن دريب مساعدًا له، وغادر المدينة، تاركًا لهما أمر تعقب فلول قوات بني طاهر[5]. فاستطاعا بمن معهما من التوغل في اليمن، وقتل السلطان عامر بن عبدالوهاب بالقرب من صنعاء في أواخر شهر ربيع الثاني سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م[6]؛ وبذلك تمّ القضاء على

(١) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، جـ٢، ص٦٤٢-٤٥؛ ابن لطف الله، روح الروح، ص١٧-٢٢؛ النهروالي، البرق اليماني، ص٢٠-٢١؛ الواسعي، فرجة الهموم، ص٢١٥؛ عبدالله الشماحي، اليمن، ص١٣٠.

(٢) الديبع، الفضل المزيد، ص٢٨٠؛ ابن لطف الله، روح الروح، ص٢٢.

(٣) الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص٢٢٦؛ يحيى بن الحسين، غاية الأماني، جـ٢، ص٦٤٥؛ الواسعي، فرجة الهموم، ٢١٦؛ عبدالله الشماحي، اليمن، ص١٣٠.

(٤) الديبع، الفضل المزيد، ص٢٨١، الكبسي، اللطائف السنية، ص١٣٦؛ أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ٢٤١؛ العرشي، بلوغ المرام، ص٥٨.

(٥) الديبع، قرة العيون، جـ٢، ص٢٢٨-٣٢؛ النهروالي، البرق اليماني، ص ٢٢.

(٦) الديبع، الفضل المزيد، ص ٢٨٨؛ ابن الحسين، غاية الأماني، جـ٢، ٦٥٠-٥١؛ =

دولة بني طاهر في زبيد وتعز، واستقرّ الأمير المهدي في ملكه بجازان دون منازع، وكسب إلى جانب ذلك نيابة مدينة زبيد، وما والاها التي أصبحت من نصيب أخيه عزّ الدين ابن أحمد بن دريب. غير أن الأمور ما كادت تصفو للأمير المهدي حتى فتحت عليه جبهة جديدة من الشمال، ذلك أن أشراف مكة ربما لم يعجبهم ذلك التقارب الذي قام بين المماليك، وأمراء جازان، لما قد يشكّله الأخيرون من تهديد لإمارة حَلِيْ الواقعة تحت نفوذ أشراف مكة المكرمة[1]. ومن المحتمل أيضًا أن أمراء جازان الذين تعزز موقفهم العسكري بأحلافهم الجدد، ربما امتنعوا عن دفع الإتاوة التي اعتادوا على دفعها لأمراء مكة منذ عهد الأمير أبي الغوائر أحمد بن دريب[2]. ولعل هذا ما حدا بأمير حلي، قيس بن محمد بن أحمد بن دريب الحرامي، الذي يقف شريف مكة من ورائه، على شنّ حملة على منطقة جازان في سنة ٩٢٥ هـ/ ١٥١٩ م، حيث حصلت مواجهة كبيرة بين أهل جازان وأهل حلي في موقع يعرف باسم الغَوَائِر، قتل فيها من الأشراف آل قطب الدين، وأشراف صبيا عدد كبير، وانهزم أمير جازان هزيمة شنيعة، وتراجع إلى وادي خُلب في الجنوب، وعاث أهل حلي فسادًا في وادي جازان من أعلاه إلى أسفله؛ ثم عادوا إلى وطنهم بعد الاتفاق على هدنة حصلت بينهم، وبين أمير جازان[3].

= الكبسي، اللطائف السنية، ص١٣٩؛ أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص٢٤٢؛ الواسعي، فرجة الهموم، ص٢١٦؛ العرشي، بلوغ المرام، ص٥٤-٥٨.

(١) كانت إمارة حلي، الواقعة إلى الشمال من المخلاف السليماني، وإلى الجنوب من إمارة مكة، تخضع خضوعاً اسمياً لإمارة مكة المكرمة منذ عهد الشريف حسين بن عجلان، ولكنها ما لبثت أن ضمت إلى إمارة مكة في سنة ٨٧١هـ/ ١٤٦٦-١٤٦٧م، واحتفظ حكامها بنو حرام الكنانيون بتوارث الحكم فيها مع خضوعهم المباشر لأشراف مكة المكرمة. انظر: أحمد الزيلعي، «بنو حرام، حكام حلي، وعلاقاتهم الخارجية»، ص١١٩-١٢٢.

(٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٥١، وانظر أيضاً: النعيمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص١٥١، والصفحات التي بعدها.

(٣) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٥١؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جا، =

فلما سمع الأمير عز الدين بن أحمد بن دريب، أخو أمير جازان، ونائب السلطنة المملوكية بزبيد، عاد بعسكره إلى جازان في السنة المذكورة؛ ولعله جاء في البداية نجدة لأخيه من سوء ما حلّ به، وبإمارته على يد أمير حلي، قيس بن محمد الحرامي. ولكن يبدو أنه وصل إلى جازان بعد مغادرة الأمير قيس لها. فدبّر مؤامرة على أخيه مع العساكر الجازانية مستغلاً تذمر بعض أفرادهم من سوء معاملة أخيه لهم، ناهيك عما بذله لهم الأمير عز الدين من الأموال والوعود الكثيرة إن هم ساعدوه على التخلص من الأمير المهدي، والوصول إلى السلطة[1]. فمالوا بأسرهم إلى طاعة الأمير عزّ الدين الذي استولى على قصر المهدي، وما فيه من الخيل، والعبيد، والسلاح، وسائر الأمتعة. وقبض على أخيه، ومعه وزراؤه ورجال دولته، فأعدم بعضهم وسجن الباقين، ولبث أخوه المهدي أيامًا في السجن، ثم مات مخنوقًا في السنة نفسها[2].

= ص٢٨١. يبدو أن هذه الغزوة سبقتها تحرشات من جانب أمراء حلي؛ لأن النعمي في كتابه الجواهر اللطاف، مخطوط، ص١٥١ يذكر أن «الأمير قيس (أمير حلي) لا يزال من الجانب الشمالي يغير على أطراف ممالك المهدي، ففتح باب المراسلة ليقطع علائق الحرامي من ملوك مكة، وليسلم دواعي المشاغلة، فقال:

مالِيْ إذا هبَّ النسيمُ القبلِيْ ... مبكراً إلاّ وذبتُ كُلِّيّ»

ومن المحتمل أن المهدي استطاع بسياسته تلك إيقاف تهديداً أمراء بني حرام وأمراء مكة إلى حين، ولكن الأمر تغير بعد أن أصبح يستند إلى تأييد الماليك ودعمهم، وبعد أن أصبح شريكاً في حكم اليمن، مما كان يدعو إلى الخشية من تهديده للإمارتين معاً.

(١) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٥٢.

(٢) العقيلي، المخلاف السليماني، جا، ص١٨٣.

عزّ الدين بن أحمد بين المطرقة والسّندان

تولى الشريف عزّ الدين بن أحمد بن دريب إمارة جازان بعد القبض على أخيه المهدي في سنة ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م، على الصورة التي سبق إيرادها. وكان الأمير عز الدين قد تمرّس في الأمور الحربيّة والإداريّة قبل توليه الحكم؛ فقد قاد الجيوش في عهد أخيه ضد عصيان العرب في حرض، وما جاورها[١]. وتولى حكم حرض في عهد أخيه بعد إخماد عصيانها في حوالي سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م[٢]. وشارك مع الجيوش المملوكيّة في الاستيلاء على اليمن والقضاء على دولة بني طاهر في سنتي ٩٢٢ - ٩٢٣هـ/ ١٥١٦ - ١٥١٧م؛ واشترك في حكم زبيد مع برسباي المملوكي مدة تزيد على ثلاث سنوات حتى عودته إلى جازان في سنة ٩٢٥ هـ/ ١٥١٩ م، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وهكذا يتّضح أن تلك الخبرات المتعدّدة، جعلت من الأمير عز الدين فارس حرب وطعان، ورجل حكم وإدارة، وربما ورثته شيئًا غير قليل من النّزعة إلى التسرّع، والجرأة، والاعتداد بالنفس.

غير أن الأمير عزالدين لم يعط الفرصة للالتفات إلى شؤون إمارته الداخليّة، وقضى فترة حكمه القصيرة في صراع مع جيرانه في إمارة حلي،

---

(١) ورد ذكر عز الدين ضمناً في الأشعار التي قيلت في معارك حرض ضد خصوم الأمير المهدي، مثال ذلك قول الشاعر:

وحَولكَ صنوٌ وابنُ عم سميدع ... وخلّ ومولًى مخلصٌ ومُصَاحِبُ

فربما يعني بالصنو عز الدين بن أحمد بن دريب، انظر: الجراح بن شاجر، الديوان، ص٨٩.

(٢) انظر: الديبع، الفضل المزيد، ص٢٢٦.

ومن ورائهم أشراف مكة المكرمة، ثم مع حلفاء الأمس من بقايا الجراكسة الذي أوصلهم هو وأخوه المهدي إلى حكم اليمن. فما كاد عزالدين يستقرّ في حكم إمارة منطقة جازان، حتى بادره أمير حلي، قَيْس ابن محمد الحرامي بالعداوة والبغضاء؛ ولعل ذلك يعود إلى نقض الأمير عزالدين للهدنة التي أبرمت بين أخيه، وبين أمير حلي في عام ٩٢٥ هـ/ ١٥١٩ م والتي ربما كان من أهم شروطها دفع الإتاوة التي كان يدفعها أمراء جازان لأشراف مكة المكرمة. وقد يكون من نتيجة ذلك أن جلب الأمير عزالدين على نفسه غضب الأخيرين ونقمتهم، وعرض بلاده لغزوة ثانية شنها عليه أمير حلي في سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م، حيث التقى الأخير بأمير جازان في موقع يسمى حضران، على بعد حوالي ثلاثة أميال إلى الشمال من وادي ضمد[١]. فدارت الدائرة على أمير جازان، وهزمت عساكره شرّ هزيمة، وتراجع إلى مدينة جازان، بعد أن قتل عدد كبير من الأهالي، والأشراف، من بينهم الشريف يحيى بن أحمد بن دريب، أخو أمير جازان نفسه[٢]. ولا نعرف النتيجة التي توصّلت إليها هذه الحملة، والأهداف التي حققتها، وإن كان يفترض أن أمير جازان قبل بدفع الإتاوة التي كان يدفعها أسلافه، بعد أن مُني بالهزيمة على يد الأمير قيس الذي حمله زوال أسباب غزوه لجازان على العودة إلى بلده منتصرًا.

أما الأمير عزالدين، فإنه ما كاد يضمد جراح الهزيمة التي مُني بها على يد الأمير قيس الحرامي، حتى تعرض لغارة أخرى قدمت عليه من زبيد، حيث استقل بها الجراكسة بعد زوال دولة المماليك في مصر على يد العثمانيين سنة ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م، ونصبوا أحد قادتهم، ويدعى الاسكندر أميرًا عليهم[٣]. وكانت أسباب هذه الحملة واضحة، إذ إنهم قدموا إلى منطقة جازان في سنة ٩٢٦هـ/ ١٩٢٠م، انتقامًا لمقتل حليفهم السابق الأمير المهدي الذي قدّمنا أنه

(١) الكبسي، اللطائف السنية، ص١٤٥؛ المخلاف السليماني، جا، ص٢٨٤.

(٢) النعمان، العتيق اليماني، مخطوط، ص١٥٣؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص١٤٥.

(٣) انظر النهروالي، البرق اليماني، ص٣٣؛ ابن لطف الله، روح الروح، ٢٧، ٢٩؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص١٣٨.

توفي مخنوقًا، وهو مسجون من قبل أخيه الشريف عزّالدين الذي غدا بعد انقلابه على أخيه، أميرًا لمنطقة جازان. ولما سمع الجازانيّون بقدوم تلك الغارة، وأدركوا أنهم لا قبل لهم بالمواجهة، خاصة وأنهم خرجوا للتوّ من هزيمة شنيعة - لم يكن أمامهم بمن فيهم الأمير عزالدين نفسه، إلا مغادرة بلادهم إلى جهات نائية، وإفساح الطريق للقوات الغازية لتوالي تقدّمها دون مقاومة. فأشاعت تلك القوات السلب والنهب في المنطقة، ودمّر الجراكسة وادي جازان وأحرقوه من أعلاه إلى أسفله، ثم عادوا إلى اليمن(١). ولما علم أهالي جازان، وكانوا متعلقين برؤوس الجبال، بانسحاب القوات الغازية عن بلادهم، عادوا إليها، وعاد معهم الأمير عزالدين الذين استقرت له الأمور في إمارته بعد ذلك(٢). وهكذا يلاحظ أن تلك القوات لم تكن تهدف إلى احتلال منطقة جازان، وإسقاط الأسرة الحاكمة بها، وإنما كانت لها أهداف معلنة، وهي الانتقام لخلع الأمير المهدي وقتله، وتأديب الأمير عزالدين بن أحمد بن دريب الذي دَبَّر تلك المؤامرة ضد أخيه. ومع ذلك، فإنها لم تستطع إخفاء أهدافها غير المعلنة التي ربما كانت تتمثّل في السلب والنهب والاستحواذ على ما يقع في أيدي رجالها من الغنائم.

ومهما يكن من أمر، فإن الأمير عزالدين الذي ربما كان يحدوه طموح كبير للرفع من شأن إمارته، وتوسيع حدودها على حساب جيرانها، عندما أطاح بأخيه المهدي - وجد نفسه، بعد ما حلّ به من هزائم، يعيش بين خصمين يتربصان به، ويضغطان عليه، أحدهما من الشمال، ويتمثل في أمير حلي، ومن ورائه شريف مكة، والآخر من الجنوب، ويتمثل في الجراكسة المعروفين باللوند. غير أن الخصم اللدود للأمير عزالدين، وهو الاسكندر، زعيم الجراكسة، ما لبث أن قام عليه رجاله بانقلاب قاده كمال الرومي بعد سنة فقط من غزوه لجازان، فتمكن قادة الانقلاب من إسقاط الاسكندر، وقتله،

---

(١) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٥٤.

(٢) الكبسي، اللطائف السنية، ص١٤٨؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص٢٨٤.

وتنصيب كمال الرومي أميرًا عليهم في سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م[١]. فبدت بارقة أمل جديدة لأمير جازان لتحسين علاقاته بالجراكسة في اليمن، لما قد تربطه بكمال الرومي من علاقات طيبة، اكتسبها أثناء وجوده في زبيد عندما قدم إليها عونًا لحسين الكردي، وكذلك عندما كان مساعدًا لحاكمها الجركسي برسباي[٢]. ولكن كمال الرومي ما لبث أن أطيح به بعد حوالي سنتين ونصف السنة من وصوله إلى الحكم، وتولى الأمر مكانه رجل آخر يعرف بالاسكندر بك القرماني في صفر سنة ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م[٣]. وهو أيضًا ممن تربطه علاقات حسنة بأمير جازان، وكان على اتصال شخصيّ به[٤]. هذه الأوضاع غير المستقرّة في اليمن، والانقلابات المستفحلة بين القادة الجراكسة أقلقت السلطات العثمانية في مصر، فأرسلت إليها واليًا من قبلها هو سلمان الريس، المعروف بالرومي، فلما وصل الريس إلى اليمن، استقبله واليها الاسكندر القرماني بالطاعة[٥]. ولكن القادة الجراكسة رفضوا تسليم الأمر له، وأعلنوا العصيان على قائدهم الاسكندر وعلى سلمان الريس[٦]. وكان الريس، شأنه شأن الاسكندر القرماني، وثيق الصلة بالشريف عزالدين، أمير جازان، منذ أن كان في اليمن أيام الأمير حسين الكردي - كما قدّمنا - فاستعان الريس بالأمير عزالدين، وبقبائل المهَرة ضد الجراكسة الخارجين عن الطاعة. فوصل الأمير

(١) النهراوالي، البرق اليماني، ص ٣٥؛ عبدالله الشماحي، اليمن، ص١٣٣.

(٢) العقيلي، المخلاف السليماني، ج١، ص٢٨٤.

(٣) النهروالي، البرق اليماني، ص٣٦؛ عبدالله الشماحي، اليمن، ص١٣٣.

(٤) العقيلي، المخلاف السليماني، ج٢، ص٢٨٥ - يذكر النعمان أنه خلف كمال الرومي رجل منهم يسمى علي الطويل، ولكنه لم يستمر في زعامة الجراكسة، حيث خلع في الحال، واستبدل بالاسكندر المذكور. انظر: العقيق اليماني، مخطوط، ص١٦٥.

(٥) الكبسي، اللطائف السنية، ص١٥١.

(٦) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٥٧.

عزالدين إلى زبيد برًّا، ووصلت المهرة إليها عن طريق البحر[1]. فالتقوا بالجراكسة خارج مدينة زبيد، وتمكنوا من هزيمتهم ودحرهم إلى داخل المدينة، حيث تحصنوا خلف أسوارها، ثم طلبوا الأمان من سلمان الريس، فأعطاهم ما طلبوا، ودخل المدينة تاركًا الاسكندر والأمير عزالدين خارجها[2]. ثم حصل خلاف بين عساكر سلمان الريس أو الرومي، وأهل جازان، فآثر أميرهم عزالدين الارتحال إلى بلده تجنبًا للفتنة، فتعقبه الأخيرون يريدون الشَّر، فكر عليهم الجازانيون، وقتلوا منهم نحو مائتين، وقتل من العساكر الجازانية اثنين فقط، كان أحدهما الأمير عزالدين نفسه، وعادت العساكر الجازانية منتصرة، ولكنها فقدت أميرها الذي قتل في السنة المذكورة آنفًا، على يد حلفائه من رجال سلمان الريس، والاسكندر القرماني[3]. وهكذا يلاحظ أن أمير جازان الذي كان يتطلع إلى علاقات حسنة مع الجراكسة تمكنه من تقوية مركزه في إمارته، وتقويته كذلك أمام خصومه في جازان وفي خارجها - لم تثمر مساعيه تلك في شيء، سوى أنها قادته إلى حتفه بظلفه.

(١) النهروالي، البرق اليماني، ص ٣٩؛ النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٥٧.

(٢) النهروالي، البرق اليماني، ص٣٩؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ ١، ص ٢٩٨.

(٣) انظر: النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص ١٥٧؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٥١؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ ١، ص ٢٨٥، ٢٩٨-٢٩٩.

محمد بن يحيى، ومنافسة ابن العم

أدى مقتل الأمير عزالدين المفاجيء، خارج الوطن، إلى الاختلاف بين أفراد أسرة آل قطب الدين فيمن يخلفه في منصب إمارة منطقة جازان، وشبّ النزاع بين ثلاثة من أفراد هذه الأسرة للاستئثار بهذا المنصب. وهؤلاء الثلاثة هم: الأمير أحمد بن محمد المهدي بن أحمد، والأمير أحمد الطاهر، ولعله ابن عزالدين، أمير جازان المقتول، وابن عمهما، الأمير محمد بن يحيى بن أحمد الذي قتل والده يحيى بن أحمد في سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م، في معركة حضران، وهو يقاتل ضد الأمير قيس بن محمد الحرامي، أثناء غزوته الثانية لمنطقة جازان في عهد الأمير عزالدين بن أحمد بن دريب[١]. وهؤلاء الثلاثة كلهم من بيت الإمارة، وما فيهم أحد إلاّ وكان أبوه أو جده أميرًا على جازان. فهم لذلك متساوون من حيث دعوى كل منهم في الحكم، وأحقيته بالإمارة، ولكنهم يختلفون في الأهليّة لهذا المنصب. ويبدو أن الأمير محمد بن يحيى كان من أفضل منافسيه كفاءة، وأكثرهم أنصارًا. وكان كما يصفه النعمان «من أهل العقل الراجح، والذكاء المفرط، والسجايا الحسنة، والأخلاق العظيمة»[٢]. فتمكن بفضل كفاءته وكثرة أنصاره من الوصول إلى كرسي الإمارة في أوائل جمادى الأولى سنة ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م[٣].

غير أن تغلب الأمير محمد بن يحيى على منافسيه، وفوزه بالإمارة

(١) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٥٣.

(٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٥٨.

(٣) النعمان، المصدر نفسه، والصفحة نفسها؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص١٥١.

دونهما، أثار عليه حقد ابن عمه ومنافسه الآخر الأمير أحمد بن المهدي الذي غادر جازان إلى زبيد طالبًا اللجوء عند أميرها سلمان الرومي (الريس). ثم أخذ يوغر صدر الأخير ضد الأمير محمد بن يحيى، ويحرضه على غزو بلاده وانتزاعها منه(١). فلما أحس الأخير بكيد ابن عمه له، وتدبيره ضده، والوشاية به عند حاكم زبيد؛ أراد أن يفشل خطّته، ويحبط كيده؛ فبعث بهديّة من الخيل والتحف إلى الأمير سلمان، فقبل الأخير الهديّة شاكرًا، وصرف النظر عنه إلى حين(٢). ولكن الأمير أحمد لم يتوان في الكيد لأمير جازان عند الأمير سلمان الرومي الذي وعده ظاهريًّا بالنصر، ولم يجاهر بعداوة الأمير محمد بن يحيى، إذ لم تتوافر لديه من الأدلة ما تثبت خطورة أمير جازان عليه، وتهديده لبلاده حتى يسارع إلى عداوته ومحاربته(٣). غير أن أحمد بن المهدي واصل جهوده في تأليب الأمير سلمان على أمير جازان محذرًا إياه من أن هديّة الأمير محمد السابقة ما هي إلاّ خدعة غايتها إشغاله حتى يستكمل استعداداته، ويصبح قادرًا على مواجهته. فاقتضى الرأي أن يكتب سلمان الرومي (الريس) إلى الأمير محمد بن يحيى طالبًا منه أن يشتري له خيلاً، ويرسلها إليه مع رسول مفوض يقبض ثمنها منه(٤). وكان الهدف من هذا الطلب معرفة نوايا الأمير محمد، ومدى إخلاصه له، وتجاوبه مع طلبه. ولكن الأمير محمد بن يحيى اعتذر عن تحقيق طلب حاكم زبيد، لقلة الخيل في بلده(٥). فعاود الأمير سلمان طلبه ببعث رسول من قبله إلى أمير جازان، وبصحبته بعض المال من أثمان الخيل على أن يسدد باقي الثمن عند وصولها إليه، فاحتجز الأمير محمد بن يحيى رسول حاكم زبيد لديه، ولم يوفر له ما طلب، وأقام عنده مدة ملحوظًا

---

(١) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص٢٨٦.

(٢) الكبسي، اللطائف السنية، ص١٥٥.

(٣) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٦٤.

(٤) الكبسي، اللطائف السنية، ص١٥٦.

(٥) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٦٤-١٦٥.

بالاحتقار، والإهانة، والاستخفاف، ولم يأذن له في العودة إلى زبيد[1]. وبعد إلحاح من رسول صاحب زبيد، أذن له الأمير محمد بالعودة إليها، دون أن يعطيه جوابًا، أو يقبض ما جاء به من مال، وقال له: «أبلغ مولاك السلام، وليس له عندنا طاعة ولا مخالفة، ولا نطاوع عليه عدوًّا، وإن قصدنا، فنحن وهو على الله»[2]. وقيل إنه قال له: «قل لصاحبك: ليس له عندنا طاعة ولا مخالفة، فإن تركنا تركناه، وإن قصدنا قصدناه»[3].

فلما عاد الرسول إلى زبيد، وأبلغ سلمان الرومي جواب أمير جازان، غضب الأخير غضبًا شديدًا، واستدعى أحمد بن المهدي، وأخبره بموقف ابن عمه، أمير جازان، وما أسفرت عنه اتصالاته معه، وطلب إليه إبداء الرأي[4]. فقال له الشريف أحمد: «هذا يحقِّق صدق نصحي، وحقيقة إخلاصي، ويوضح لكم سوء نواياه، والرأي أن تبادره بالقتال قبل أن يستكمل أهبته، ويصبح خطرًا عليك يصعب تلافيه، وأرجو منك ألا تقبل له عذرًا، أو تبرم معه صلحًا بعد نهوضك إليه، فإنه خدعة لا يتورع إن رآك مقبلاً، ولم يتمّ استعداده أن يذعن ظاهرًا حتى ترحل عنه ثم يعود لمخالفته عليك»[5].

تجهز سلمان للخروج من زبيد، وأقبل بعساكره إلى جازان، فالتقاه الأمير محمد بن يحيى برجاله في الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م، في موضع يسمى القَرْن، بالقرب من المَدَبّ، وفيه دارت رحى المعركة بين الطرفين، حيث قتل الأمير محمد بن يحيى، وتفرق رجاله، فواصل سلمان سيره إلى مدينة جازان، ونزل بها[6]. فأعلن الأمير أحمد بن

---

(١) الكبسي، اللطائف السنية، ص١٥٦؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص٢٨٦-٢٨٧.

(٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٦٥.

(٣) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١ ص٢٨٧.

(٤) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٦٥.

(٥) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص٢٨٧.

(٦) الكبسي، اللطائف السنية، ص١٥٦.

المهدي بن أحمد بن دريب أميرًا على المنطقة خلفًا لابن عمه المقتول، وعاد سلمان إلى زبيد منتصرًا، بعد أن شرط على الأمير أحمد مالاً، وخيلاً يؤديه كل عام[1].

(١) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٦٥-١٦٦.

أحمد بن المهدي، وبداية ضعف الأسرة القطبية

وصل الأمير أحمد بن المهدي إلى السلطة بفضل الجراكسة الذين قتلوا ابن عمّه وأعانوه على تولي الإمارة بعده، كما تقدم ذكر ذلك أعلاه. ولكنهم - في المقابل - قيّدوه بدفع مبلغ من المال والخيل إلى حكومتهم بزبيد، وفوق ذلك، ربطوه بالولاء والتبعيّة لهم. ويغلب على الظن أن أمير جازان الجديد الذي لبث زمنًا طويلاً في إغراء الجراكسة ضدّ ابن عمه، طمعًا في الوصول إلى الحكم، لم يكن راضيًا عن ذلك الربط، وربما قبل به لضرورة تحتمها عليه رغبته في انسحاب الجراكسة إلى زبيد، وترك جازان وشأنها. فما كادوا يعودون إلى بلادهم، وتستقرّ الأمور له في إمارته، حتى سارع إلى التخلي عن ارتباطاته مع سلمان الرومي، وعن الشروط التي فرضها عليه، ورفض تبعية إمارته لزبيد[(١)]. وليس مستغربًا أن يتنكّر الأمير المهدي لحلفائه، ويتخلى عن الشروط التي فرضوها عليه؛ لأن هذه الأسرة حرصت على مدى تاريخها على التمسّك باستقلال إمارتهم، وعدم خضوعها لأي جهة خارجيّة، ولقي عدد من أمراء منطقة جازان، أو المخلاف السليماني مصارعهم في سبيل الحفاظ على استقلال إمارتهم، وبقائها بمنأى عن أي نفوذ خارجي[(٢)].

---

(١) الكبسي، اللطائف السنية، ص١٥٦؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص٢٨٧-٢٨٨.

(٢) قتل من أجدادهم في سبيل هذا المبدأ عدد نذكر منهم: وهاس بن غانم قتيل عبدالنبي بن مهدي في سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م، والمؤيد بن قاسم بن غانم قتيل الأيوبيين في حوالي سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م، وقتل عدد منهم على يد الرسوليين، =

ومهما يكن من أمر، فإن الأمير سلمان الرومي، لما بلغه قرار أمير جازان بعدم تسليم ما التزم به له من أموال وخيول، ورفضه الانضواء تحت إدارة زبيد، كاتبه ووسّط عليه من يحلّ خلافاتهما بالطرق السلمية[١]. ولكن لما لم تجد تلك المراسلات والوساطات فتيلاً، سار من زبيد على رأس قوة عسكرية، ووصل إلى أبي عريش، بالقرب من مدينة جازان العليا، عاصمة الإمارة، وبعث منها إلى الأمير أحمد بن المهدي من يحذّره وينذره بعاقبة مخالفته، ويطالبه بالأموال التي التزم بها. ولكن الأمير أحمد بن المهدي كرّر رفضه لمطالب سلمان الرومي، وعادت الرسل إليه دون أن تحقق أدنى نتيجة[٢]. فتقدم سلمان صوب مدينة جازان العليا، المعروفة «بدرب النجاء»، ونشب القتال بين الطرفين، وبعد معارك حامية، قتل الأمير أحمد بن المهدي، ودخل سلمان المدينة، فنهب جميع ما فيها من الذخائر والأسلحة والأموال، ثم أمر بتدمير المدينة، وإحراقها، وإحراق جميع قرى وادي جازان من أعلاه إلى أسفله، وعاد إلى زبيد في السنة نفسها، أي في أواخر سنة ٩٣٤هـ/ ١٥٢٨م، دون أن يولي عليها أحدًا[٣].

وهكذا يتضح أن حقد الأمير أحمد بن المهدي، على ابن عمه الأمير محمد بن يحيى، وعدم التّعاون معه، والاستعانة بالقوى الخارجيّة ضده، وسياسته الهوجاء في عدم التعاون مع تلك القوى التي ربط مصيره بها، وسرعة الانفكاك عنها - أدّت إلى قتله بالسيف الذي قُتِلَ به ابن عمه الأمير محمد بن يحيى، وإلى جلب الخراب والدمار، على بلده، والتشتيت والضياع لأفراد أسرته. ويبدو أن قوة الصدمة التي ألمت بأسرة الأشراف آل قطب الدين نتيجة

= انظر: ابن الأهدال، علماء اليمن، مخطوط، ورقة ٢٧٧أ؛ بامخرمة، تاريخ ثغر عدن، جا، ص٣٦٦؛ ابن هتميل، الديوان، ص٥٤.

(١) العقيلي، المخلاف السليماني، جا، ص٢٨٨.

(٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٦٦.

(٣) النعمان، المصدر نفسه والصفحة نفسها؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص١٥٦؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جا، ص١٨٨.

غزو بلادهم مرتين متتاليتين، وقتل اثنين من أمرائهم في سنة واحدة، جعلتهم غير قادرين على تعيين أحد من رجالهم أميرًا على منطقة جازان.

ولما رأى الأمير سلمان الرومي عجز هؤلاء عن اختيار أحدهم لمنصب الإمارة، وما نتج عن ذلك من فراغ سياسي في منطقة جازان، أصبح لزامًا على زعيم الجراكسة أن يسارع إلى سدّه. فترجّح لديه أن يوليها أحد رجاله، فاختار لذلك ابن أخته مصطفى بيرم الذي وصل إلى جازان في ذي الحجة من السنة نفسها[١]، في أول محاولة تقوم سلطة خارجية - على حد علمي - بتعيين حاكم أجنبي على المخلاف السليماني أو منطقة جازان، منذ استقلال بني سليمان بحكم تلك المنطقة في أواخر القرن الرابع الهجري / آخر القرن العاشر، وأول القرن الحادي عشر للميلاد، كما تقدم. وعلى أية حال، فإن والي جازان الجديد، مصطفى بيرم، شرع منذ توليه حكم المنطقة في إصلاح ما أفسدته الحرب، وعمل على استتباب الأمن والنظام في البلاد، وعلى استقرار الأمور فيها[٢].

غير أنه ما كاد ينفذ برنامجه الإصلاحي حتى حدث في زبيد ما لم يكن في حسبان مصطفى نفسه، ذلك أن طائفة من الجراكسة من معارضي سلمان الرومي (الريس)، انتهزوا فرصة خروجه إلى غَلاَفقَة، على ساحل البحر، بناحية زبيد، في شعبان سنة ٩٣٥ هـ/ ١٥٢٨ م، فانقضوا عليه، وقتلوه، ونصبوا على أنفسهم أميرًا منهم يدعى خير الدين، ثم توجهوا إلى زبيد، فدخلوها، واعتقلوا من فيها من أنصار سلمان، واستولوا على زمام الحكم بها[٣]. فلما وصلت تلك الأخبار إلى مصطفى بيرم بجازان، وعلم بقتل خاله، وانتقال الإدارة في زبيد إلى أيدي خصومه، وأحس ببوادر انتفاضة تحاك ضدّه

(١) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٦٦؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص١٥٦.

(٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٦٦.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص١٥٦؛ عبدالله الشماحي، اليمن، ص١٣٤.

من قبل أهل جازان الذين لم يرق لهم ربط مصير إمارتهم بوجود حاكم أجنبي[1] - عمد إلى نهب وادي جازان، وإحراق قراه، واستولى على ما فيها من أموال، ورحل عنها إلى مدينة أبي عريش، ثم واصل رحلته إلى زبيد، فوصلها بعد حوالي نصف شهر من قتل سلمان[2]. ومن هناك استطاع أن يتتبع قتلة خاله، والثأر منهم، واستعادة الحكم في زبيد التي أصبحت من نصيبه[3]. ثم انشغل عن جازان، وأهلها بقتال منافسيه في اليمن[4].

---

(١) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص٣٠٢-٣٠٣.

(٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٦٧؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص١٥٦.

(٣) النهروالي، البرق اليماني، ص٥٣-٥٤؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص١٥٦؛ عبدالله الشماخي، اليمن، ص١٣٤.

(٤) العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص٢٨٩. يذكر النهروالي أن مصطفى بيرم لما رأى الأوضاع غير مستقرة في اليمن، والتنافس محتدماً بين قادة اللوند، توجه إلى الهند في سنة ٩٣٦هـ/ ١٥٣٠م، ونزل على سلطان كجرات، وأصبح له هناك شأن عظيم. انظر: البرق اليماني، ص٥٤-٥٥.

عامر بن يوسف العزيز، وسقوط الأسرة القطبية

كانت تلك الأحداث التي أشرنا آنفًا إلى وقوعها في مدينة زبيد، تصبّ في مصلحة أهل منطقة جازان والأسرة الحاكمة بها؛ لأنها أدت من ناحية، إلى رحيل مصطفى بيرم عن المنطقة، وشغلته عنها بالثأر لمقتل خاله، واسترداد ملكه باليمن، ثم قتال منافسيه على السلطة بعد ذلك. ومن ناحية أخرى، أتاحت لأهل جازان التخلص من الإدارة الأجنبية المباشرة التي لم يألفوها في تاريخهم الإسلامي الطويل، والعودة إلى استقلالهم، وإلى حكم أسرتهم الشرعيّة. فما كاد مصطفى بيرم يرحل عن المنطقة حتى اجتمع أعيانها، وأهل الرأي فيها، وقرّروا تنصيب الشريف عامر بن يوسف العزيز بن أحمد بن دريب بن خالد بن قطب الدين أميرًا عليهم[١]. وأرسلوا وفدًا لمقابلة الأمير عامر الذي كان يقيم في الدِّحْن بحازة جازان، وإبلاغه بقرارهم ذلك[٢].

وافق الأمير عامر على رغبة أعيان المنطقة، وسار معهم إلى مدينة أبي عريش، ودخلت البلاد في بداية عهده في مرحلة جديدة من الاستقرار والرخاء واستتباب الأمن والنظام. وكان نصيب مدينة أبي عريش التي نزل بها عند مبايعته من قبل أعيان المنطقة، كبيرًا من حيث ازدهارها، واتساع عمرانها[٣]. ويبدو أنه اتخذها مقرًّا ثانيًا له، لاتساع أرضها وانبساطها في حين ظلت مدينة

---

(١) الكبسي، اللطائف السنية، ص١٥٦؛ انظر أيضاً: النعمي، الجواهر اللطاف، مخطوط، ص٣٧.

(٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٦٧-١٦٨.

(٣) العقيلي، المخلاف السليماني، جا، ص٢٨٩.

جازان العليا التي لا تبعد كثيرًا عن مدينة أبي عريش، العاصمة الرسمية، للأمراء السليمانيين في معظم مراحل تاريخهم.

غير أن حياة الاستقرار التي نعم بها الأمير عامر بن يوسف العزيز في بداية عهده، ما لبثت أن أثارت عليه غيرة حساده ومنافسة أقربائه، وبصورة خاصة، أبناء عمه المهدي الذين جاهروا بمعارضته، وصدعوا بعداوته، ومنافسته على السلطة(١). فاضطر إلى الإكثار من شراء العبيد المجلوبين من أفريقيا حتى بلغ عددهم ستمائة مملوك، وصرف عليهم بسخاء، ودجّجهم بالسّلاح، وأطلق يدهم في البلاد، ومحضهم حرية التّصرف في شؤون الإمارة(٢). فاستبدّوا بالأمور، ولم يطق ضبطهم، وكثرت تعدياتهم على الأهالي الذين ضجّوا منهم، وثاروا ضدّ سياسته الهوجاء الرامية إلى الإكثار من هؤلاء الأعلاج الذين أصبح هو نفسه غير قادر على ضبطهم، وحماية الناس من شرورهم(٣). وزاد من حرج موقف الأمير عامر وقوعه تحت ضغط شديد من أمراء حلي، الأعداء التقليديين للأسرة القطبية، ومن حلفائهم أشراف مكة المكرمة في عهد أبي نمي محمد بن بركات. فاضطر إلى إعادة مدّ الجسور مع الجراكسة في زبيد، أملاً في كسبهم إلى جانبه، والاستعانة بهم ضد أي خطر محتمل يأتيه من الشمال، من قبل أمير حلي، وحليفه، أمير مكة المكرمة، أو من منافسيه ومعارضيه في الداخل من آل المهدي، أو حتى من عامة الأهالي الذين ضجوا من تجاوزات عبيده عليهم. فأرسل في سنة ٩٣٨هـ/ ١٥٣١-٣٢م وفدًا إلى زبيد برئاسة المهدي بن الهادي الحكمي، وبصحبته بعض الهدايا النفيسة، فساعد ذلك على إزالة سوء التفاهم بين جازان، وزبيد(٤). وكان ذلك

---

(١) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٦٨.

(٢) الكبسي، اللطائف السنية، ص١٥٧؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص٢٨٩.

(٣) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٦٨؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص٢٨٩.

(٤) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٧٠؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ص٢٨٩-٢٩٠.

أول اتصال بين جازان والجراكسة أو اللوند في زبيد منذ رحيل مصطفى بيرم عن المنطقة قبل ثلاث سنوات.

ولكن تلك الاتصالات لم ترض أمير حلي، قيس بن محمد الحرامي، الذي شعر بأن تلك التدابير موجهة ضده، وتهدّد أمنه، وأمن بلاده بأقوى الأخطار. فأخذ يتهيأ الفرص، ويعد العدّة للانقضاض على جاره من الجنوب. وبعد أن أتمّ استعداداته، توجّه بعساكره إلى منطقة جازان في عام ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣ - ٣٤م، وواصل تقدّمه دون مقاومة حتى وصل إلى مدينة أبي عريش التي انسحب منها الأمير عامر بن يوسف، وتحصّن في مدينة جازان المعروفة بحصانتها الطبيعية، وقوة أسوارها وتحصيناتها الحربية[١].

استقر الأمير قيس في أبي عريش أيامًا، ثم ترك أثقاله وحريمه بها، وزحف صوب مدينة جازان العليا، حيث يعسكر الأمير عامر بن يوسف. فما إن اقترب قيس من المدينة حتى تعرض لهجوم مفاجئ من قوات أمير جازان، أجبره على الهروب منهزمًا صوب الشمال، تاركًا متاعه وزوجته بنت بن شَارِد في محطته بأبي عريش[٢]. وتعقبه الأمير عامر بقواته حتى وصل مدينة بيش، شمالي إمارة منطقة جازان، وقتل من أهل حلِي عددًا كبيرًا، وغنم منهم مغانم جمّة[٣]. ثم عاد الشريف عامر إلى أبي عريش، واستولى على المحطة التي نزل بها أمير حلي، ونهب جميع ما خلفه فيها من أمتعة، سوى زوجته التي استجارت بالشيخ المهدي بن الهادي الحكمي الذي أجارها، وأنزلها منزله، فلم تمتد إليها يد، حتى أوصلها إلى زوجها بحلي، صحبة ركب الحجيج[٤]. وكانت تلك الوقعة التي حدثت يوم أربعاء حتى عرفت بين أهالي المنطقة باسم «ربوع بني حرام»، هي أول وقعة ينتصر فيها أمير جازاني على أمير حلي،

---

(١) انظر: الكبسي، اللطائف السنية، ص١٦١؛ العقيلي، الآثار التاريخية، ص٥٣-٥٦؛ المخلاف السليماني، جا، ص٢٩٠.

(٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٧١-١٧٢.

(٣) الكبسي، اللطائف السنية، ص١٦١.

(٤) النعمان، العقيق اليماني، ص١٧٤.

طوال مدة حكم الأمير قيس الذي تقدمت الإشارة إلى أنه غزا منطقة جازان مرتين متتاليتين في عهد الأمير محمد المهدي بن أحمد بن دريب، وأخيه الأمير أبي الغوائر عزالدين بن أحمد بن دريب. كما أن ذلك الانتصار ساعد على تعزيز موقف الأمير عامر بن يوسف العزيز، وعلى تقويته عسكريًّا واقتصاديًّا لكثرة الغنائم التي وقعت في يده[1].

غير أن تلك الهزيمة لم تفتّ في عضد الأمير قيس بن محمد الحرامي، أمير حلي، حيث أخذ منذ وصوله إلى حلي، يعدّ العدّة، ويجمع العساكر استعدادًا للأخذ بثأره من أمير جازان الشريف عامر بن يوسف العزيز الذي هزمه في الجولة السابقة. واقتضى استعداد أمير حلي للجولة القادمة استغلال علاقته الشخصية بأبي نمي، أمير مكة، وحليف قيس، لطلب العون والمساعدة منه[2]. فأعانه أبو نمي بعساكر كثيرة، وجعل القيادة عليهم للشريف عجل. وبعد أن اكتملت الاستعدادات، توجّه الأمير قيس بما توافر له من عساكر حلي، والمدد الذي حصل عليه من أمير مكة المكرمة، صوب منطقة جازان في سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥ - ٣٦م[3]. فلما وصلوها التقاهم أمير منطقة جازان بقواته، وهزمهم شرّ هزيمة، وفرّ الأمير قيس، والشريف عجل بعساكرهما، وطاردهم الأمير عامر إلى خارج حدود منطقة جازان، وقتل كلّ من وقع تحت يده من رجال القوات المنهزمة، ونهب أمتعتهم وسلاحهم[4]. وهكذا تعرّض الأمير قيس لهزيمتين متتاليتين على يد الأمير عامر مما لا عهد له به في غزواته السابقة ضدّ أمراء جازان. ويبدو أن المماليك الأفارقة الذين اعتمد عليهم الأمير عامر منذ وصوله إلى السلطة، لعبوا دورًا كبيرًا في ترجيح كفة الأسرة القطبية في حروبها مع بني حرام. ولما وصلت أخبار تلك الهزيمة إلى الشريف أبي نمي محمد بن بركات، أمير مكة المكرمة، لم تهن عليه

---

(١) النعمان، المصدر نفسه والصفحة نفسها، الكبسي، اللطائف السنية، ص١٦١.

(٢) العقيلي، المخلاف السليماني، ج٢، ص٢٩١.

(٣) الكبسي، اللطائف السنية، ص١٦١.

(٤) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٧٧.

هزيمة حليفه الأمير قيس بن محمد الحرامي، ولا هزيمة عساكره التي كانت تحت قيادة الشريف عجل. فأخذ يستعد لغزو منطقة جازان بنفسه[1]. وعندما اكتملت استعداداته، غادر مكة المكرمة على رأس قواته في سنة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦ - ٣٧م متوجهًا إلى منطقة جازان، وبصحبته الأمير قيس بن محمد الحرامي. فلما وصلاها استدعى أبو نمي أهل الفضل والعلم وأعيان البلاد، وأرسلهم إلى الأمير عامر بن يوسف العزيز يدعوه إلى ترك الفتنة، وحقن الدماء، وطلب العفو عما سلف منه من المخالفة والدخول في طاعته، والالتزام بمال يؤديه إليه كل سنة، ولو كان قليلاً، ووعده مقابل ذلك بالعفو والصلح، وإخلاء سبيله، والعودة هو وعساكره من حيث أتوا دون قتال[2].

امتنع الأمير عامر عن تلبية مطالب أبي نمي، فوقع القتال بينهما أيامًا. ثم انهزم الأمير عامر، وزحفت قوات الشريف أبي نمي/ والأمير قيس إلى مدينة جازان العليا، فخرّبتها، وسوت بيوتها بالأرض، وهدّمت قلعتها الشهيرة المعروفة بالثُّريَّا[3]. وعاد أبو نمي، ومن معه إلى مدينة أبي عريش ظافرًا، فأقام بها بقية تلك السنة، ومعظم التي تليها، ثم غادرها عائدًا إلى مكة المكرمة بعد أن ترك بها حاكمًا من قبله[4].

أما الأمير عامر، فإنه خرج بعد تلك الهزيمة هائمًا على وجهه، فأقام أول الأمر بالحُفار، بين الحُرَّث والعَارِضَة، ثم توجه إلى زبيد طالبًا النصر من حاكمها الجركسي الناخوذة أحمد، فلم يجد عنده وجهًا، ولم يلتفت إلى

(١) العقيلي، المخلاف السليماني، جا، ص٢٩١.

(٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٧٩.

(٣) ابن هتميل، الديوان، ص٢٠ من تعليقات الشارح؛ والجراح بن شاجر، الديوان، ص٣٣؛ البهلكي، العقد المفصل، ص٥٣؛ العقيلي، الآثار التاريخية، ص٤٩.

(٤) النهروالي، البرق اليماني، ص٨٨؛ النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٧٩-١٨٠.

طلبه، فأقام عنده إلى نهاية سنة ٩٤٣ هـ/ ١٥٣٧ م[١]. ولما يئس من نصرة الناخودة أحمد، توجّه إلى الإمام الزيدي، شرف الدين يحيى بن شمس الدين، فقابله الإمام بالإكرام، وأنعم عليه، ووعده خيرًا[٢]. ثم أرسله إلى ابنه الأمير عزالدين بن شرف الدين بصعدة، وطلب منه أن يرسل مع الأمير عامر عسكرًا، وعددًا وعدة لمساعدته في استرداد ملكه بمنطقة جازان. فأقام الأمير بصعدة شهرًا في ضيافة عزالدين بن الإمام شرف الدين حتى جهز له عسكرًا قويًّا مسلحًا بالبنادق وغيرها، وجعل على رأسه القائدين، قاسم بن عامر الفليحي، والشيخ ابن بشرية[٣]. وكان من حسن الصّدف أن ذلك الجيش وصل إلى جازان بعد مغادرة الشريف أبي نمي لها، ولم يتمكن حاكمها من قِبَلِهِ من الدفاع عنها، بل إنه غادرها بمجرّد سماعه بقرب وصول الحملة[٤]. فلم يجد الأمير عامر، والقوات التي معه صعوبة في دخول مدينة جازان في رجب سنة ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م[٥]. ووجد أمير منطقة جازان ترحيبًا من أهلها وإقبالاً شديدًا على تأييده من عامة الناس باعتباره أميرهم الشرعي، ووجدوا في عودته إلى ملكه عودة للحقّ والشرعيّة إلى أهلها الذين افتقدوها[٦]. وبقدر الإقبال على الأمير عامر، أحس القائدان اللذان قدما لنصرة أمير جازان، إعراضًا عنهما، ونفورًا منهما، وتذمرًا من وجودهما، ووجود قواتهما على أرضهم المحررة،

(١) الكبسي، اللطائف السنية، ص١٦٢.

(٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٧٩.

(٣) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٨٠. هذا الخبر المتمثل في استعانة الأمير عامر بالإمام الزيدي ينفرد به مؤرخو المخلاف السليماني الذين يجمعون من ناحية أخرة على أن سقوط الأسرة القطبية تم على يد أبي نمي، ولم أجد لذلك الخبر سنداً فيما وصل إلى يدي، من المصادر المكية والمصادر الزيدية المعاصرة.

(٤) العقيلي، المخلاف السليماني، جا، ص٢٩٢.

(٥) النعمان، العقيق اليماني. مخطوط، ص١٨٠؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ص٢٩٢.

(٦) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٨٠.

الأمر الذي ربما كان ينذر ببوادر حركة ضدّهما لإجبارهما على ترك جازان والعودة من حيث أتوا[1]. فدبرا مكيدة للأمير عامر بن يوسف العزيز، وتآمرا على قتله، وتمكنا من تنفيذ ذلك ليلاً، حيث وجد في اليوم التالي مقتولاً في داره بأبي عريش في شهر ذي القعدة من السنة نفسها. فجهّزه السادة آل الحكمي، شيوخ مدينة أبي عريش، ودفنوه في مقابر المدينة[2]. وبموت الأمير عامر طويت صفحة حكم الأسرة القطبية الذي دام حوالي مائة وأربعين سنة منذ عهد مؤسسها الأمير خالد بن قطب الدين السليماني. وبعد مقتل الأمير عامر بعدة أشهر، دخلت المنطقة مرة أخرى ضمن أراضي الخلافة الإسلاميّة، حيث ضمّها العثمانيون إليهم في سنة ٩٤٥ هـ/ ١٥٣٨ - ٣٩ م[3]، وحكمها في ظلهم - تابعين لهم ومستقلين عنهم - بعض أسر الأشراف من خواجيين، وآل خيرات، ثم أدارسة، وعلى يد الأخيرين خرج العثمانيون منها، واستقلوا بها **إلى أن دخلت في القرن الهجري الماضي ضمن الكيان الكبير، المملكة العربية السعودية**، مما يستدعي دراسات مستقلّة لكل أسرة من تلك الأسر، أو لكل فترة من تلك الفترات كل على حدة[4].

---

(١) العقيلي، المخلاف السليماني، جا، ص٢٩٢.

(٢) النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٨٠.

(٣) انظر: النهروالي، البرق العثماني، ص٨٨؛ النعمان، العقيق اليماني، مخطوط، ص١٨٤-١٨٥؛ الكبسي، اللطائف السنية، ص١٦٧؛ العقيلي، المخلاف السليماني، جا، ص٣٠٨.

(٤) **يعود أول اتصال بين منطقة جازان، وآل سعود إلى عهد الدولة السعودية الأولى** عندما قبل الشريف حمود بن محمد الخيراتي المعروف بأبي مسمار، الدخول في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والتبعية لآل سعود في سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م، وكان الشريف حمود ملكاً مستقلاً بالمنطقة، وامتدت رقعة مملكته لتشمل اللحية، والحديدة، وزبيد، وحيس، والأعمال التابعة لهذه المدن. واعترف به إمام اليمن في ذلك الوقت، المتوكل على الله، ملكاً على البلاد التي تحت يده. وكان ذلك الاعتراف باطلاع القاضي محمد بن علي الشوكاني المعروف بقربه من السلطة في اليمن، والذي يذكر أيضاً أن انتماء الشريف حمود إلى صاحب نجد استمر إلى سنة =

نخلص مما سبق إلى أن الأسرة القطبية هي فرع آخر من الأشراف الغوانم، انتسبوا إلى جدّهم الأقرب الشريف قطب الدين، والد مؤسس هذه الأسرة، الأمير خالد بن قطب الدين الذي ربما كان من أبرز الأشراف السليمانيين في زمانه، ناهيك عن قرابته القريبة لآخر الأمراء الغوانم من حيث النسب، والمصاهرة، بجانب طموحه إلى حكم المخلاف السليماني، والمحافظة على وحدته، واستقلاله. وقد برهن على ذلك بأن كانت أولى مهامه استيلاءه على مدينة حرض وناحيتها مما جلب عليه غضب السلطان الناصر الرسولي الذي غزا بلاد الأمير خالد، واقتاده أسيرًا إلى زبيد، وكاد أن يهدّد ملكه بالزوال. غير أن هذه السياسة الرامية إلى إعادة توحيد المخلاف، ما لبثت أن حصد ثمارها ابنه الأمير دريب بن خالد الذي استطاع، بما أوتي من شجاعة ودهاء، أن يفرض نفوذه على حرض، وأن يعيد وحدة المخلاف إلى سابق عهدها، وأن يفتعل من الأسباب الرامية إلى دعمه للمعارضة الداخلية في اليمن، ما يُعتقد بأنها جعلت سلاطينه ينشغلون عن مجرّد التفكير في العودة إلى الاستيلاء على حرض، وضمّها مرة أخرى إلى اليمن. ولكن هذه السياسة القائمة على تشجيع المعارضين لجيرانه، أوقعت ابنه أحمد بن دريب في مأزق مع شريف مكة المكرمة الذي ساءه أن يتبنى أمير جازان المعارضين لحكمه، الأمر الذي حتّم عليه غزو جازان، وتدميرها، وإحراقها، ونهب ما فيها من الأموال وخزائن السلاح. فعاد أميرها إلى مراجعة سياسته تلك، وسعى إلى مدّ جسور من التفاهم مع بني طاهر في اليمن، وسلاطين المماليك في مصر، وَوَرَّثَ تلك السياسة الوفاقيّة لابنه محمد المهدي الذي شهدت المنطقة في عهده عصيان قبائل حرض، واستطاع أن يخمد ذلك العصيان بفضل سياسته المهادنة لبني طاهر في اليمن، وللأشراف في مكة المكرمة. غير أنه ما كاد

= ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م، أي عندما تراجع نفوذ آل سعود عن الحجاز وعسير وجازان ونتيجة لغزوات محمد علي باشا، صاحب مصر، للجزرة العربية، أنظر: الشوكاني، البدر الطالع، جـ١، ص٢٤٠-٢٤١؛ وانظر أيضاً: البهلكي، نفح العود، ص١٤٢ والصفحات التي بعدها.

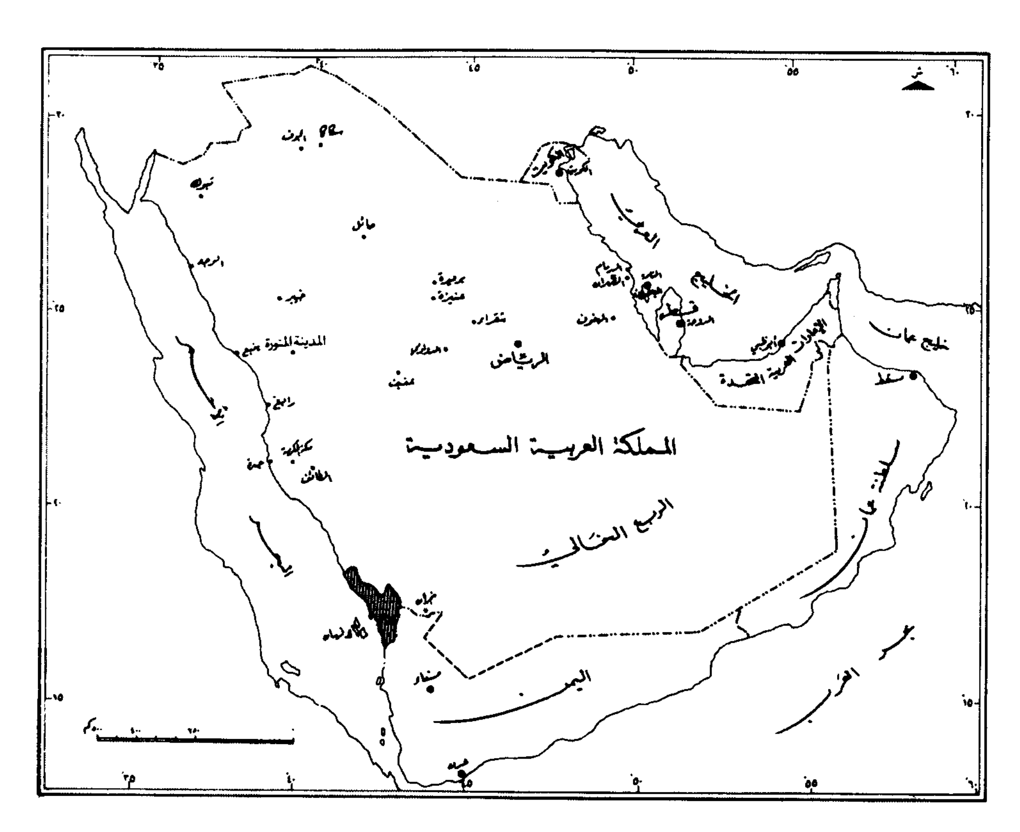
يقضي على عصيان حرض وناحيتها حتى استعان بالمماليك ضد بني طاهر، مما كان سببًا في إسقاط الدولة الطاهرية بزبيد وتعز في سنة ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م، والقبول به شريكًا في حكم اليمن.

ولكن تلك الأحداث التي جرت على الساحتين الجازانيّة واليمنيّة أقلقت شريف مكة المكرمة وحليفه أمير حلي، وأثارت شكوكهما حول نوايا الأمير المهدي وحلفائه الجدد تجاه بلادهما؛ فشنَّ أمير حلي، بدعم من أمير مكة، هجومًا استباقيًّا على منطقة جازان، حيث تمكن من هزيمة أميرها محمد المهدي، ونهب بلاده، وإضعافه، والحدّ من خطورته عليهما. غير أن تلك الهزيمة، التي حلّت بالمهدي، لم تعجب أخوه عزّ الدين بن أحمد بن دريب الذي كان يحكم زبيد بالاشتراك مع الأمراء الجراكسة. فعاد إلى جازان، وأقصى أخاه المهدي عن حكمها، ونصّب نفسه أميرًا عليها. ولكنه ما كاد يهنأ بكرسي الإمارة، ويهيِّء نفسه للثأر لهزيمة أخيه على يد أمير حلي، حتى بادره الأخير بغزو بلاده، وهزيمته شرّ هزيمة، ثم تعرّض الأمير عز الدين لغزو آخر من الجراكسة الذين كانوا حلفاءه بالأمس، عندما رفض بدوره أن يكون تابعًا لهم، أو أن يمكنهم من النيل من استقلال بلاده الذي حافظ عليه أجداده على مدى القرون. فدفع ثمن رفضه ذلك، بأن بذل نفسه رخيصة في سبيل هذا المبدأ الذي كلفه فقدان حياته على أيديهم، مثلما كلف اثنين من خلفائه فقدان حياتهما أيضًا، وهما: الأمير محمد بن يحيى بن أحمد بن دريب، والأمير أحمد بن محمد المهدي اللذان قتلا كذلك على أيدي الجراكسة دفاعًا عن بلادهما، وحفاظًا على استقلالها. فآلت الأمور بعد ذلك في منطقة جازان إلى آخر أمراء هذه الأسرة، الأمير عامر بن يوسف العزيز الذي تمكن بفضل سياسته الرامية إلى الإكثار من اقتناء المماليك الأفارقة، إلى التَّمْكين لنفسه في حكم منطقة جازان، وإلى صدّ الحملات التي تعرضت لها بلاده من قبل أمير حلي بن يعقوب، ولو أنه لم يستطع الوقوف أمام عساكر الشريف أبي نمي، حاكم مكة المكرمة الذي تمكن من هزيمته، والقضاء نهائيًّا على حكم أسرة آل قطب الدين بمنطقة جازان، **وضمّ بلادهم إلى إمارة مكة المكرمة**.

الملاحق

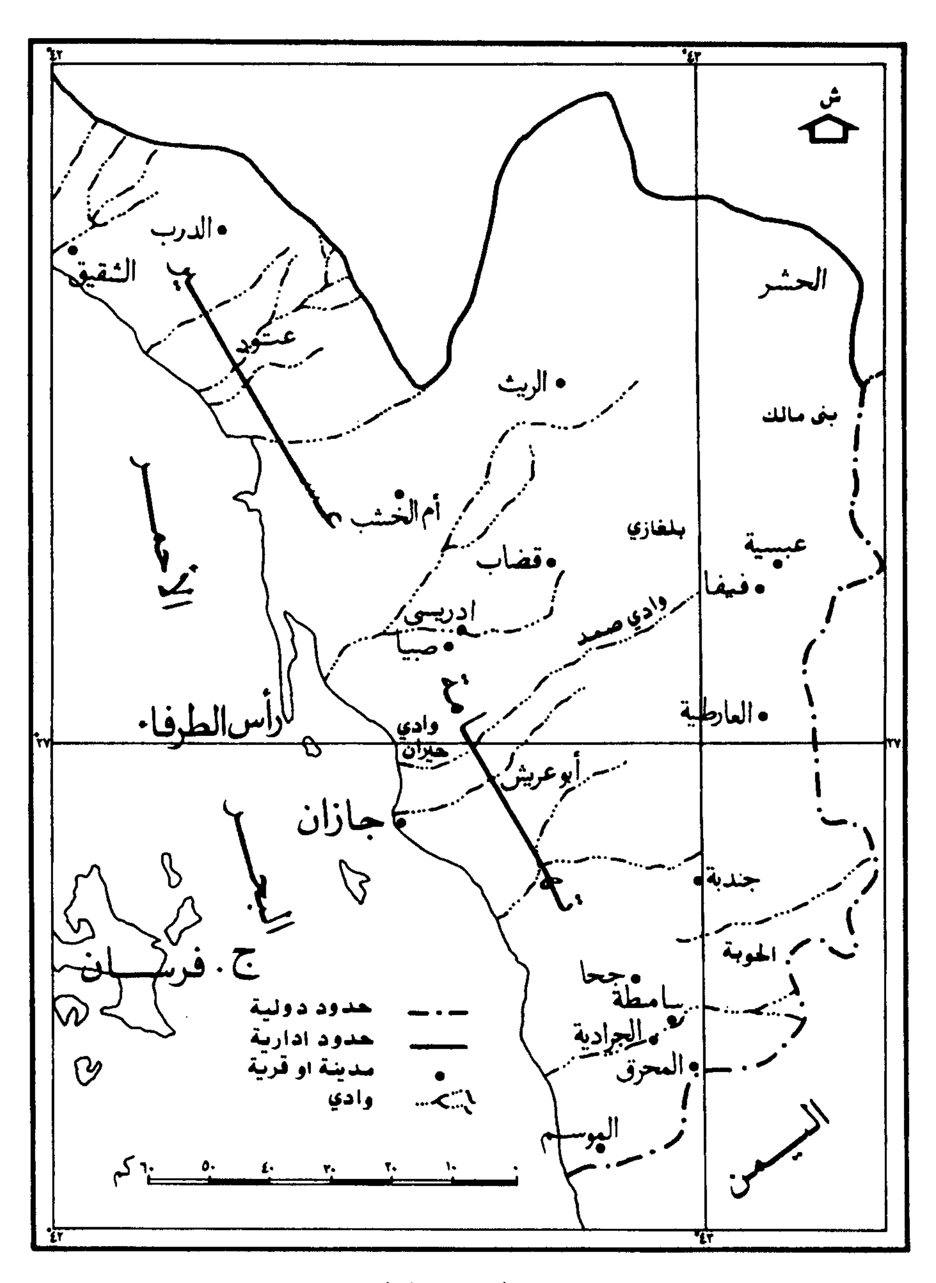
الخرائط وجداول الأنساب والأسر الحاكمة

خريطة رقم (١) موقع منطقة جازان من المملكة العربية السعودية
خريطة رقم (٢) منطقة جازان الحالية
خريطة رقم (٣) المخلاف السليماني (منطقة جازان) في بعض فترات الدراسة.
جدول رقم (١) سلسلة نسب الأشراف السليمانيين.
جدول رقم (٢) أسر الأشراف السليمانيين بالمخلاف السليماني.
جدول رقم (٣) الأمراء الغوانم المعروفون بالشطوط.
جدول رقم (٤) بنو وهّاس (أصحاب باغتة).
جدول رقم (٥) القاسميون (أصحاب بيش).
جدول رقم (٦) الذرويون (أصحاب صبيا).
جدول رقم (٧) الأسرة القطبية.



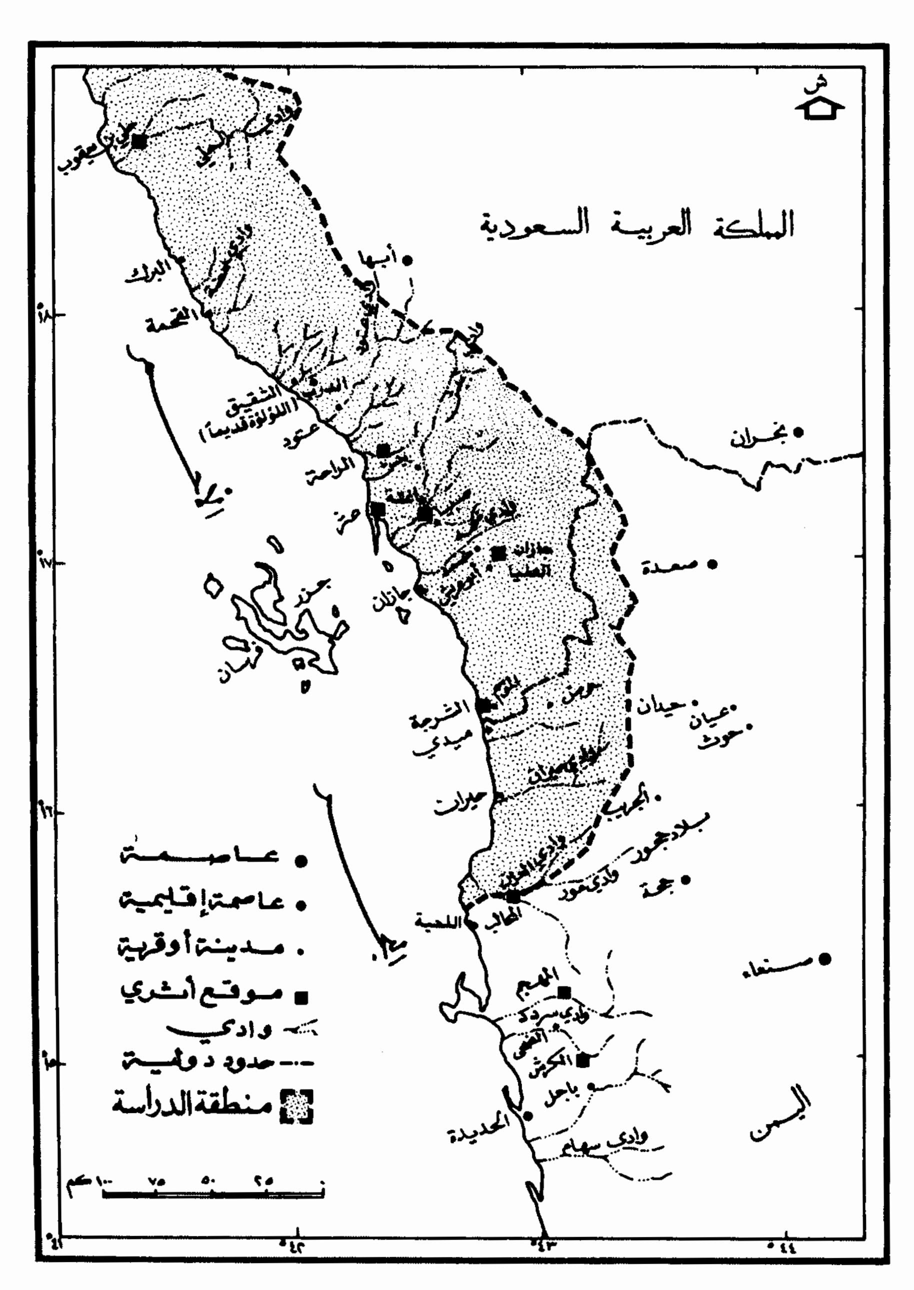
خريطة رقم (١)

موقع منطقة جازان من المملكة العربية السعودية



خريطة رقم (٢)

منطقة جازان الحالية

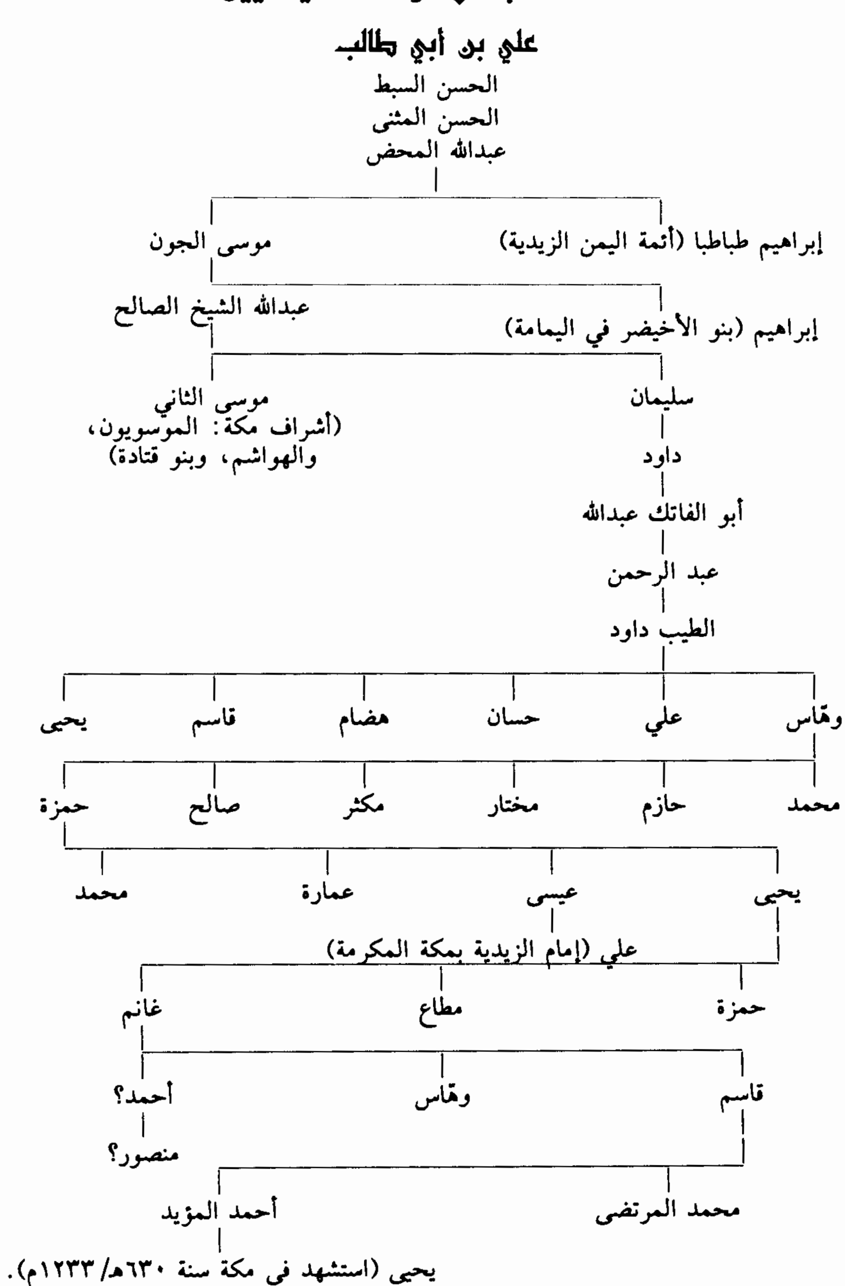


خريطة رقم (٣)

المخلاف السليماني منطقة جازان في بعض فترات الدراسة

جدول رقم (١)

سلسلة نسب الأشراف السليمانيين



جدول رقم (٢)

أسر الأشراف السليمانيين بالمخلاف السليماني أو منطقة جازان(١)



---

(١) اعتمدت في هذه السلسلة وما بعدها على طرفة الأصحاب للملك الأشرف، ص١٠٨-١١١، وذلك فيما يتعلق بالأسر المنسوبة إلى الشريف غانم بن حمزة، أما من فوق ذلك من الأسماء فمأخوذة من عمدة الطالب لابن عنبة، ص٩٩-١٠٢.

(٢) في عمدة الطالب، لابن عنبة، ص٩٩-١٠٢، صحة هذا الاسم قاسم بدلاً من هاشم، ومثل ذلك في السمط لابن حاتم، ص١٦؛ والعسجد للخزرجي، ص١٤٧-١٤٨.

جدول رقم (٣)

الأمراء الغوانم المعروفون بالشطوط

أمراء منطقة جازان

أبو الغارات غانم بن يحيى بن حمزة

هاشم (قاسم)

محمد

وهّاس (صاحب جازان)

جمال الدين هاشم (صاحب جازان في عهد الملك الأشرف)

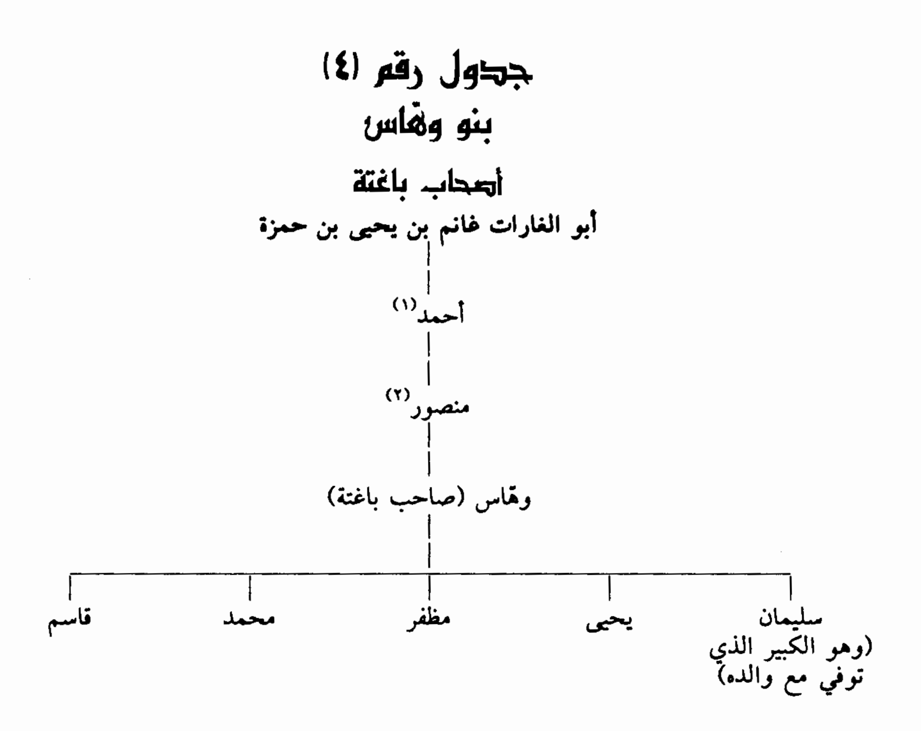
محمد

قطب الدين

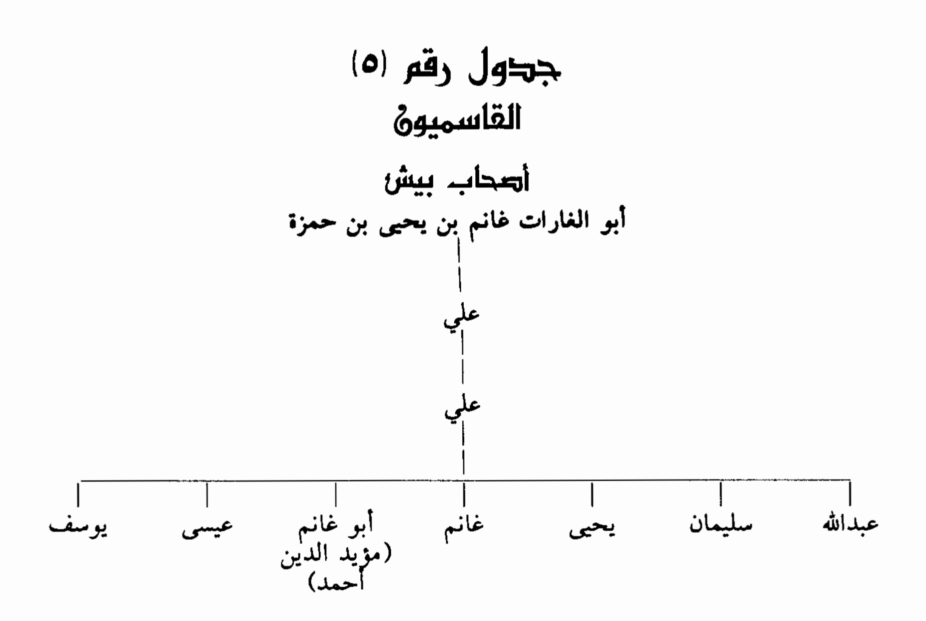
خالد
(مؤسس حكم الأسرة القطبية)

المقلَّم
(آخر الأمراء الغوانم)

جدول رقم (٤)
بنو وهّاس
أصحاب باغتة



(١) و(٢) أحمد ومنصور لم يردا عند ابن عنبة، انظر عمدة الطالب، ص١٠٢.


جدول رقم (٥)
القاسميون
أصحاب بيش
أبو الغارات غانم بن يحيى بن حمزة
علي
علي
عبدالله
سليمان
يحيى
غانم
أبو غانم (مؤيد الدين أحمد)
عيسى
يوسف

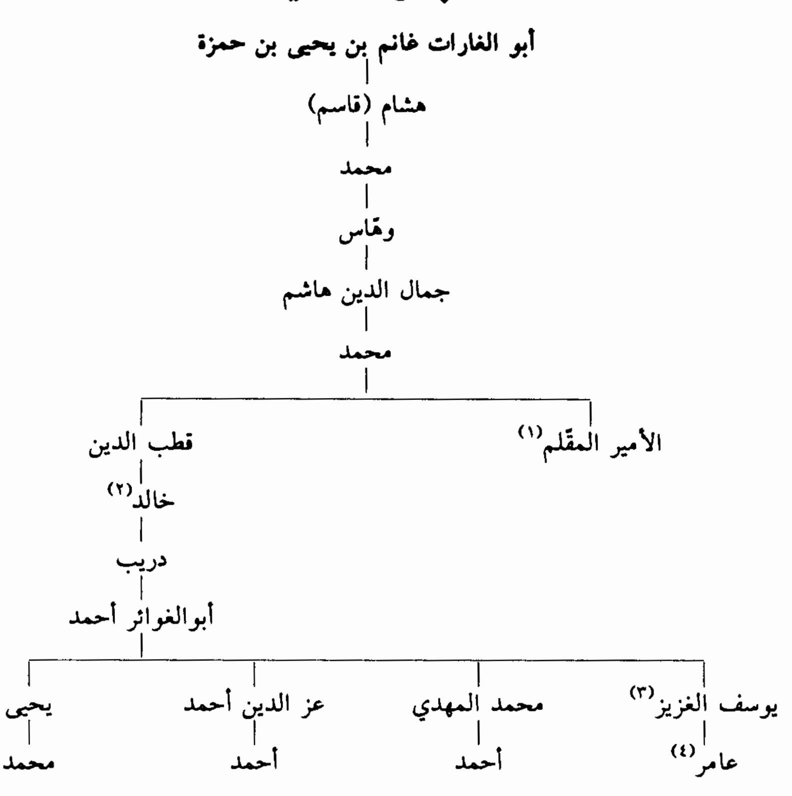
جدول رقم (٦)
الذرويون
أصحاب صبيا

أبو الغارات غانم بن يحيى بن حمزة
|
محمد
|
علي
|
خالد (فارس بني سليمان)[١] — قاسم (فارس بني سليمان)

أبناء قاسم: علم الدين الخواجي[٢]، حسين، خالد، شمس، محمد الصياد، مهدي، أحمد المؤيد، غانم، سلطان، عبدالله، المنصور[٣]

(١) (٢) (٣) زيادة من ديوان الشاعر قاسم بن هتيمل، انظر: ص٤٢-٤٤، ٤٩، ٦٥، ٧٤، ٨٧-٨٨.

جدول رقم (٧)
الأسرة القطبية



(١) آخر الأمراء الغوانم المعروفين بالشطوط، ومنه انتقلت الإمارة إلى الأمير خالد بن قطب الدين.

(٢) مؤسس حكم الأسرة القطبية بمنطقة جازان.

(٣) يسقطه صاحب العقيق اليماني من بين حكام هذه الأسرة.

(٤) آخر الأمراء آل قطب الدين.

المصادر والمراجع

أولاً: العربية

ثانيًا: غير العربية

أولاً: العربية

إبراهيم بن أحمد المقحفي.

- معجم البلدان اليمنية، الطبعة الثانية، صنعاء، دار الحكمة، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.

ابن الأثير، أبو الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني.

- الكامل في التاريخ، ط ٢، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م.

أحمد حسين شرف الدين.

- اليمن عبر التاريخ، ط ٣، الرياض، مطابع البادية، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م.

أحمد بن عمر الزيلعي.

- «بنو حرام، حكام حلي، وعلاقاتهم الخارجية»، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، مج ١٥، عدد ١، الرياض، عمادة شؤون المكتبات، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م.
- «حاكم السرين (راجح بن قتادة) ودوره في العلاقات المصرية اليمنية في مكة»، مجلة العصور، مج ١، ج ١، لندن، دار المريخ، ١٩٨٦ م/ ١٤٠٦ هـ.
- مكة وعلاقاتها الخارجية، الرياض، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.
- «المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي»، حوليات

- كلية الآداب، الحولية (٧)، الرسالة ٣٩، الكويت، جامعة الكويت، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.
- «نظام المشاركة في الحكم لدى أشراف مكة»، مجلة الدارة، السنة الرابعة عشرة، العدد الثالث، الرياض، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩ م.

إدريس، عماد الدين.

- عيون الأخبار، نصوص مختارة نشرت ملاحق في كتاب: الصليحيون والحركة الفاطمية، أنظر: الهمداني.

إسماعيل قربان.

- السلطان الخطاب، حياته وشعره، القاهرة، د. ت. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين.
- كتاب الأغاني، القاهرة، دار الفكر، د. ت.

الأكوع، إسماعيل بن علي.

- البلدان اليمانية عند ياقوت، الكويت، الجمعية الجغرافية الكويتية، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

أمين الريحاني.

- ملوك العرب، ط ١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠ م.

أمينة بيطار.

- موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين، دمشق وبيروت، دار دمشق، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م.

ابن الأهدل، حسين بن عبدالرحمن بن محمد.

- علماء اليمن، مخطوط، المتحف البريطاني، رقم ١٣٤٥.

أ. ي. ونسنك.

- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ليدن، مكتبة بريل، ١٩٣٦ م.

أيمن فؤاد السيد

- مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٧٤ م.

بامخرمة، أبو محمد عبدالله الطيب.

- تاريخ ثغر عدن، ليدن، ١٩٣٦ م.
- قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، مخطوط مصور، دار الكتب بالقاهرة، رقم ١٦٧، تاريخ.

البكري، عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي.

- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، بيروت، عالم الكتب، د. ت.

البلادي، عاتق بن غيث.

- بين مكة واليمن، رحلات ومشاهدات، ط ١، مكة المكرمة، دار مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م.

البهلكي، عبدالرحمن بن أحمد.

- نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود، تحقيق محمد أحمد العقيلي، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م.
- العقد المفصل بالعجائب والغرائب في دولة الشريف أحمد بن غالب، تحقيق محمد بن أحمد العقيلي، جدة، مطابع دار البلاد، د.ت.

ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف.

- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق محمد كمال الدين عزالدين، ط ١، القاهرة، عالم الكتب، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م.

- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٦ م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ ١ - ١٢، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م؛ جـ ١٣ - ١٦، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠ - ١٩٧٢ م.

تَسيجر، ولفرد.

- «رحلة في تهامة وعسير وجبال الحجاز»، ترجمة أحمد بن عمر الزيلعي، مجلة الدارة، السنة ١٤، العدد ١، الرياض، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م.

الجراح بن شاجر الذروي.

- ديوان الجراح بن شاجر الذروي، دراسة وتحليل محمد أحمد العقيلي، الطبعة الأولى، مطابع الرياض، ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م.

الجزيري، عبدالقادر بن محمد.

- درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المكرمة، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٨٤ هـ.

الجندي، أبو عبدالله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب.

- السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن علي الأكوع، الطبعة الأولى، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م و ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩ م.

ابن حاتم، الأمير بدر الدين اليامي.

- السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، تحقيق ركس سميث، لندن، لوزاك، ١٩٧٤ م.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد.

- الإصابة في تمييز الصحابة، الطبعة الأولى، مصر، مطبعة السعادة، د. ت.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي.

- جمهرة أنساب العرب، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.

حسن إبراهيم حسن.

- تاريخ الدولة الفاطمية، ط ٢، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٥٨ م.

حسين عبدالله العمري.

- مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني، - دمشق، دار المختار للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م.

ابن الحسين، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد.

- غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور ومحمد مصطفى زيادة، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م.

ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي.

- صورة الأرض، الطبعة الثانية، ليدن، ج. هـ كرامرز، ١٩٦٧ م.

الخزرجي، أبو الحسن علي بن الحسن الأنصاري.

- العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، ط ٢، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.
- العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر اليمن، مخطوط، مكتبة الجامع الكبير الغربية بصنعاء، رقم ٣٣٨.
- العقود اللؤلؤية، في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد بسيوني عسل، القاهرة، مطبعة الهلال بالفجالة، ١٣٣٢ هـ/ ١٩١٤ م.

ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد.

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٠ - ١٩٦٨ م.

دحلان، أحمد زيني.

- أمراء البلد الحرام، بيروت، الدار المتحدة، د. ت.

أبو دَهبل، وهب بن زمعة بن أسيد الجمحي.

- ديوان أبي دهبل الجمحي، تحقيق عبدالعظيم عبدالمحسن، النجف الأشرف، مطبعة القضاء، ١٩٧٢ م.

الديبع، عبدالرحمن بن علي بن محمد.

- بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق عبدالله الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٧٩ م.
- قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع، القاهرة، المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٣٧٤ هـ.
- الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد، تحقيق محمد عيسى صالحية، الطبعة الأولى، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م.

الذروي، الجراح بن شاجر.

- أنظر: العقيلي.

ريتشارد مورتيل.

- الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، الرياض، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

الزويد، هدى فهد محمد.

- «دولة بني نجاح في اليمن»، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الملك سعود، ١٤٠٦ هـ/ ١٤٠٧ هـ.

السباعي، أحمد.

- تاريخ مكة، ط ٣، مكة المكرمة، دار قريش للطباعة، ١٣٨٧ هـ.

السخاوي، محمد بن عبدالرحمن.

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت.

ابن سمرة، عمر بن علي الجعدي.

- طبقات فقهاء اليمن، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٧ م.

أبو شامة، شهاب الدين محمد بن عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي.

- الروضتين في أخبار الدولتين، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٤ م.

أبو شجاع، محمد بن الحسين بن عبدالله الروذراوري.

- ذيل تجارب الأمم، القاهرة، مطبعة التمدن، ١٩١٦ م.

الشوكاني، محمد بن علي.

- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، بيروت، دارالمعرفة، د. ت.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير.

- تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
- بيروت، دار سويدان، د. ت.

الطبري، محي الدين عبدالقادر.

- الأرج المسكي في التاريخ المكي، مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة الملك سعود، رقم ٢٢٢ (تاريخ).

عاكش، الحسن بن عبدالله بن عبدالعزيز.

- الديباج الخسرواني بذكر المخلاف السليماني، مخطوط، جامعة الملك سعود، مجموعة العقيلي.

- الذهب المسبوك في ذكر من تولى المخلاف السليماني من الملوك، مخطوط، جامعة الملك سعود، مجموعة العقيلي.

العامري، أبو زكريا يحيى بن أبي بكر بن محمد الحرضي.

- غربال الزمان في وفيات الأعيان، تحقيق محمد ناجي زعبي العمر، دمشق، دار الخير، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع.

- اليمن في صدر الإسلام، الطبعة الأولى، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٧ م.

عبدالله الشماحي.

- اليمن الإنسان والحضارة، القاهرة، الدار الحديثة للطباعة النشر، د. ت.

ابن عبدالمجيد، تاج الدين عبدالباقي اليماني.

- تاريخ اليمن، المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازي، بيروت، دار العودة، صنعاء، دار الكلمة، دون تاريخ.

العرشي، حسين بن أحمد.

- بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام، تحقيق الأب انستاس ماري الكرملي، مطبعة البرتيري، القاهرة، ١٩٣٩ م.

العسيري، محمد بن علي مسفر.

- الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي، جدة، ط ١، دار المدني، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

العش، محمد أبو الفرج.

- النقود العربية الإسلامية المحفوظة في متحف قطر الوطني، قطر، وزارة الإعلام، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م.

العصامي، عبدالملك بن حسين.

- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، القاهرة، المطبعة السلفية، دون تاريخ.

العقيلي، محمد بن أحمد.

- الآثار التاريخية في منطقة جازان، الرياض، دار اليمامة، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.
- أضواء على الأدب والأدباء في منطقة جازان، مكة المكرمة، نادي مكة الثقافي، ١٤٠٠ هـ.
- تاريخ المخلاف السليماني أو الجنوب العربي، الرياض، مطابع الرياض، ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٨ م.
- الجراح بن شاجر الذروي، شاعر المخلاف، دراسة وتحليل، ط ١، مطابع الرياض، ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م.
- ديوان السلطانيين، شرح وتحقيق وتعليق، ط ١، مطبعة الأنصاف، بيروت، ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ م.
- المعجم الجغرافي للبلاد السعودية، مقاطعة جازان، (المخلاف السليماني)، الرياض، منشورات دار اليمامة، ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩ م.

عماد الدين إدريس الحمزي.

- كنز الأخيار في معرفة السير والأخبار، مخطوط، مكتبة المتحف البريطاني، رقم ٤٥٨١.

عمارة بن علي اليمني.

- تاريخ اليمن، المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ط ٣، صنعاء، المكتبة اليمنية للنشر، ١٩٨٥ م.

العمري، ابن فضل الله.

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، القسم الخاص باليمن، تحقيق أيمن فؤاد السيد، القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٧٤ م.

ابن عنبة، أحمد بن علي الداودي الحسني.

- عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، دون تاريخ.

العيدروسي، محيي الدين عبدالقادر بن شيخ عبدالله.

- تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، مكان الطبع وتاريخه والناشر غير معروفة.

العيني، بدر الدين محمود بن أحمد.

- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط، المكتبة السليمانية، رقم ٢٣١٧ (اسطانبول).

غازي، عبدالله.

- إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام، مخطوط، جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، مكتبة المرحوم محمد نصيف، (جدة).

الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد المكي.

- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، الجزء الأول، تحقيق محمد حامد الفقي؛ الأجزاء من ٢ - ٧ تحقيق فؤاد سيد؛ الجزء الثامن، تحقيق محمود محمد الطناحي، الطبعة الثانية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.
- المقنع من أخبار الملوك والخلفاء وولاة مكة الشرفاء، تحقيق د. محمد ألتونجي، ط ١، دار الملاح للطباعة والنشر، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.

فؤاد حمزة.

- قلب جزيرة العرب، ط ٢، الرياض، مكتبة النصر الحديثة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

ابن فهد، عبدالعزيز بن نجم الدين عمر.

- بلوغ القرى بذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، مخطوطة مصورة بجامعة الملك سعود، رقم ف ١/٧٣.

ابن فهد، نجم الدين عمر بن فهد بن محمد.

- إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج ١ - ٣، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، بدون تاريخ؛ ج ٤، تحقيق عبد الكريم علي باز، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- الدّرّ الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مخطوطة مصورة بجامعة الملك سعود، رقم ف ١٩.

ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الكوفي.

- الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٦ م.

ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة.

- ذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨ م.

القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي.

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، دار الكتب، ١٩١٠ - ١٩٢٠ م.

الكبسي، بدرالدين محمد بن إسماعيل بن محمد الحسني.

- اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، القاهرة، مطبعة السعادة، د. ت.

ابن لطف الله، صارم الدين عيسى.

- رَوْح الروح فيما جرى بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، دمشق، دار الفكر، ١٩٨١ م.

ماجد، عبد المنعم.

- السجلات المستنصرية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٤ م.

ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب.

- تاريخ المستبصر، تحقيق لوفجرين، ليدن، بريل، ١٩٥١ م.

محمد حاسر إبراهيم عريشي.

- أبو عريش، الرياض، الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩ م.

محمد أمين صالح.

- تاريخ اليمن الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى للهجرة (عصر الولاة)، الطبعة الأولى، القاهرة، مطبعة الكيلاني، ١٩٧٥ م.
- «دولة الخوارج في اليمن، بنو مهدي في زبيد»، المجلة التاريخية المصرية، عدد ٢٥، ١٩٧٨ م.

محمد عبدالعال أحمد.

- الأيوبيون في اليمن، الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠ م.
- بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، الاسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الاسكندرية، ١٩٨٠ م.
- إحياء الخلافة العباسية، القاهرة، مركز الدلتا للطباعة، ١٩٨٧ م.

المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد.

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية، ليدن، بريل، ١٩٠٦ م.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي.

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، جزء ١، تحقيق جمال الدين الشيال، وجزء (٢ - ٢) تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٦٧ - ١٩٧٣ م.
- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق مصطفى زيادة وسعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، دار الكتب، ١٩٥٧ - ١٩٧٣ م.

الملك الأشرف، عمر بن يوسف بن رسول.

- طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، تحقيق ك. و. سترستين، دمشق، مطبعة الترقي، ١٣٦٩ هـ/ ١٩٤٩ م.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري.

- لسان العرب المحيط، إعداد وتصنيف يوسف خياط، بيروت، دار لسان العرب، د. ت.

النعمان، عبدالله بن علي الشقيري.

- العقيق اليماني في حوادث ووفيات المخلاف السليماني، مخطوط، جامعة الملك سعود، مجموعة العقيلي.

النعمي، محمد بن حيدر.

- الجواهر اللطاف المتوجة بهامات الأشراف من سكان صبيا والمخلاف، مخطوط، جامعة الملك سعود، مجموعة العقيلي.

النهروالي، قطب الدين المكي.

- البرق اليماني في الفتح العثماني، تحقيق حمد الجاسر، الرياض، دار اليمامة، ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م.

الواسعي، عبدالواسع بن يحيى اليماني.

- تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، الطبعة الثالثة، صنعاء، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م.

ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم.

- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق الدكتور محمد جمال الدين الشيال، القاهرة، دار الكتب، ١٩٥٣ - ١٩٦٠ م.

الوزير المغربي، الحسين بن علي بن الحسين.

- أدب الخواص في المختار من بلاغات قبائل العرب وأخبارها وأنسابها وأيامها، تحقيق حمد الجاسر، الرياض، النادي الأدبي في الرياض، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م.

الوصابي، وجيه الدين الحبيشي.

- تاريخ وصاب (الاعتبار في التواريخ والآثار)، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، ط ١، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٧٩م.

ابن هتيمل، القاسم بن علي.

- ديوان الشاعر ابن هتيمل، تحقيق محمد أحمد العقيلي، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب.

- الإكليل، جـ ٢، تحقيق محمد بن علي الأكوع، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

- كتاب الجوهرتين الثمينتين المائعتين من الصفراء والبيضاء، تحقيق كريستوفرتول، أبسالا، ١٩٦٨ م.
- صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، الرياض، دار اليمامة، ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م.

الهمداني، حسين بن فيض الله.

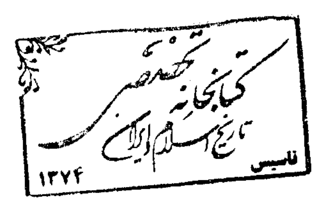
- الصليحيون والحركة الفاطمية باليمن، القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٥٥م.

ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي.

- معجم البلدان، بيروت، دار صادر - دار بيروت، د. ت.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب.

- البلدان، ليدن، ١٨٩١م.


کتابخانه تخصصی
تاریخ اسلام و ایران
تأسیس
۱۳۷۴

ثانيًا: غير العربية

Smith G. R.;

The Ayyubids and Early Rasulids in the Yemen, EJW Memorial Trust, London, 1978.

Mortel, Richard T.;

"The Genealogy of the Hasanid Sharifs of Makkah" Journal of the College of Arts, King Saud University, Riyadh, University Libraries, 1985.

Al-Zaila^{c}i, Ahmad ^{c}Umar;

"The Southern Area of the Amirate of Makkah (3rd - 7th/9th - 13th Centuries), its History, Archaeology and Epigraphy,"Ph.D. Thesis, Durham University, 1983.

فهرس المحتويات

